١٥٨٢ #

نادر العطار
دكتور دولة في التاريخ الحديث
دكتور دولة في الآثار الاسلامية
شهادة معهد الدبلوماسية العالي بمدريد

تقدمة من
الدكتور إبراهيم أبو لغد

B 1728
Acc 155867
DS
97.5
.A8
19--
١٧٤٨

تاريخ سورية في العصور الحديثة

الجزء الاول

دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني

(١٥١٦ - ١٩٠٨)

1583
The Graduate Institute of International Studies
DS
97.5
A8
19--

الاهداء

الى من ربتني صغيرا ، ورعتني يافعا وكبيرا .

الى أمي ، أمينة العداس ،

رمز بر ، وعربون ود ، وعنوان وفاء .

المقدمة

قد يصعب على المؤرخ أن يهتدي بين ثنايا الاحقاب ، الى خفايا الحكم التركي لسورية وأسراره ، وما انطوى عليه من فوضى وتشويش أخرا هذه البلاد عن ركب الحضارة الزاحف ، وأطمعت الدول الاوربية فيها ، حتى أصبح ينطبق عليها المثل القائل : من عودته أن يأكلك ، شعر بالجوع كلما رآك .

والواقع .. اننا اضطررنا ، عندما كنا طلابا في قسم التاريخ من جامعة دمشق ، أن نرجع الى المصادر الاجنبية للاطلاع على خفايا تاريخنا السوري ، وكانت الغصة تلازمنا عند كل فصل من فصول هذه المصادر الغريبة عن لغتنا ، المتعصبة علينا ، البعيدة عن مجتمعنا الذي يفهمه أبناؤه أكثر من أي غريب ، وهكذا نضجت لدى كل منا فكرة الكتابة عن سورية والتأريخ لها ، واستجلاء ما خفي من تاريخها ، على أساس وثائقي مجرد نزيه ، دون أن يهمل الوسط الدولي والمطامع الاجنبية ، ولا شك أن كل تاريخ لا يعتمد على وثائق أساسية ، هو اعادة لما كتب ، وتكرار رتيب للمؤلفين السابقين ، سواء المعاصرين منهم واللاحقين .

وهذه الوثائق الاساسية غير متوفرة في الاعم الاغلب ، يوجد منها في مديرية الوثائق التاريخية في الجمهورية العربية السورية حوالي نصف مليون وثيقة ، أما القسم الاعظم من الوثائق المتعلقة بتاريخ البلاد العربية في العصر

العثماني بشكل عام ، فيوجد في تركيا ، شكلت لجنة لدراسته منذ سنة ١٩٠٩ وقال عبد الرحمن شرف بك رئيس اللجنة أن المستودع كان يتألف من (ثماني طبقات كانت تخصص كل واحدة منها لاوراق دائرة من الدوائر ، ولم يكن بابه قد فتح منذ ثلاثين سنة ، فعند فتحه وجدنا الاوراق مبعثرة بحالة محزنة ، وقد أكلتها الرطوبة الناجمة عن تأثير الامطار ، ولم نستطع الوقوف هنالك ربع ساعة من رائحة العفونة ، فأخذنا نخرج الرزم الى فسحة الدار ، وعندما فحصناها من قرب وجدنا بينها كتلا سوداء ، واذا بها عبارة عن أوراق متلاصقة بمرور الزمان حتى اتخذت شكل حجر أسود الخ ...) .

وقد نقلت كميات من الوثائق المكتوبة على ورق متين آنئذ الى مكتبة الباب العالي ، وتقدر (بمحمول خمسمائة وثماني عشرة عربة) (١) ، ومن الصعب على المؤرخ أن يرى تاريخ كل وثيقة ، وأصعب من ذلك أن يثق به قبل مقارنته بما يؤكد صحته ويدل عليه من الوثائق المحفوظة في أوربا بشكل جيد في دوائر خاصة مختصة يقوم عليها عدد كبير من الموظفين ، ويؤمن لها كل ما يلزم لصيانتها وتعقيمها وترميمها وفهرستها الخ ... وكم من الوثائق الرسمية محفوظ دون توقيع ، وكم من الوثائق العثمانية يعود الى سنة (١٨٤٥) بينما وضع تاريخ توقيعها سنة (١٨٧٨) ، وقد عثر بعد الانقلاب الحميدي على ما يقرب من مليون وثيقة مختلفة أحيلت الى المجلس العرفي مع تقارير جاسوسية عبد الحميد الوافرة العدد . وقد بيعت بعد الحرب الاولى حوالي مائتي رزمة ضخمة من الوثائق العثمانية المالية الى بلغاريا كورق لايصلح الا للتلف واعادة الاستفادة منه كورق مقوى وغير ذلك .

---

(١) مجلة الآثار . تشرين الاول ١٩١١ (العدد الرابع) ص ٩٩ .

أما الافراد ، فقدنظروا الى الوثائق دون اكتراث ، ولم يبال عدد كبير منهم باتلافها ، وهكذا ضاعت كمية ضخمة من أسرار تاريخنا ، الامر الذي يهيب بنا الى الاسراع في حفظ البقية الباقية منه ، وهي بقية كافية بالنسبة لبعض العهود ، ناقصة مليئة بالثغرات بالنسبة لعهود أخرى •

- وهناك صعوبة أخرى تكمن في تبعثر أعداد كبرى من الوثائق في أرجاء الوطن من جهة ، وتفرقها في مختلف العواصم الاوربية من جهة أخرى ، كباريس ولندن وفيينا واستامبول وجنوا والبندقية ومرسيليا وپيزا وأمالفي وفلورنسا وغيرها ، ومعظمها وثائق ديبلوماسية أو تقارير قنصلية ، أتاح لي وجودي في أوربا طيلة أكثر من ثلاث سنوات الاطلاع على قسم منها •

هكذا يجد المؤرخ نفسه أمام صعوبات جمة ، اذا ما أراد تخطي نطاق المؤلفات المطبوعة ، والكتب القديمة ، وحاول استجلاء خفايا تاريخنا من منبعه الاصيل الغزير : الوثائق التاريخية • وقسم كبير من هذه الوثائق ضاع أو أتلف ، والقسم الثاني مبعثر متفرق ، والقسم الثالث منها في طريق الضياع والاندثار اذا لم يصار الى انقاذها في أسرع وقت ، وقد أنقذ قسم هام منها فعلا ، ومهمة انقاذ الباقي تتعلق بالامكانيات التي تضعها الدولة في متناول مديرية الوثائق التاريخية •

• • •

أما الوثائق المنشورة في آخر الكتاب ، فليست موجودة في مديرية الوثائق ، — فيما عدا الوثيقة رقم ٢ — وقد تم انتقاؤها ورتبت حسب ترتيب فصول الكتاب وحسب أهمية الفصل نفسه ، دون اغفال الوسط الدولي والوثائق التي تدل على التدخل الاوربي في شؤون هذا الشرق العربي من

بعيد أو من قريب ؛ ولو توفرت السبل ، لوضعت تحت تصرف القارىء من الوثائق ما ينير له السبيل بشكل أوضح ، ويكشف له الحقيقة بصورة أدق وأصرح .

وزيادة في الايضاح ، ورغبة في انارة الطريق أمام من سيطرق هـذا الموضوع من بعد ، فقد وضعت فهرسا لاهم التعابير العثمانية التي قد ترد في الوثائق التركية التي هي المرجع الاساسي لتاريخ سورية في العهـد العثماني ، لا أدعي فيه أنني أوضحت كل كلمة أو طرقت كل باب ، بل هو من قبيل الايضاح وتسهيل العمـل في المستقبل ، مع الاشارة الى أنني لم أستعمل هذه الكلمات في متن الموضوع الا عند الضرورة ، حرصا على ابعاد العجمة عن الكتاب ، وتجنب التعابير الاجنبية في مؤلّف عربي بحت ، حتى ولو كانت هذه التعابير ذات دلالة تاريخية ، ثم وجدت في وضع هذا الفهرس في الاخير حلا وسطا يؤدي الغاية دون أي نوع من الحرج .

ولما كانت السنين قد وردت في صلب الكتاب دون ذكر اسم السلطان العثماني الذي جرت في عهده تلك الحوادث دائما ، فقد رأيت ايراد قائمة بأسماء سلاطين آل عثمان الذين تعلق بهم موضوع الكتاب منذ فتح سورية (أي منذ عهد سليم الاول) حتى انتهاء الفترة التي نحن بصددها (أي حتى الانقلاب العثماني الذي أدى الى خلع عبد الحميد الثاني) للرجوع اليها كلما احتاج الباحث الى ذلك .

وقد رأيت وضع قائمة أخرى بأهم التواريخ المتعلقة بسورية في العهد العثماني ، تسهيلا للبحث عن تاريخ معين أو حدث خاص يهم الباحث ، وابرازا للاحداث الهامة خلال تلك الحقبة الخاصة في تاريخنا السوري .

وكل أملي أن أكون قد طرقت الهدف الذي رميت اليه من هذا الكتاب ، راجيا أن تتاح لي الفرصة لاكمال هذه السلسلة من تاريخنا السوري التي تشكل ثغرة في تاريخ العرب الحديث ، بنفس الاسلوب الذي يحاول تبسيط المعقد من المعلومات ، ليصبح في متناول الجميع ، والله ولي التوفيق .

محمد نادر العطار
مدير الوثائق التاريخية

البابُ الأوّل

عرض و تحليل

الفصل الأول

سورية في ظل الاسلام

لبلاد الشام في تاريخ العالم القديم طابع خاص ، أبرز ما فيه تقلب الغزاة على أرضها الطيبة ، وكثرة عدد الاقوام التي مرت بها تباعا ، والتي اصطرعت عليها في فترة ما من الزمان .

ولقد عرفت سورية ، أو جزء كبير منها على الاقل ، الكثير من هذه الاقوام ، عرفت السوبريين والسومريين ، ومر عليها الحثيون والمصريون والآشوريون والفرس واليونان ، حتى تقدم الرومان من بلادهم البعيدة فاتحين منتصرين ، فمكثوا فيها حتى طردهم العرب المسلمون .

ظهر الاسلام في زمان صعب ، تعاقبت فيه الحروب بشراسة بين الروم (البيزنطيين) والفرس ، وكثرت المذاهب الدينية والمنازعات الداخلية في جسم الامبراطورية الكبير ، الذي كانت الشيخوخة تدب فيه ، والضعف يعمل مخالبه القوية في مختلف أركانه .

وأقبل العرب يحملون شعارهم الخالد ، وينشرون دينهم الجديد .

كان عصر الجاهلية قد ولى ، وخلاف القبائل قد راح في سبات عميق ، وكان أبو بكر قد خلف الرسول الاعظم ، يدير سياسة الدولة الفتية ، ويوجه جيوشها الى العز والمجد والسؤدد .

وكان الرسول قد أرسل الجيوش لاختبار قوة الروم ، وعبر عن آرائه في فتح تلك البلاد لنشر الاسلام وأشرف على بدء تجهيز جيش أسامة بن زيد .

فلما تولى أبو بكر الخلافة ، دعا المسلمين لقتال العدو ، فأقبلوا عليه من كل حدب وصوب •

وكانت مواقع أبلى فيها المسلمون أحسن بلاء ، الى أن كانت وقعة اليرموك الحاسمة ، فانهزم الروم ، وتبعهم الظافرون يثخنونهم بالجراح ، وينتزعون منهم المدن السورية واحدة بعد أخرى ، حتى تم الفتح ، ودخلت بلاد الشام في نطاق الدولة الاسلامية الفتية •

لم يتكبر الفاتحون الجدد ولم يتجبروا ، ولم يسلبوا ولم ينهبوا ، بل اكتفوا بفرض الجزية على (أهل الذمة) وهي كل ما طلبوه منهم ، ولهم بعد ذلك أن يقيموا شعائرهم ، ويتمتعوا بحرياتهم كاملة ، وأن يحتفظوا بالديانة التي يريدونها ، فكان ذلك مصدر اعجاب بهم ، مهد سبيل الاسلام الى قلوب هؤلاء المحكومين الذين طالما تذمروا من مظالم أبناء دينهم القدماء وأحقدتهم عمليات السلب والمصادرة باسم الدين أيام الحكم البيزنطي •

والذميون ، وقد رأوا تلك العزة التي يتمتع بها المسلم وتلك الحرية في اقامة شعائره وسائر تصرفاته ، رغبوا في اعتناق الاسلام ، رغبوا في التخلص من تلك القيود التي فرضها عليهم المسلمون في اقامة شعائرهم : كعدم رفع أصواتهم في الجنائز ، وعدم اظهار كتبهم المقدسة في الطرق والاماكن العامة • ولم يكن في الاسلام نفسه ما يخالف المبادىء الجوهرية للمسيحية ، الا انه عملي جمع بين الدين والدنيا في تشريع مرن لا تؤثر على مرونته العصور ، فأقبلوا على اعتناق هذا الدين تحدوهم الى ذلك جميع مغريات الدنيا والآخرة ، وكان الزمان كفيلا بازالة الفروق بين الحاكمين والمحكومين ، فاذا بسورية بلد عربي اسلامي تنبثق عنه الحضارات ، وتسير منه الجيوش ، ويستقر فيه حكم الاسلام والعروبة على مر العصور •

تم تعاقبت الاحداث واستولى الامويون على مقدرات الدولة الاسلامية الناشئة وجعلوا من دمشق عاصمة تلك الدولة الفتية القوية •

كانت أيام الامويين في دمشق خالدة مجيدة ، لان الروح العربية كانت لاتزال تسيطر على ادارة الحكم ، وتسيير أمور الدولة ، فحشدت الجيوش ، وأرسلت للفتح والجهاد في سبيل الله •

وتوغل المسلمون في أفريقيا غربا ، ثم عبروا جبل طارق الى اسبانيا ، ففتحوها واندفعوا شمالا الى فرنسا معقل الفرنجة الاصلي ، حتى كانت معركة بلاط الشهداء (بواتييه) عام ٧٣٢م حيث توقفوا ، الا انهم لم يتراجعوا عن جنوب فرنسا الذي احتلوه مدة طويلة من الزمان •

أما في الشرق ، فقد دخلت جيوش الامويين السند والهند ، وفرضت الجزية على الصين بالذات ، ولم يكتف الامويون بالتفوق البري ، بل مدوا بصرهم الى التفوق في البحر ، فابتنوا الاساطيل ، وأتقنوا فنون الحرب البحرية حتى استطاع معاوية في أيام دولته الاولى أن يفتتح جزيرة رودس ، ويغزو جزيرة صقلية ، وهاجم الوليد بن عبد الملك جزيرة اقريطش (كريت) وصقلية وسردينيا ، واحتل جزر الباليار •

كل هذه الحروب كانت توجه وتدار من الشام ، حيث كان مقام الخلافة وأركان الحكم الديني والدنيوي ، والى تلك التوجيهات ترجع أهم أسباب التوسع الاسلامي العربي المظفر ، وبناء نواة الاسطول العظيم الذي طرق العرب به فيما بعد أبواب روما ، وهددوا كنيسة القديس بطرس •

وكان من الطبيعي وقد امتلأت خزائن بيت المال بخيرات البلاد المفتوحة أن تزدهر الشام بصورة عامة ، ودمشق بصورة خاصة ، وأن يلتفت الخلفاء

الى الاصلاح وتشجيع العلوم والفنون ، فأنشئت الدواوين ، ونظمت الشؤون المالية في الدولة ، وأنشئت الفروع التي أمنت وصول المياه الى كل حي ، وكل بيت في المدينة ، وشيدت العمائر الفخمة التي نرى أجملها في جامع دمشق الاموي •

أما الشعراء فقد جادت قرائحهم في مديح الخلفاء والثناء عليهم ، ولم يردهم هؤلاء عنهم ، بل قربوهم وأجازوهم ، فتطور الشعر ذلك التطور الذي فرضته روح الدولة الجديدة ، وصبغته المدنية الاموية بصبغة خاصة لم يكن يعرفها من قبل ، كما نشطت الموسيقى والغناء ، ولاقتا بعض المجال في بلاط الوليد الثاني وغيره وفي قصور بعض الحكام والامراء • وأما العلوم فقد ازدهرت وخصوصا علم الحديث ، وأدى حرص المحدثين على الوثوق من صدق المحدث الى تتبع السير والاخبار ، فنشأ علم التاريخ والاخبار بشكله المعروف آنئذ ، كما وجد في الدولة الاموية من اشتغل بالطب والكيمياء •

وبدأ الخليفة يتخذ مظاهر الابهة والعظمة اللتين كانتا تحيطان بملوك الشرق القديم ، وتطورت الحياة الاجتماعية ، وبدت دمشق قبلة أنظار العالم المتمدن آنئذ ، يؤمها الغرباء ، ويتردد عليها المسلمون ، كأكبر عاصمة لاعظم امبراطورية كانت سورية لها بمثابة القلب والرأس على السواء ، وهي الذروة التي بلغتها في تاريخها الطويل •

• • •

وفي خلال هذا المجد المؤثل ، وتلك العزة الشاملة ، كانت مراجل الحانقين تغلي وتثور ، وتظهر من آن لآخر في ثورات أتعبت الامويين وشغلتهم مدة طويلة من الزمان •

كان أبرز هؤلاء الغاضبين وأحنقهم على الامويين الموالي من المسلمين ، فقد كانت الدولة الاموية عربيـــة خالصة ، تعصبت للعرب ، وفضلتهم على الاعاجم من أبناء الدين ، الامر الذي سبب نكسة في قضية هؤلاء كان لها صداها الشديد فيما بعد ، بعد أن خابت آمالهم في الوصول الى مثل مايتمتع به العربي مـــن الميزات والقيم الاجتماعيـــة رغم مجدهم الغابر وحضارتهم المنقضية ، ورغم اعتناقهم الاسلام وتعصب بعضهم له ، فكان من المنتظر أن يحنقوا على هذه الدولة التي حالت دونهم والمكانة التي كانوا اليها يطمحون ، وأن ينحازوا الى صف أعدائهم الذين كان عددهم في تكاثر مستمر مع الايام .

وكان من أولئك الحانقين أهل البيت ، وخصوصا شيعة علي الذين طالما تمردوا على الامويين ، حتى اتخذ الامر أخيرا شكل دعوة منظمة تحت ستار الحج والتجارة ، كان الموالي من الفرس أول من انضم اليها وآزرها .

ومن أولئك الغاضبين أيضا الخوارج الذين كانت لهم صولات وجولات مع كتائب الامويين وجيوشهم ، فاذا أضيف الى كل ذلك اذكاء نار العصبية الجاهلية بين العرب أنفسهم ، وتعصب الخلفاء تارة للقيسية وتارة لليمنية ، مما سبب انقسام العرب على أنفسهم ، بينما انتظم أعداؤهم في صف واحد لمحاربتهم ، وبعض الاخطاء في سياسة الامويين كتولية العهد لاثنين ، وانغماس بعض خلفائهم في الترف والبذخ ، اتضحت أسباب النقمة العامة التي اعتملت في مختلف نواحي الامبراطورية العربية ضد حكم دمشق ، فلما تفاقم الامر وحان الوقت ، رفعت الراية السوداء ، وأعلنت الثورة العامة على الامويين .

كانت الدعوة قد ابتدأت قبل ذلك بكثير لأهل البيت من أحفاد علي ، ثم انتقل الحق من العلويين الى العباسيين الذين مارسوه بكل نشاط ، حتى اذا أثمرت الجهود ، وامتلأت القلوب بالاحقاد ، شاهد الناس الاعلام السود

(شعار العباسيين) ترفرف على قلاع الشام وأسوار مدنها ، وجيوشهم تكتسح العالم الاسلامي معملة أسلحتها الماضية في ظهور الامويين ونحورهم ، حتى خلص لهم الامر وتوطدت دعائم ملكهم بعد لأي وطول سنين .

وصلّت العباسيون السيوف على رقاب البيت الاموي ، فقتل من قتل ، وهرب من هرب ، ونظر عرب الشام بأسف الى ماقدمت أيديهم ، وانصرافهم عن الخليفـة الاموي أيام محنته حتى تسلط عليهم الاعاجم ، وسالت منهم الدماء ، وراحوا يستمعون باهتمام الى اشاعات عودة السفياني واحيائه لمجد الامويين الزائل ، بمعونة جيوش أموية ستزحف من الاندلس ، فكان من المعقول أن يستلوا السيوف كلما دعاهم داع الى الثورة مؤيدين متوعدين .

وهكذا مر العهد العباسي الاول وسوريا مسرح للمنازعات القبلية بين قيس ويمن ، وميدان للثورات المتعاقبة ، وكان العباسيون يدركون مكانة سورية السياسية كبلد كانت توجه منه مقدرات الدولة الاسلامية ، فساسوها تارة بالشدة والقسوة وتارة باللين والحكمة ، الا أن الواقع الذي لا شك فيه هو أن بلادالشام أضاعت بذهاب الامويين مكانتها الممتازة كقلب الامبراطورية العربية ، وحلت بغداد ثم سامرا محل دمشق في ذلك ، عدا فترة قصيرة جدا قصدها فيها المتوكل ونقل اليها الدواوين والكتبة ، ليعود بعد قليل طوعا أو كرها الى الجنود الاتراك ، حكام الامبراطورية الجدد ؛ أما مكانة سورية العسكرية ، فقد أجبر العباسيون على الاحتفاظ بها كنقطـة انطلاق لحرب الروم ، فابتنوا على حـدودها الشمالية العواصم والثغور ، ووجهوا منها الغزوات والحملات .

ثم ابتدأت أواصر ذلك البناء المتين تتفكك ، وبدأ أمراء الولايات يفكرون جديا في الانفصال عن هيكل الدولة المتوهن الكبير .

بدأ الامر بالطولونيين الذين استقلوا عن الدولة العباسية في مصر ثم زحفوا الى سورية فضموها اليها سنة (٢٦٤هـ) ، وطمع الامراء وكثر الثائرون في الدولة وأصبحت الشام رأس الجسر الذي تعبر منه جيوش الدويلات من أفريقيا وآسيا ، لتتحدى دولة المشرق وخلافة أهل البيت .

وظهرت النحل والدول ، فانتشر القرامطة (٢٨٩هـ) ثم قامت الدولة الاخشيدية وجاء الفتح الفاطمي (٣٥٩هـ) يبسط سيطرته على الشام ، التي لم تلبث أن اضطربت ، فتقاسمتها الدويلات ، وضربت الفوضى أطنابها فيها .

وانتهى الامر باستيلاء السلاجقة (٤٦٧هـ) على هذه الرقعة من الارض ، يحاولون اصلاحها بطريقتهم الخاصة ، ويستنهضون عزائمهم لبناء دولة قوية هددت بيزنطة في عقر دارها ، واضطرتها الى طلب النجدة من الغرب باسم الدين ، وتظلما من تهديد جيرانها الاقربين .

هكذا كانت حالة الشام عندما زحفت جيوش الصليبيين الى الشرق ، دويلات تتعاقب ، وجيوش تقتتل ، وسكان متذمرون حاول السلاجقة ضمهم الى صفوفهم ، والحكم العباسي قابع عاجز ينتظر المصير المحتوم الذي كتب لكل بلد يتحكم فيه الغرباء ، وتتقاذفه الاهواء والنزعات والمصالح الخاصة .

كان الغرب في ذلك الحين منغمرا في وهدة من الجهل ، تسيطر عليه الكنيسة بشكل مطلق بعد أن دان لها الامراء وأحنى لها رؤوسهم الملوك .

وكانت الكنيسة ، وهي في أوج مجدها ، قد أخذت تمد أبصارها الى خارج أوربا بعد أن تمت لها السيادة في القارة نفسها ، الى الامبراطورية البيزنطية التي شقت عصا الطاعة واتخذت مذهبا دينيا خاصا ، والى الامبراطورية العربية المتفككة التي تملك ناصية المشرق بثرواته وخيراته ، وفيها قبر المسيح

المقدس ومسقط رأسه ، ولعلها كانت تعتزم السيطرة على العالم كما فعل الاسلام من قبل ، بعد أن تم اعتناق العناصر المتبربرة للديانة المسيحية وتجلت فيها الروح الحربية مقرونة بالحماس الديني الشديد .

وكان الترك السلاجقة قد مدوا سيطرتهم الى سورية ، وابتدأت روح التسامح حيال حجاج المسيحية الى القدس تتغير نظرا لحداثة عهد الفاتحين الجدد بالاسلام وتعصبهم له ، ونظرا لطباعهم العسكرية الجافية ، فراح رجال الدين في أوربا يضخمون من أخبار الحج ، ويبالغون في وصف (العسف والجور) الذين يلاقيهما الحجاج المسيحيون في بيت المقدس .

وحدث آنئذ أن السلاجقة تقدموا في آسيا الصغرى فاتحين حتى هددوا القسطنطينية نفسها ، فسارع البيزنطيون الى طلب النجدة من الغرب ، وقدم بطريرك القسطنطينية خضوعه الى البابا في روما .

وكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي تنتظرها سلطات الكنيسة الغربية .

جمع البابا (أوربان الثاني) الفرنسي الاصل مؤتمرا عاما دعا فيه الى انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان عالما فصيحا ملأت كلماته قلوب المؤتمرين وعقولهم خصوصا بعد أن أعلن حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين ووعدهم بالغفران وحسن المصير ، فانتشروا يحرضون الاوربيين على انقاذ الارض المقدسة بحماس منقطع النظير .

وراقت الفكرة لمختلف طبقات الشعب .

رأى الفرسان والنبلاء الخاضعون لغيرهم في هذه الحرب مجالا لاظهار شجاعتهم ، وحصولهم على الاقطاعات الغنية والزعامة المرموقة ، وهو أمر يضيق عنه المجال الاوربي الذي كانوا فيه يعيشون .

ورأى رقيق الارض في ذلك فرصة للتخلص من الرق الذي طالما أخضعهم لعادات وتقاليد حيال سيدهم الفارس يندى لها جبين الانسانية والتاريخ .

ووجد الصناع وسائر طبقات الشعب في هـذه الدعوة ما يمكنهم من الوصول الى الشرق وكنوزه التي حلمت بها الاقوام المتبربرة منذ أن اعتنقت المسيحية في القرن الخامس وأغرقت الغرب بين حطام الخرائب وعناصر الفوضى فالتفت سكانه الى أقطار الشرق البيزنطي وكنائسه المحلاة بالذهب (١) .

وعلى ذلك تشكل الجيش المنشود تحت قيادة بعض أمراء الاقطاع ، الا أنه قبل أن يزحف ، توجه ما يقرب من ثلاثمائة الف من أفراد الطبقات الدنيا الى سورية عن طريق آسيا الصغرى حتى وصلوا الى نيقيـا حيث أفناهم السلاجقة عن آخرهم (٢) ، وذلك عام (١٠٩٦) ميلادية .

اتجه الصليبيون الى آسيا الصغرى حيث اجتمعوا في القسطنطينية ، وقيل أن عددهم بلغ مائة الف فارس وستمائة الف من المشاة عدا النساء والاطفال ، ومن هناك زحفوا على نيقية وهزموا جيش قليج ارسلان أمير سلطنة الروم واحتلوا الرها وجعلوها أول مركز حربي لجيوشهم التي زحفت الى انطاكية فدخلتها بعد حصار صعب دام تسعة أشهر (١٠٩٧م) ثم اتجهت الى بيت المقدس حيث أعطت الامان لحامية المدينة ، حتى اذا فتحت لها الابواب ، انقضت على الاهلين قتلا وسلبا ونهبا .

وأنشأ الصليبيون دولة لهم في القدس وقواعد حربية في انطاكية وطرطوس

---

(1) H. Lammens : La Syrie. T. 1. (P. 195).

(2) L. Halphen : L'Essor de l'Europe (Peuples et civilisations, T. VI (P. 66).

وطرابلس وصور وعكا ، وبذلك حققوا جميع أهداف الحروب الصليبية . وتمت سيطرة الكنيسة على قبر المسيح ومسقط رأسه ، واستعاد البيزنطيون قسما كبيرا من ملكهم المفقود ، وأنشأ الامراء والفرسان والمغامرون أمارات لهم في سورية بعد الجولات المظفرة التي كانوا أبطالها . أما العامة فقد سلبوا ونهبوا وتمتعوا بالطيبات التي كانت عاملا هاما في اجتذابهم الى هذه الحرب الطويلة الامد ، وبدأت العلاقات التجارية بين الامارات اللاتينية في الشام وبين جمهوريات جنوة والبندقية وبيزة وانفتح سبيل المهاجرين الى فلسطين ، فقامت العلاقات بين الفاتحين وفق نظام الاقطاع ، وسادت اللغة الفرنسية نظرا لان العنصر الفرنسي كان سائدا في تلك الحملة .

أما أسباب هذا النجاح فأولها انقسام السلاجقة وانعدام الوحدة بين المسلمين ، وثانيها المساعدة الفعالة التي قدمتها أساطيل الجمهوريات الايطالية ، وثالثها سهولة العبور من غرب أوربا الى الشرق بسبب اعتناق المجريين المسيحية ووجود الدولة البيزنطية .

على أن هذا الشرق الاسلامي المتنازع لم يلبث أن بدأ يصحو على صيحات الفرنجة وقعقعة أسلحتهم ، ويدرك أهمية هذا الغزو في عرين العروبة بالذات ، فتهيأت النفوس للمقاومة بانتظار الزعيم الذي يجمع شتاتها ، ويقودها الى الجولات التالية ، ولم يطل بها الامر ، اذ سرعان ما جاءت سنة (١١٢٧م) بعماد الدين زنكي أتابكاً على الموصل والعراق ، فنظم أمور ملكه ، ثم زحف على الرها سنة (١١٤٤) فاستردها من الصليبيين .

وخلفه على الشام ابنه نور الدين محمود ، ودعت الكنيسة الى القيام بحملة صليبية ثانية ، فاجتمع جيش لجب بقيادة ملك فرنسا لويس السابع

وامبراطور المانيا كونراد الثالث وسار متعرضا لمصاعب الطريق الجمة وهجمات السلاجقة المتكررة المستبسلة ، حتى اجتمع الملكان في عكا ، وزحفا الى دمشق ، فخف نور الدين محمود الى ملاقاتهما ووصل أخوه سيف الدين بقواته من الموصل وأخفق الصليبيون أمام أسوار دمشق • فعاد العاهلان الى اوربا ، ومنيت الحملة الثانية بالفشل الذريع ، ولم يلبث نور الدين أن استولى على انطاكية ودمشق ثم مد سيطرته الى مصر حيث عين صلاح الدين الايوبي الذي واجه الموقف الدقيق بحزم وروية ، فلما توفى العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، جعل الدعاء باسم الخليفة العباسي ، وأصبحت مصر تابعة للزنكيين •

ودارت عجلة الزمن لحساب المسلمين هذه المرة ، فتوفي نور الدين ، وضم صلاح الدين ملكه اليه ، وسيطر على الشمال سيطرة تامة حتى انحصر الصليبيون بين فكي أسد ، ثم بدأ يستعد للمعركة الحاسمة سنتين كاملتين ، حتى اذا اكتملت العدة ، وتهيأت السبل ، خرج يريد لقاء الصليبيين لاجلائهم عن ديار الاسلام •

اطمأن صلاح الدين بادىء ذي بدء الى سلامة المواصلات بينه وبين مصر ، وقضى على الحاميات الصغيرة التي وزعها العدو هناك ، ثم زحف الى مضاربه الاساسية فدخل طبريا ، وسارعت حاميات عكا والناصرة وحيفا والقدس للقائه ، فاستدرجها الى حطين ، وأوعز الى حامية طبريا بالانسحاب ، وهنا خف الصليبيون للحاق بالفارين ، حتى اذا تبعثرت قواتهم بين مكامن المسلمين ، انقض عليهم هؤلاء يمزقون شملهم ، حتى هلك منهم أكثر من عشرة آلاف جندي ، وانهزم الباقون وأسر أشهر القواد في تموز (يولية) ١١٨٧ • ثم احتل صلاح الدين عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا وبيروت

ثم بيت المقدس نفسه ، وخيل للكنيسة في الغرب أن وجه التاريخ بدأ يتغير ، وأن الامر أصبح يستدعي القيام بحملة قوية لاعادة الامل الضائع •

وكانت الحملة الصليبية الثالثـة ، قادها فريدريك باربروسا الالماني ، وفيليب اوغوسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا ، فغرق بربروسا في الطريق ، وتنازع ملكا فرنسا وانكلترا بعد سقوط عكا فانسحب فيليب اوغسطس ، وبقي ريتشارد قلب الاسد وحده في الميدان ، فطلب الصلح بعد عدة جولات أظهر فيها الفريقان شجاعة عظيمة فأجابه صلاح الدين الى ذلك ، واتفق الفريقان على ترك بيت المقدس بأيدي المسلمين بشرط السماح للمسيحيين بالزيارة والحج وابقاء الساحل من صور الى يافا للصليبيين ، ورد المخلفات الدينية •

ولم يحصل بعد ذلك في سورية ما يستحق الذكر ، فقد تركز الصليبيون في عكا بعد أن يئسوا من استرداد القدس ، ووجهت الحملات الغربية بعد ذلك الى مصر حتى قيض الله للمماليك خلفـاء صلاح الدين أن يزحفـوا لاخضاع الامارات الصليبية في سورية واحدة بعد أخرى ، حتى سقطت عكا سنة (١٢٩١م) آخر معقل للصليبيين على الساحل السوري •

وهكذا انحسرت هذه الموجة الاولى التي تعرضت لها سورية الاسلامية ، ولكنها أسفرت عن نتائج خطيرة في تاريخ العالم بأكمله ، فقد صانت دولة بيزنطة من الانهيار ، ولولاها لاحتل السلاجقة القسطنطينية وعبروا منها الى بلاد البلقان ، الا انها أضعفت بيزنطة الى حد سهل معه على الاتراك العثمانيين فيما بعد التغلب عليها وفتح عاصمتها ، كما منعت تقدم العرب في جنوبي اوربا وغربها وحدت نهائيا من سيطرتهم البحريـة على البحر المتوسط في القرون الوسطى ، وعلّمت الاوربيين الاتحاد في سبيل أغراض مختلفـة ،

وأظهرت في بلادهم قوة المدن والطبقة الوسطى فبدأ انهيار النظام الاقطاعي وظهور سلطة الملوك ، كما قوت من مركز البابوية والكنيسة .

على أن النتائج الخطيرة لهذه الحروب تجلت فيما بعد ، فقد اعتاد الاوربيون القيام بالرحلات الطويلة الشاقة ، وأدى هذا بالرحالة الى اكتشاف المناطق المجهولة من الكرة الارضية مع الزمان . وأهم هذه النتائج وأبعدها أثرا ظهور النهضة الاوربية الحديثة ، ذلك أن الصليبيين الجفاة تركزوا في بلاد أرقى منهم في المدنية والحضارة ومستوى المعيشة ، فهذبت أخلاقهم وأمدتهم بالمعلومات الهامة التي كانت نواة نهضتهم وسيطرتهم على العالم فيما بعد ، كما غرست فيهم منذ ذلك الوقت المطامع الاستعمارية ، وفتحت أعينهم الى غنى الشرق ومدى الاستفادة منه .

ولا بد من الاشارة ، قبل اختتام هـذه الفقرة ، الى أن العامل الديني الذي تذرع به الغربيون في زحفهم نحو الشرق لم يكن الا وسيلة لتحقيق أهداف أخرى لاتمت الى الدين بصلة ، بدليل ارتكاب الغزاة من أعمال الاجرام مالاترضى عنه الديانة المسيحية بشكل من الاشكال ، وبدليل تفرق الصليبيين أنفسهم وعدم انجادهم بعضهم بعضا بعد أن استقروا وتم لأمرائهم ماأرادوه ، وانصرافهم عن بيت المقدس في الحملات الصليبية التالية ، فاستقرت الحملة الرابعة في القسطنطينية ، ووجهت الحملات الاخرى الى مصر نظرا لاهميتها الاقتصادية بالنسبة للجمهوريات الايطالية وقربها من أوربا بشكل عام . فاذا قورن كل ذلك بروح الايثار التي تحلى بها كل عربي في الفتح الاسلامي ، والتسامح الذي فرضه الاسلام على الفاتحين العرب وانصرافهم الى نشر تعاليم الدين الحنيف في الشرق والغرب ، ظهر الفارق واضحا بين

الحماس الديني المخلص وبين المظهر الديني الذي تستتر وراءه رغبات ونزعات لا تمت للدين بسبب .

. . .

وقد تعرض الشرق العربي لعاصفة أخرى أطاحت بالخلافة العباسية في بغداد وكادت تعصف بالعالم الاسلامي بأجمعه لولا حزم المماليك واجتماع الشمل حولهم ، فقد فوجيء العالم بظهور قوى جديدة على مسرح التاريخ ، كانت من التتار هذه المرة ، زحفت على الصين ودخلت بكين ، كما سارت الى الغرب ، وقضت على امارة خوارزم ، وأخضعت بلاد فارس ، ولم يفكر جنكيز خان قائد تلك القوات في السير الى الغرب أكثر من ذلك ، بل وجه اهتمامه وجهة أخرى حتى توفي ، وأعقب ذلك تنازع مرير بين زعماء التتار أنفسهم نعم خلاله العالم الاسلامي بشيء من الاستقرار النسبي ، انتهى بأن انقسمت الامبراطورية المغولية الى قسمين تفصل بينهما الصحراء القائمة بين نهري طراز وتشوي ، اتجه حكام القسم الاول الى أوربا الشرقية بينما سار محاربو القسم الآخر تحت قيادة هولاكو الى الشرقين الاوسط والادنى ، ينكب مدنهما ، ويغمرها بالدماء والدموع .

اجتاز هولاكو نهر جيحون في كانون الثاني (يناير) ١٢٥٦م فأخضع بلاد فارس وزحف على بغداد فاحتلها في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٢٥٨م وقتل خليفتها العباسي المستعصم بالله ، ثم تابع سيره الى سورية حيث سارع بعض الامراء لتقديم خضوعهم له ، حتى وصل الى حلب فدخلها بعد أن عجز أهلها عن مقاومته ، وجرت في عاصمة الحمدانيين مذبحة تشيب لهولها الولدان ، حتى اذا امتلأت نفسه تشفيا غادرها الى الجنوب قاصدا دمشق ،

فاتحا ما اعترضه في الطريق من المدن ، حتى دخل عاصمة الامويين فأخضع قلعتها وتابع سيره الى الجنوب حيث كانت القوة الاسلامية الاساسية .

أما المماليك فقد عبأوا قواتهم ، واستعدوا للقتال ثم ساروا للقاء المغول ، فكانت المعركة الحاسمة بين الطرفين في عين جالوت قرب الناصرة حيث أنزلت بالمغول هزيمة شنيعة قلبت مدهم الى جزر في (٣ ايلول ــ سبتمبر ١٢٦٠م) فتراجعت جيوشهم وطاردها الظاهر بيبرس حتى تم اجلاؤها عن سورية وأنقذ العالم الاسلامي من كارثة كبيرة .

ولم يمض على ذلك قرن ونصف قرن حتى عاد التتار من جديد بشكل أعنف من سابقه بقيادة تيمورلنك (تيمور الاعرج) فاجتازوا بلاد فارس والعراق ودخلوا مدينة حلب فنهبوا وأحرقوا وسبوا ، ولما استسلم الدمرداش نائب حلب وسلم القلعة ، أعملوا في هذه المدينة القتل حتى أهلكوا منهم كما يقول ابن اياس عشرين الف نفس وهلك تحت سنابك الخيل ومن الجوع والعطش أكثر من هذا العدد ، ثم تابعوا زحفهم يخربون وينهبون ويرتكبون الفظائع أينما حلوا الا في حمص التي قال تيمور أنه وهبها لابن الوليد ، حتى وصلوا الى دمشق فدخلوها بعد حصار وارتكبوا فيها من الفظائع ما لايتسع المجال لذكره في هذه العجالة ، فنهبت الاموال وسبيت جميع النساء ، وحملت رواحل التتار فوق طاقتها ، حتى اذا ثقل الحمل عليها في طريق العودة ، طرح الغزاة القساة ما زاد في الطريق من البضائع الثمينة ، ولم يغادروا دمشق الا بعد أن أشعلوا فيها النار ثم انسحبوا يعيدون في ذهابهم ما كان منهم في وصولهم .

ولم يكتف تيمور بذلك ، بل جمع العمال والصناع والعلماء والفقهاء فاصطحبهم معه تاركا البلاد تعاني النقص في النفوس وفي أرباب العمل ،

وعاد النزاع بين الامراء بعد هذه الكارثة المريعة يوقع البلاد في الفوضى وينشر فيها الاضطراب ، وزاد في سخط الاهلين وحنقهم تحول طريق التجارة عنهم ، فقد كانت السفن الايطاليـــة تبتاع من موانيء الشام ما يلزمها من التوابل وغيرها من منتجات الشرق الاقصى وبلاد العرب وخصوصا اليمن ، وكان المماليك يسهلون هذه التجارة لقاء المكوس الهائلة التي كانوا يجبونها من ذلك ، الامر الذي در ثروات طائلة عليهم وعلى الجمهوريات الايطالية التي كانت تتسابق الى التمتع بعطف المماليك رغم معارضة البابوات الملحـــة في ذلك ، الا أن الغيرة سرعان ما اعتملت في نفوس الاوربيين الغربيين فحاولوا البحث عن طريق مباشرة بين أوربا والهند ، واهتدى البرتغاليون بالفعل الى طريق رأس الرجاء الصالح فاستخدموه على نطاق واسع ، وانصرف الناس عن البحر المتوسط ، وتضاءلت بنتيجة ذلك البندقية وفقد المماليك ثروة هامة ، الامر الذي اضطر الاهلين الى الاكتفاء بمواردهم الخاصة ، وزاد من تذمرهم من حكم المماليك ، ذلك التذمر الذي بعثته المشاحنات الدموية المستديمة ، حتى يئسوا من الصلاح ، وتطلعوا الى أولئك المسلمين العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية وأزالوا الامبراطورية البيزنطية من الوجود ، عل في مجيئهم وتوحيدهم لديار الاسلام أمناً للناس وطمأنينة لهم ، ونفعاً للدين ونصراً له على أعدائه في الشرق والغرب .

الفصل الثاني

الفتح العثماني

تتحدث احدى الروايات التاريخية بأن عشيرة قايي من قبائل الغز التركية تراجعت أمام المنغول الى خوارزم حيث التمست الحماية من الشاه جلال الدين فسمح لها بالاقامة شمالي غربي أرمينيا ، فلم يطب لزعيمها سليمان البقاء ، وخرج بقبيلته يريد آسيا الوسطى حتى لقي حتفه في الفرات قرب حلب ، فعاد ابنه الثالث أرطغرل الى آسيا الصغرى من جديد .

وتذهب هذه الرواية الى أن أرطغرل عندما عاد الى أرض السلاجقة وجد جيشين يتحاربان ، فأوحت اليه شجاعته بالانتظار حتى اذا ظهرت الهزيمة على أحدهما انضم اليه وقلب الهزيمة الى نصر ، فاذا الجيش الذي نصره جيش سلطان السلاجقة علاء الدين ، أما الجيش المهزوم فكان الجيش المغولي(١) . وليس هناك سند وثائقي يؤيد هذه القضية أو ينفيها ، ولكن المهم أن السلطان السلجوقي أقطع هذه القبيلة الجديدة أرضا حول مدينة (اسكي شهر) في الجزء الغربي من الاناضول ، وكان موقعا حصينا سرعان ما قدره المهاجرون وعملوا على استغلاله أحسن استغلال .

ولما توفي أرطغرل سنة (١٢٨٨) تولى بعده ابنه عثمان الذي نسب اليه العثمانيون ، فاعتنق الاسلام ، وتبعه عدد كبير من أفراد قبيلته حتى غدت

---

(١) هامر : تاريخ الدولة العثمانية . الجزء الاول (ص ٩١) .

قوة الاسلام التي يعتمد عليها ، وانضم اليها المجاهدون من مختلف أنحاء آسيا الصغرى وبدأ حركته التوسعية يساعده في ذلك ضعف حال البيزنطيين والسلاجقة على السواء ، فاستولى على بعض المدن البيزنطية على الساحل ، ثم توفي فخلفه ابنه اورخان الذي اتسم عهده بطابعين ، أولهما الفتوح وثانيهما الاصلاح .

أما في الميدان الاول فقد استطاع العثمانيون أن يضموا اليهم الجزء الاكبر من الاراضي البيزنطية حتى لم يبق لبيزنطة الا عدد قليل من المدن المتناثرة على السواحل ، أما في الميدان الثاني فقد كانت مصادر التشريع تقتصر على القرآن والسنة ، فلما تعقدت الامور واتسع نطاق الحكم مست الحاجة الى تشريع زمني يعتمد عليه في الحكم والادارة ، ويشمل ثلاث نواح : الاصلاح النقدي ، واللباس ، وتنظيم الجيش ، وساعده على هذه الناحية الثالثة ما فطر عليه فرسان الاتراك من حب للحرب وما عرف عنهم من جرأة ، أضيف اليها انشاء قوة من المشاة قسمت الى وحدات ، وأوجد موردا دائما للانفاق على الجيش ، ثم استعاض عن المشاة الاتراك بجيش من أبناء المسيحيين الذين ربوا منذ صغرهم في أحضان الدولة على حب الحرب والقتال ، سموا بالانكشارية ، وابتدأ العثمانيون في التوسع على طريقين ، الاولى باتجاه أوربا ، والثانية باتجاه آسيا ، وتابع خلفاؤه خطة التوسع غربا ، لولا أن خطرا كبيرا لاح من الشرق ، فقد تقدمت جيوش المنغول عبر أراضي المماليك في حلب ودمشق تحت قيادة تيمورلنك ، مما اضطر العاهل العثماني الى ترك مشروعاته الغربية والاسراع نحو الشرق ، الا أن تيمورلنك كسره في موقعة (جبوق آباد) في تموز (يولية) ١٤٠٢ وأسره مع ابنه ، فلما مات بيازيد (السلطان العثماني) في الاسر ، نشب النزاع بين أبنائه حتى آل

الامر الى ابنه محمد الاول فبدأ بتنظيم ما أفسده المنغول ، وفي عهد مراد الثاني استؤنفت الفتوح حتى ظهر محمد الثاني الملقب بالفاتح فسار الى القسطنطينية التي ثبتت حوالي شهرين لجيوشه ثم سقطت في (١٤٥٣) ودار قتال في شوارع المدينة قتل فيه الامبراطور قسطنطين التاسع ، ثم دخل محمد العاصمة البيزنطية ، فأمر باعادة بناء حصونها واتخذها عاصمة لملكه وشجع ازدياد سكانها فأصبحت منذ ذلك الحين حاضرة العثمانيين المزدهرة ، واستأنف محمد الفاتح انتصاراته في أوربا ، الا أن الفتوح توقفت برهة في عهد خلفه بيازيد الثاني لتعود أيام ابنه سليم الاول الذي تولى سنة ١٥١٢ ، ولكنه التفت الى ميادين الشرق هذه المرة ، ومنها سورية .

• • •

لم ينتبه سلاطين مصر وسورية الى هذه القوة المتعاظمة على حدودهم الشمالية باديء ذي بدء ، الا أن قدوم المنغول أوجد الظرف الملائم لتكوين علاقات بين الدولتين فرضها الخطر المشترك عليهما معا ، فلما انحسرت موجة التتار عن الشرق ، كانت أنظار المماليك قد اتجهت الى ما يدور في آسيا الصغرى على حدودهم الشمالية .

ودارت عجلة الزمن ، ووصلت الاخبار الى مصر عن دخول العثمانيين القسطنطينية وانهيار الدولة البيزنطية ، فأقيمت الزينات في القاهرة ابتهاجا بهذا الحدث العظيم ، ولكن سرعان ما أخذت العلاقات بين الطرفين تسوء بسبب مشاكل الحدود المشتركة ، وخصوصا تلك التي أوجدها النزاع العثماني الفارسي .

كان عاهل فارس آنئذ الشاه اسماعيل الصفوي ، فعمل على نشر المذهب

الشيعي ، واستعمل في سبيل ذلك وسائل الشدة والعنف ، ولم يقتصر على فارس ، بل أرسل الرسل الى الاناضول ينشرون الدعوة الشيعيـة ، وكان الاتراك أهـل سِنّة ، فقاوموا محاولة الشاه ، واستخدموا ما في وسعهم لاستئصال الشيعة من آسيا الصغرى ، ثم رأوا أن هذا الاستئصال لن يتم الا اذا أمنوا حدودهم الفارسية بضرب الفرس في عقر دارهم ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، فانتصر العثمانيون في معركة (چالديران) في ٢٣ آب (أغسطس) ١٥١٤ ودخلوا عاصمتهم تبريز ، ثم أحجموا عن مطاردتهم لتأمين حـدودهم المملوكية بعد أن شعروا بأن المماليك أخذ يساورهم شيء من الحذر والخوف من تلك الانتصارات المتوالية على حدود مملكتهم القريبة •

وقد تجلت مظاهر هذا الحذر واضحة في حرب السلطان سليم مع الشاه اسماعيل ، وكانت هناك نقطة حساسة على الحدود يحكمها علاء الدولة من سلالة ذي القدر التركمانيـة ، وتأتمر بامر قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك تحتم على العثمانيين اجتيازها ، فاذا بمصاعب التموين تحيطهم بها قوات علاء الدولة العجوز ، واذا بالشكوك تساور سليماً بأن هذا التصرف انما صدر عن أمر قانصوه الغوري نفسه ، مما أجبره على قتل أمير المملكة القدرية ، ومنح الامارة الى ابن أخيه علي بك ، فسارع قانصوه الغوري الى الاتفاق مع الشاه اسماعيل لاتقاء الخطر العثماني المتزايد •

وهنا أدرك سليم ضرورة الاستيلاء على هذه البلاد العربية تأمينا لحدوده الجنوبية ، اذا ما تجدد النزاع مع الصفويين ، كما أراد أن يسبق الفرس الى سورية ومصر ، لاستخدام مواردهما في نزاعه مع الشيعة ، فضلا عن أن الاستيلاء عليهما يعطي الدولة العثمانية فرصة الزعامة والسيطرة في العالم الاسلامي بأجمعه •

خرج السلطان سليم في حملة جديدة ضد الصفويين سنة ١٥١٦م ٩٢٢هـ فسار قانصوه الغوري الى حلب يريد التوسط للصلح ، الا أن العثمانيين أساءوا معاملة سفرائه ، واتجهوا الى الجنوب حيث التقوا مع جيش المماليك بمرج دابق في ٢٤ آب ـ أغسطس ١٥١٦ وكان على رأسه قانصوه الغوري نفسه ، فانهزمت ميمنته بعد قتال ، والتحق خاير بك نائب حلب بالعثمانيين فانكشفت الميسرة ، ثم انضم جانبردي الغزالي نائب حماه الى السلطان العثماني سليم ، فكسر المماليك شر كسرة وقتل سلطانهم وتراجعت فلولهم الى حلب حيث هاجمهم السكان قاطبة انتقاما لما أنزله المماليك بهم في ذهابهم ، ولم يلبث السلطان المظفر أن وصل الى الشهباء فاستقبله الاهلون بالتكبير والتهليل ، فأمنهم ، واجتمع الى المتوكل على الله الخليفة العباسي ـ وكان قد رافق قانصوه الغوري ـ وأطلق خطيب الجمعة عليه لقب خادم الحرمين الشريفين ، ثم تابع سيره ، فاستسلمت له حماه وحمص ، حتى دخل دمشق في ٢٦ ايلول ـ سبتمبر ١٥١٦ ، حيث توجه اليه بعض الامراء يقدمون خضوعهم ، ويتمنون للبلاد الخير على يديه ، فشجعهم وأمر ببناء بعض ماخرب من الابنية ، ووعد الاهلين بالعدل والامان .

وكان في نية العاهل العثماني أن يكتفي باعتراف مصر بسيادته عن طريق السكة والخطبة ، فلما رفض ذلك طومان باي الذي تولى بعد الغوري ، زحف العثمانيون الى مصر فهزموا المماليك في خان يونس بين غزة والعريش ، ثم هزموهم مرة أخرى قرب القاهرة في ٢٢ كانون الثاني ـ يناير ١٥١٧ ، أما طومان باي فقد هرب الى الدلتا ثم وقع في أيدي السلطان فشنق في ١٣ نيسان ـ ابريل ١٥١٧ .

هكذا خضع هذا الجزء من الشرق العربي لحكام جدد يختلفون عن

الحكام السابقين من نواح عديدة كان لبعضها تأثير في تقرير مصير كل من الفريقين ، أولا كان السلاطين الجدد ينتمون الى أسرة واحدة استمر فيها الحكم أجيالا متعاقبة هي أسرة عثمان ، أما المماليك فلم تقم بينهم أسرة احتكرت الحكم وتوارثه أفرادها الا في فترات محدودة من تاريخهم ، لذلك كانت تنشب الفتن والثورات كلما مات السلطان حتى يتغلب أقواهم فيجمع السلطة بين يديه ، مما أضعف قوتهم مع الزمان وسبب حنق السكان عليهم وتذمرهم من حكمهم .

أما الناحية الثانية فنراها في تكوين الجيش الذي يتألف عند المماليك من فرق متعددة تخضع كل منها لأميرها ، وهو مملوك كالباقين ، أكثر من خضوعها للسلطان ، بينما يتألف الجيش العثماني من عناصر حرة جاء بها أمراء الاقطاع الاتراك ومن الانكشارية الذين احترفوا فن الحرب وأتقنوا صناعة الموت ، وكلهم يخضعون لقيادة السلطان التي لاتفسح مجالا لمثل الانقسام الذي حدث في صفوف المماليك ابان المعركة ـ معركة مرج دابق ـ وسبب انكسارهم .

هذا بالاضافة الى عوامل أخرى ساعدت على الانكسار ، أولها سوء سياسة قانصوه الغوري ، فقد كان للعثمانيين عدوان ، الاول اسماعيل الصفوي والثاني البنادقة ، فلم يعمد قانصوه الى سياسة حاسمة ابان الحرب العثمانية الفارسية ، كما رفض التحالف مع البنادقة ، بل اكتفى بسياسة الكيد والدس التي أضعفت مركزه وأحقدت عليه سليماً وكانت سببا في القضاء على دولته ، ثم هناك عامل آخر أدى الى نصر العثمانيين ، وهو حداثة أساليبهم الحربية

وقوة مدفعيتهم التي لم توجد لدى أعدائهم (١) ، هذا بالاضافة الى مناهضة الاهلين للمماليك وعدم مساعدتهم في الدفاع عن البلاد ، بل هم على العكس من ذلك انتفضوا عليهم وفتوا في عضدهم حتى تشتت شملهم وتمزق جيشهم.

• • •

وتمخض هذا الفتح عن نتائج هامة كان لها أثرها البعيد في التاريخ ، أولاها أن هذه البلاد أصبحت رأس جسر عبر منه العثمانيون فيما بعد الى شمالي أفريقيا فبسطوا سيادتهم عليه ، وجعلوا البحر المتوسط بذلك بحيرة عثمانية اسلامية .

ومنها أن الدولة العثمانية أصبحت شرقية أكثر منها غربية ، وكان مجال توسعها الى ذلك الوقت مقتصرا على بلاد أغلب سكانها مسيحيون في آسيا الصغرى مهد البيزنطيين ، وفي بلاد البلقان ، فلما دخلت البلاد العربية في نطاقها أصبحت ذات صبغة اسلامية شرقية مما جعل السلطان العثماني أقوى سلطان مسلم في العالم ، وقدر العثمانيون ذلك ، فكانوا دوما أحرص على اطلاق لقب خدمة الحرمين الشريفين على أنفسهم من لقب الخلافة الاخير .

ولعله لابد بهذه المناسبة من ذكر شيء عن تنازل المتوكل العباسي عن الخلافة للعثمانيين ، ودراسة الرواية التي تقول بذلك من خلال الوقائع والمصادر المختلفة .

كان المتوكل قد جاء مع قانصوه الغوري الى الشام ، وقابل السلطان سليم بعد انكسار المماليك وموت الغوري فأجلسه وجلس بين يديه ، وعامله

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . (ص ٧٩) .

برفق ولطف ، وأوعز الى رجاله بمراقبة الخليفة وعدم افساح المجال أمامه للافلات • ثم رافقه الى مصر ، وكان طومان باي قد حصل على تفويض من أبي المتوكل بتوليته ، فحارب سليماً وفشل ، ودعي في المسجد لسليم دون طومان باي ودون المتوكل نفسه •

ثم عاد طومان الى القاهرة بعد قتال عنيف ، وعاد الدعاء باسمه في المساجد ، ففكر سليم بانهاء هذا النزاع ، ووقع اختياره على المتوكل للتوسط بين الطرفين ، فرفض هذا وامتنع عن الذهاب رهبة منه وخشية ، ثم انتهت مقاومة طومان باي وقبض عليه وشنق ، وبقي سليم في القاهرة فترة من الزمان ، أعطى للمتوكل خلالها شيئا من السلطة استجلابا لقلوب الناس الذين اعتادوا وجود الخليفة بينهم ، وليس على سليم من حرج مادامت نفسه مطمئنة الى قوته والى المراقبة التي فرضها على المتوكل ، ويظهر أن الخليفة تدخل في بعض أمور أغضبت السلطان ، فأرسله الى القسطنطينية عن طريق البر وبذلك انفصل الرجلان ولم يتقابلا الا في العام التالي ، عندما عاد السلطان سليم الى عاصمة ملكه ورآه في خلاف مع بعض الامراء العباسيين الذين أرسلهم أيضا الى القسطنطينية ، فسجنه في أحد القصور حيث بقي المتوكل حتى موت السلطان سليم سنة (١٥٢٠م) فأطلق سليمان القانوني سراحه وسمح له بالعودة الى القاهرة ، فلما شق أحمد باشا عصا الطاعة على السلطان سليمان وأعلن استقلاله سنة (١٥٢٣) أيده المتوكل وأعطاه تفويضا بالسلطنة ، الا أن حركة الوالي لم تلبث أن فشلت لان الانكشارية ثاروا عليه وقتلوه ، أما سليمان فيظهر أنه لم يأبه لما كان من المتوكل نفسه فتركه يعيش في القاهرة خامل الذكر حتى توفي سنة (١٥٤٣) وبذلك انتهت الخلافة العباسية في القاهرة •

كل ذلك يتحدث عنه الكتاب المعاصرون للفتح العثماني والكتاب المتأخرون، الا أن هؤلاء الكتاب لم يؤكدوا بالدليل القاطع ما قيل عن تنازل المتوكل عن الخلافة لسليم ، كل ما ذكر في هـذا الصدد أنه اتخذ لقب خادم الحرمين الشريفين(١) في خطب المساجد .

أما قصة التنازل التاريخية فكان أول من أشار اليها الكاتب الروماني (دوسون) في مؤلف له عن تاريخ الامبراطورية العثمانية نشر سنة (١٧٨٧) وذكر فيه أن المتوكل تنازل لسليم عن الخلافة عندما فتح سليم مصر ، ومنه راجت قصة الخلافة العثمانية الشرعية ، وذكر أحمد نسيم أن الشريف محمداً أبا البركات أرسل له مفاتيح الحرمين الشريفين وطلب حمايته كما أن الخليفة المتوكل على الله تنازل له عن الخلافة الاسلامية ، وعقد مجلس في جامع أياصوفيا باستامبول بيّن فيه المتوكل حق السلطان سليم بالخلافـة ، وأنه تنازل له عنها برضاه وحسن اختياره ، فجمع سليم بذلك بين السلطتين الروحية والدنيوية ، وأرسل أمير مكة أثمال السعادة وبقية الامانات المباركة ليحافظ عليها السلطان(٢) .

وأغلب الظن أن العثمانيين أجبروا المتوكل على التنازل لهم عن الخلافة ، لا ليدلوا على احيائهم للخلافة الاسلامية القديمة ، بل ليضيفوا لقبا يشعر باستقلالهم في حكم دولتهم ويفعل في نفس الوقت فعله السحري في نفوس المسلمين قاطبة ، وسيتخذ السلطان عبد الحميد الثاني فيما بعد من هذا اللقب واسلامية الامبراطورية وسيلة لجمعها وتوحيدها ومحاولة انشاء كتلة اسلامية ضد النفوذ الاوربي المتزايد .

---

(١) هامر : تاريخ الدولة العثمانية . الجزء الرابع . (ص ٢٥٦) .
صدر اسبق كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية . الجزء الاول . (ص ١٥٥) .
(٢) احمد نسيم : التاريخ العثماني . الجزء الاول . (ص ١٥٣) .

ومما يؤيد ذلك ، تلك المجموعـة من الوثائق والمراسلات التي جمعها بالتركية أحمد فريدون بك في القرن السادس عشر والتي تبودلت بين سلاطين الدولة العثمانيـة وأمراء المماليك والدولة الفارسية الخ ... وفيها يتخذ السلطان لنفسه لقب الخليفة أحيانا ويهمله أحيانا أخرى ، كما نجد أن السلطان استعمل هذا اللقب قبل فتح مصر ، مما يدل على اتخاذ العثمانيين هذا اللقب رمزا لسيادتهم على العالم الاسلامي ، خصوصا فيما بعد ، عندما خضع لهم المغرب العربي بالاضافة الى الشام والعراق والجزيرة العربية ومصر ، وعنوان قيامهم على الحرمين الشريفين وخدمتهم لهما .

* * *

الفصل الثالث

أسس الحكم العثماني في سورية

كان لا بد من وجود نظام ثابت يسير عليه الفاتحون الجدد في حكمهم تلك الامبراطورية الواسعة الارجاء ، التي زادتها الايام اتساعا حتى وصلت الى المجر من جهة ، ومن الخليج العربي الى المحيط الاطلسي من جهة ثانية ، وقد اتبع العثمانيون نظما خاصة أخذت من مصادر متعددة تتارية وفارسية وعربية وبيزنطيـة .

وأهم ما ورثه العثمانيون من أصلهم التتاري لغتهم التركية ، والطاعـة المطلقة ، وكان مفهوم الامة عند التتار يتلخص في أنها اجتماع اختياري تقوم العلاقة بين أفراده على أساس وحدة المصالح والاهداف ، ويخضع أعضاؤه لزعيم ورئيس مختار ، كما كان للقبيلة التتارية أركان ثلاثة : الراعي ، والماشية والكلاب ، وقد شبه البعض نظام آل عثمان بنظام القبيلة هذا ، فالسلطان هو الراعي ، والماشية التي يرعاها هي الرعية العثمانية من المسلمين ، أما الكلاب التي يستعين بها الراعي لحماية قطعانه فهي الطبقة الحاكمة التي يجمعها السلطان من زهرة الامم الخاضعة له وهم الانكشارية آنئذ .

وأما المصدر الثاني لهذه النظم ففارسي ، وصل الى الاتراك عن طريق غير مباشرة : أورثت الدولة الساسانية الاسلام كثيرا من النظم الفارسية ، فلما اعتنق الاتراك الاسلام أعجبوا بشعر الفرس وحضارتهم ، فانتشر في قصور السلاجقة شعر يقلد الطريقة الفارسية في النظم ، وتابع العثمانيون أسلافهم في ذلك ، حتى أن السلطان محمد الثاني نفسه كان يقرض الشعر على الطريقة

الفارسية ، بل ان بعض الكتاب يذهبون في حديثهم عن النظم الفارسية الى حد القول أنها أصل كل النظم الشرقية حتى نظم الدولة البيزنطية نفسها ؛ على أي حال فان اقتباس العثمانيين عن الفرس لا شك فيه ، ومن أمثلة هـذا الاقتباس المبالغة في احترام الملك واحاطته بالكثير من مظاهر التبجيل والتعظيم ، كتعيين طرق خاصة لمقابلته وكيفية التحدث معه الخ ... ومن هذه الامثلة أيضا تقسيم الامبراطورية الى أقسام منفصلة يزوّد ولاتها بسلطات معينة . ويقال أن ضريبة الدم (ديوشيرمة) نفسها مأخوذة عن الفرس ، وأن أول اعداد للحكام عن طريق الاسترقاق (استرقاق الغلمان) وجد مدروسا ومفصلا في كتاب (سياسة تامة) الذي ألفه الوزير نظام الملك لأحد السلاطين السلاجقة وفيـه تحدث نظام الملك عن ترتيب الارقاء من الشبان المسيحيين في دولة الساسانيين من الفرس وكيف أن الغلام بعد أن يشترى من أسواق الرقيق يعمل سنة كاملة على قدميه ، يلبس أثناءها الثياب البسيطة ويعاقب بشدة اذا خالف الاوامر المعطاة له ، فاذا أتم العام الاول أعطي جوادا يقاد بالحبل دون سرج ولا لجام ، وكلما أظهر الغلام تفوقا وتقدما ، ازدادت أسباب الراحة والرقي أمامه حتى يحتل أحد المناصب الكبرى بعد أن يربو عمره على الخامسة والثلاثين ، وقد شاع هذا النظام عند العثمانيين .

وثالث هذه المصادر وأهمها الاسلام ، ذلك الدين الحنيف الذي أورث الاتراك نظاما اجتماعيا وتشريعا كاملا مرنا يتناسب مع كل زمان ومكان ، أهم أركانه القرآن الكريم ، فالحديث ثم الاجتهاد والقياس ، الامر الذي كان يسهل على العثمانيين السيطرة على البلاد العربية من جهة ، ويضع حداً لسلطات السلطان المطلقة من جهة أخرى ، ولو اعتنق الاتراك الدين المسيحي لكان لعقليتهم وسياستهم طابعا غير الذي عرفه عنهم المؤرخون .

هـذا وقد اقتبس العثمانيون من البيزنطيين بعض الشيء ، وخصوصا النظام الاقطاعي وبعض ما يتعلق بالتجارة وبفن العمـارة التي شغف بها السلاطين .

• • •

وعلى ذلك يمكن استعراض جهـاز الحكم العثماني بشكل عام ، وعلى رأسه السلطان ويتمتع بسلطة مطلقة في الحكم من جهـة يساعده على ذلك نزعة الخضوع للحكام التي عرفت عن الاتراك ، ومنصب الخلافة الجليل في العالم الاسلامي ، وبسلطة مطلقة في المال من جهة ثانية حتى كانت الدولة تعتبر نظريا خاصة به ، فكانت الضرائب تجمع بشتى الطرق ، وتتخذ سبيلها الى خزانة (يدي قولة) بعد تغطية النفقات ، حتى اجتمعت لدى بعض السلاطين أموال طائلة .

وبعد السلطان يأتي الوزير مباشرة في المقـام ، وكان مجرد مستشار للسلطان حتى تعقـدت أمور الدولة واتسعت رقعـة الامبراطورية ، فمنح صلاحيات جعلته مع الايام ركن الدولة الاساسي ، وتشبه بالسلطان في بعض الشكليات ، وجمع بعض الوزراء ثروات طائلة من مناصبهم ، ففرضوا على باشوات الولايات أن يعيدوا شراء مناصبهم كل عام ، فاذا ما شغر منصب بالوفاة ، حظي به من يدفع الثمن الاعلى الى الصدر الاعظم ، فكان ذلك شـر مثل احتـذاه باشوات الولايات ، فثقلت وطأتهم على الاهلين ، وفسد الجهـاز الاداري بأكمله نتيجة لانتشار الرشوة وسوء الاستعمال .

وكان من المنتظر أن يعمد باشوات سوريا الى ايجاد ثمن باشويتهم كل سنة بشتى الطرق من الموظفين الذين يلونهم في المراتب ، وهـؤلاء يبتزون

بدورهم تلك المبالغ الطائلة من الرعايا أنفسهم ، فأساء (الصوباشية) استخدام القوات التي وضعت تحت تصرفهم • أما نظام الالتزام الذي اتبع في سياسة الضرائب فحدث عنه ولا حرج ، اذ كان الملتزم يتبع علنا شتى الطرق لجباية المبالغ الضخمة ، فيقدم القسم المطلوب منه الى الدولة ، ويحتفظ بالباقي في حوزته •

ويساعد الصدر الاعظم في مهمته الديوان الذي يتألف من قاضي العسكر وبكلربكي الروم وبكلربكي الاناضول والدفتردار واغا الانكشارية وأمير البحر وصاحب التوقيع ، أما السلطات الدينية والقضائية فقد خضعت لشيخ الاسلام المقيم في استامبول •

أما طبقة الحكام هذه عدا رجال الدين (الذين قاموا بدور الوسيط بين الحاكمين والمحكومين) ، فكانت تتألف من أفراد معينين تهيؤهم الدولة للادارة والحكم ، فقد فرض العثمانيون على الشعوب المسيحية التي خضعت لها (ضريبة الغلمان) أو ضريبة الدم وكانت تجمع كل خمس سنوات ، ثم قصرت المدد حتى أصبحت الدولة فيما بعد تأخذ كل من تختاره من الغلمان الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، وتضع بعضهم في دور الحجاب الاربعة ، حيث يتعلمون اللغات التركية والعربية والفارسية وعلوم الدين وركوب الخيل وفنون القتال ويدربون تدريبا جسمانيا شاقا ، ثم يلتحق قسم منهم بخدمة السلطان الشخصية فيصبح من غلمان القصر ، ومن هؤلاء يختار السلطان أصحاب الوظائف الكبرى في الادارة والحكم سواء في الحكومة المركزية أو حكومات الاقاليم ، أما القسم الثاني فيرسل الى آسيا الصغرى حيث يوزع على كبار المزارعين ، وهناك يقضي الغلمان أربع سنوات في

مزارعهم يتعلمون فيها اللغـة التركية وينسون أهلهم ولغتهم ويدربون على الاعمال اليدوية والزراعة ثم يعودون الى العاصمة فينخرط بعضهم في جيش السلطان ويلتحق البعض بالاسطول العثماني ، ويؤجـر الباقون لاصحاب التجارات والصناعات ثم يؤخـذ أحسنهم ويلحق بالانكشارية التـي كانت محدودة العدد في بادىء الامر .

ويلاحظ في هذا النظام :

١ — الاختيار المستمر ، أي اختيار الاحسن في كل خطوة قبل الانتقال الى الخطوة التالية .

٢ — شدة النظـام والخضوع التام ، لدرجـة أنهم كانوا يلجأون الى التأديب الجسماني .

٣ — اثارة المنافسة الشديدة بين الغلمان أولا في اعطاء الاجور ، ثم في بعث التنافس على الرقي .

٤ — ان الكثيرين من هؤلاء الغلمان لم ينسوا علاقاتهم القديمة مع أهلهم ، بل وجد عدد من عظمائهم ممن كانوا يتصلون بذوي قرباهم وهم في أرفع المناصب .

وهذا النظام ، وان وفر للدولة حكاما أكفاء وجنودا أشداء ، الا أنه أفلس في النهاية ، وكانت النتيجة تدني شأن الدولة العثمانية في الميدان الدولي بينما كانت دول الغرب تسابق الزمان ، أفلس النظام الانكشاري لان أعضاء الهيئة الحاكمة أحبوا أن يتمتع أولادهم بما كانوا يتمتعون به من الوظائف والامتيازات ، ولان الاتراك أنفسهم أدخلوا أبناءهم في هذا السلك ، فاختل

النظام وفسد الجهاز الذي طالما أعطى للدولة العثمانية النصر والغلبة •

أما الجيش الذي فتح سوريا ثم أخضعها لنفوذالعثمانيين طيلة قرون طويلة فكان العنصر الاساسي فيه جنود الانكشارية آنفي الذكر ، وكان سن الالتحاق بفرقهم باديء ذي بدء الخامسة والعشرين ، الا أن الحروب الفارسية أجبرت السلاطين على تخفيضها ، مما زاد عدد الانكشارية فيما بعد وجعلهم عنصر شغب مستمر ، فكانوا يطالبون باعطيات سخية كلما تسلم سلطان جديد مقاليد الحكم ، ثم أصبحوا يتدخلون في شؤون الحكم نفسها ، وفي أواخر القرن السادس عشر سمحت الدولة العلية لافراد الانكشارية بالزواج فأصبح الدخول في هذا الجيش يقوم على الوراثة دون المقدرة العسكرية ، ثم أباحت للاتراك أنفسهم حق الدخول فزاد ذلك في التفسخ الذي كان أمره يستفحل في الدولة كلما تقدم الزمان • هذا وقد ضم الجيش العثماني فيما عدا الانكشارية فرق السباهية المرتزقة وهم من الفرسان وفلاحي الاقطاعات الذين كانوا يتطوعون مقابل اعفائهم من الضرائب ويشكلون مقدمة الجيش والخيالة ؛ وكلهم يعتمدون على مدفعية منظمة عني العثمانيون بتجهيزها وتزويدها بالعدد الكافي من الخبراء ، وعلى قوافل طويلة كانت تحمل بالمؤن لسد حاجات الجيش في الحروب الطويلة المدى •

أما الاسطول الذي ضرب سوريا مرات وكان له بعض الاثر في مصيرها ، فقد برز فيه الانكشارية أيضا ، واعتمد فيما عدا السفن الحربية العثمانية ، على سفن القرصان الذين اتخذوا من شواطيء أفريقيا الشمالية مقرا لهم • على أنه يمكن القول بأن الاسطول العثماني مال بعد سليمان القانوني ، الى الضعف من حيث العدد والعدة ، نتيجة لقلة الامانة في الادارة ، ولاعتماد

الاتراك في بنائه على البنادقة واليونانيين الذين لم يخلصوا النية للعثمانيين ، فجاء الاسطول مختلفا عن النسق المقرر له .

هكذا سار الجهاز الذي كانت مقدرات الشام بين يديه مئات من السنين الطويلة ، رزحت البلاد خلالها تحت كابوس لم تستفق منه الا على جلبة الجيش العربي وهو يدخل حلب محررا منتصرا ، لتبدأ صراعها الجديد مع المحتل الفرنسي حتى تطرده أخيرا ، ويصفو لها الامر من كل الوجوه .

. . .

. قسم العثمانيون الشام الى ولايات جعلت مراكزها في حلب ، ودمشق ، وطرابلس ، ثم أحدثت ولاية صيدا ، وعلى رأس كل منها باشا يستمد الرأي من باشا دمشق الذي كان له تفوق على بقية الباشوات ، وكان الحكم في كثير من المناطق في أيدي العصبيات المحلية .

ومن هذه العصبيات المحلية التي تكثر أخبارها في تاريخ سوريا العثماني التنوخيون ، وهم أفراد قبيلة عربية قحطانيـة ينتهي نسبها الى اسماعيل ، قدمت مع أبي عبيدة بن الجراح ، وكانت مسيحية فأسلمت ، وأنزلها ابو جعفر المنصور غربي لبنان فكانت أول قبيلة عربية سكنت هذه المنطقة ، واستخدمها المسلمون في صد غارات الروم ، وكان منها الامراء الارسلانيون وآل علم الدين وكان لهم شأن في الحروب الصليبية ، وقد انتقلت الامارة منهم الى المعنيين ، أمراء جبل لبنان من الدروز .

ثم هناك الحرفوشيون وهم شيعة ، وينتسبون الى الامير حرفوش الخذاعي القحطاني الذي قدم أسلافه مع عمر بن الخطاب الى بعلبك واشتهروا فيها بل حكموها حتى سنة (١٨٦٦) ، أما الشهابيون فقد جاءوا الى بلاد الشام في

عهد ابي بكر ، واستوطنوا وادي التيم وحاربوا الصليبيين ، ثم آلت اليهم في النهاية أمارة لبنان بعد المعنيين ، ومن أشهرهم في القرن التاسع عشر الامير بشير الشهابي الكبير الذي كان يناصر محمد علي • أما شمالي لبنان فقد قطنه السيفيون وهم من الاكراد ، واشتهر منهم يوسف باشا سيفا ، وكان مقرهم طرابلس ، وقد نصبهم المماليك في هذه المنطقة لحراسة عكار وسهل طرابلس الخصيب • وآخر مايذكر من هذه العصبيات العسافيون الذين ينتسبون الى الامير عساف التركماني ، ويقول (لامنس) أن السلطان سليم ولاه وخلفاءه كسروان ثم نازعهم السيفيون عليها ، فانقرضت ولاية العسافيين بعد أن بقيت (٢٨٣) سنة •

وقد حاربت هـذه العصبيات في صف السلطان سليم وشاركت المدن السورية في الترحيب به ، والاعتراف بسيادته ، وان ثارت عليه في بعض الاحيـان •

وهذه السيادة نفسها ، اكتفى منها السلطان بالمظاهر العملية فقط ، أولها وجود حامية عثمانية في الايالة ، وثانيها وجود الباشا نائب السلطان ، وثالثها تعيين قاضي القضاة من قبل السلطان مباشرة ، ورابعها الخطبة للسلطان والدعاء له في المساجد وسك العملة باسمه وارسال الاموال الى عاصمة ملكه باسم خزينة السلطان • هذه الاموال التي كانت ترسل من الشام الى استامبول ، لم تكن محددة ، وليس هناك مايدل على أن السلطان سليم حدد مالا معينا لتؤديه الشام ، فكانت النقود تصرف في التعبيد والتعمير ودفـع مرتبات الموظفين والجنود ، وتعطى منها اعانات الاسر الفقيرة ، ويرسل منها مبلغ اعانة للحرمين باسم (صرة الحرم) ، وما زاد بعد كل هـذا يرسل الى العاصمة العثمانية •

وفي سبيل الابقاء على هذه السيادة لجأت الدولة العثمانية الى سياسة معينة ذات طابعين ، لجأت الى ضرب هذه العصبيات المحلية بعضها ببعض ، أي أنها سعت لجعلها أداة من أدوات الحكم العثماني تقطع أفرادها الاراضي ، وتطلب منهم أن يدفعوا عنها الاموال ثم تترك لهم حكم هذه الاقطاعات كما يريدون ، دون أن يهمها اشتداد الامراء في جباية الاموال من الناس أو في معاملتهم ، حتى اذا رأت أن أحد هؤلاء الامراء قد وصل الى درجة تهدد سلطة الباشا العثماني ، تدخلت ، وغالبا مايتجلى هذا التدخل في اثارة العصبيات بعضها على بعض ، وما أكثر الاسباب التي يمكن أن تخلق التشاحن بين سكان الشام كما سنرى في تاريخ المعنيين والشهابيين ، وفي أخبار الموارنة والدروز.

- أما الطابع الثاني للسياسة العثمانية فقد تجلى في الاكثار من تغيير الباشوات ، ففي خلال المائة والثمانين سنة الواقعة بين سنتي (١٥١٧ ــ ١٦٩٧) تولى دمشق مائة وثمان وثلاثون باشا استطاع ثلاث وثلاثون منهم فقط الاحتفاظ بمنصبهم لمدة عامين ، وقد أصبح الاهلون نتيجة لذلك لايأبهون لتعيين الباشا أو لعزله ، بل لقد اعتاد أهالي الشام في العصر العثماني تغيير الحكام ، كما اعتادوا النظر اليهم آنئذ كأشخاص استغلاليين يملؤون مراكزهم ، ليعبوا من خيرات البلاد وثرواتها ، حتى اذا نحوا عن المنصب ، كان لهم من المال مايكفي لمعيشتهم بشكل مريح . هذا اذا لم تصادر أموالهم وتصبح ملكا للدولة .

أما سبب هذا التغيير المستمر ، فنراه في أمرين ، أولهما أن المناصب كانت تباع وتشترى ، فكان من مصلحة ذوي النفوذ في القسطنطينية أن يكثروا من العزل والنصب ، وثانيهما أن الدولة كانت تخشى أن يكوّن الباشا

لنفسه ، اذا طال به المقام ، عصبية ونفوذا يصبحان خطرا على الحكم العثماني ذاته ، فتغيير الباشوات يضمن سيادة السلطان الدائمة على البلاد .

ولكن هذه السياسة أدت الى استغلال الرعية الى أقصى حد ممكن ، وخصوصا في النواحي المالية ، بصرف النظر عن الكفاءة أو الخدمات التي تؤدى مقابل ذلك ، وكان أكثر رجال الحكم في العصر العثماني الاول من رجال الحرب ، وتجلت سياسة العثمانيين في ابقاء القديم على قدمه ، وعدم اجراء أي تغيير على الاوضاع القائمة التي لم يكن فيها أي ضمان للامن الداخلي ولا على الارواح والاموال ، لان الوالي نفسه ، في عملية جمع المال والاثراء على حساب الدولة قبل أن يعزل ، كان يعتمد على العسكريين ويهمه ارضاؤهم بأي شكل ولو كان ذلك على حساب الشعب الذي كانت تترى فيه حوادث السلب والنهب والقتل والسبي .

وهؤلاء العسكريون كانوامنقسمين على أنفسهم ، فقدكان منهمالقبوقول (جند الدولة من المشاة) وكان هناك الانكشارية ، الى غير ذلك من الدلاة والمحترفين الذين كانوا يعرضون خدماتهم على الباشوات أو أرباب العصبيات ، ويقبضون مقابل ذلك النقود ، وتحل لهم المحظورات والممنوعات اذا ما فازوا في نزاع مع طائفة أخرى من الجند ، ولكن النزاع الاساسي كان بين فئتي القابو قول والانكشارية ، وكان الباشوات يحاولون حفظ التوازن بين هاتين الفئتين ، فاذا ما نشب الخلاف بينهما ، دب الخوف الى قلوب الناس ، لان الفريق المنتصر سيعمد حتما الى ارتكاب المنكرات واستباحة الحرمات ، وتاريخ الشام في العهد العثماني حافل بمثل هذه الحوادثالمريعة.

على أن هذا التاريخ لم يخل من مظاهر تجمع الشام بالدولة العثمانية من

جهة ، وتضفي عليها طابعا من القدسية من جهة أخرى ، كالحج مثلا ، فقد كانت قوافل الحجاج تجتمع في دمشق ، ثم يخرج منها الجميع بركب ضخم ومحمل فخم الى قضاء هذه الفريضة التي كانت وما تزال تؤلف بين قلوب المسلمين ، وقد استفادت الشام عموما من هذه الظاهرة اقتصاديا ومعنويا ، حتى دعيت (شام شريف) ، وكانت الابهة التي يحاط بها موكب الحج تشعر الناس بارتباطهم بالسلطان ، خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين .

. . .

هذه هي الاوضاع التي حافظ عليها العثمانيون بحرص واصرار ، ولكن الاغراق في المحافظة أدى الى الجمود والتأخر ، فقد ظلت الحالة الاقتصادية في تدهور مستمر لم يعمل العثمانيون على تلافيه ، فيما عدا قبسات لم تكن لتدوم . فقدت حلب في عهدهم ، رغم موقعها الفريد ، جزءا كبيرا من أهميتها كحلقة اتصال بين الشرق والغرب ، الا أنها بفضل اتصالاتها التجارية مع الاناضول وأرض الجزيرة ، بقيت أهم مدينة تجارية سورية في القرن السادس عشر ، ولو أتيح لها حكم مستقر في العهد العثماني لاستطاعت الاحتفاظ بكامل أهميتها التجارية .

وقد احتفظ البنادقة بقنصليتهم في حلب خاصة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الشرق الاقصى ، فأصبحت طريق بلدان الخليج العربي الطريق البرية الوحيدة التي يستطيعون استخدامها لتجارتهم حتى انهياردولتهم بشكل نهائي . أما الفرنسيون فقد أسسوا في حلب أقدم قنصلية لهم ، ولعل في التقارير التي كانوا يرسلونها الى حكوماتهم أهم مصدر لتاريخ حلب ، وقد نشر بعضها ، الا أن الجزء الاكبر منها لم ينشر بعد .

واستفادت طرابلس من هذا الرمق التجاري الاخير ، فازدهرت بعض

الشيء ، الا أن حكم السيفيين ، أمرائها المحليين ، وقف في وجه هذا الازدهار حتى اضطرت التجارة الاجنبية الى المهاجرة الى الاسكندرونة بسبب ارهاقها بالضرائب والمكوس • أما انتعاش بيروت وصيدا فسيكون بعد ذلك ثمرة لجهود الامراء المعنيين في القرن السابع عشر •

والخلاصة أن بلاد الشام ازدهرت بشكل مرموق في ظل الامبراطورية الاموية ، وبدأ مجدها في الافول أيام الامبراطورية العباسية ، الا أنها تعست في عهد الامبراطورية العثمانية ، وهي ثالث امبراطورية اسلامية شرقيةجامعة ، فقد حلت بها الكوارث ، وجار عليها الحكام ، وتنازعت على أرضها العصبيات المسلحة ، واقتتل فيها الجند العثمانيون أنفسهم حتى شغلوا بأنفسهم عنحماية الناس ، بل كانوا مصدر تعس وشقاء للناس ، فاختل الامن ، واضطربت الاحوال ، وليس أصدق من وصف نوفل نوفل للحال آنئذ (••• وكانالنزاع بين الاقسام قائما على قدم وساق ، وقد نشأت عنه حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتضاعفة ، فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالاهالي أضرار عظيمة حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الاسواق وتتعطل الاشغال ويتعذر على أبناء السبيل الخروج من بيوتهم ، وكم من مرة أضحت بعض المدن ــ وخصوصا الشام وحلب ــ مطعما للنار من جراء ذلك ، ولم ينصرفالمشكل الا بمداخلة الولاة وبعض الاعيان ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عندما يحدث له موجب صغير • وقد كان الاعتداء على العرض والقتل مما يحدث كل يوم) •

الفصل الرابع

امارة المعنيين

ولم يكن عجبا بعد ذلك أن يشق السوريون عصا الطاعة على السلطان، وأن يعبروا عن سخطهم بشتى مظاهر التعبير .

والواقع .. أن السوريين استبشروا أول الامر بدخول بلادهم في حظيرة الدولة العثمانيـة ، ورحبوا بالسلطان سليم مخلصين ، الا أنه بدأ يفرض المكوس الباهظة قبل مغادرته البلاد ، واستباح جنوده دمشق عند عودتهم من مصر ، فخابت فيهم الآمال وعانت البلاد في ذهابهم وايابهم أولى المصائب التي قدر لها أن تعانيها خلال حكمهم الطويل .

كانت أولى الثورات التي قامت في سوريا ثورة ناصر الدين محمد بن الحنش ، الذي امتنع عن لقاء السلطان سليم ، وأيده في ثورته — التي أتعبت جنود السلطان قليلا — بعض الامراء المحليين ، حتى أخذه جان بردي الغزالي فحز رأسه ، وأرسله الى السلطان .

وكان السلطان قد كافأ جان بردي الغزالي بتعيينه واليا على دمشق وضم اليه القدس وغزة وصفد والكرك ، كما كافأ خاير بك والي حلب السابق الذي انضم اليه في معركة مرج دابق بتعيينه واليا على مصر ، فاعتمد الاول على رضاء السلطان عنه ، واتخذ لنفسه خطة خاصة في الحكم ، فأنقص رجال

الحامية العثمانية بالشام متعهـدا بأن يقوم بنفسه على حفظ النظام • وقد استطاع فعلا أن يمنح البلاد فترة من الهدوء عمل فيها على تقوية نفسه واكثار مؤيديه حتى أشاد مؤرخو ذلك العصر بحكمه وحسن سياسته • قال بن أياس أن الناس أمنوا في عهده لدرجة أنهم كانوا يستطيعون أن يسيروا في كل الاوقات في الشوارع دون خوف ، وقال نجم الدين الغزي أن الغزالي نشر العدل في دمشق وجرد السيف على كل من تعرض لامرأة أو صبي •

والظاهر •• أن هذا التصرف الحكيم من ناحية الغزالي شجع السلطان على اطلاق يده في معالجة الامور ، حتى داخله شيء من الغرور ، وبدأ يعتز بنفسه ويشيد بقوته ، حتى اذا مات السلطان سليم سنة (١٥٢٠) أعلن نفسه سلطانا وتسمى بالملك الاشرف وأمر بضرب السكة باسمه والخطبة له على منابر دمشق •

أما الناس فقد انقسموا الى فريقين ، قدر أولهما الذي ضم عقلاء البلاد ومفكريها قوة السلطان وأدركوا أنه سيقمع هذه الحركة وينكل بالبلاد بشكل عام ، وأما عامة الناس فقد غرتهم قوة الغزالي ورأوا أنهم لابد منتصرون على العثمانيين ، وانضم الى هذا الفريق عدد من الاكراد والتركمان والمماليك ، وكل راغب في السلب والنهب •

وحاول الغزالي استمالة والي مصر ، ولكن خاير بك فضل ألا يزج بنفسه في هذه الحركة الخطرة ، بل لقد نم عليه الى السلطان ، الا أن الثوار كانوا قد تقدموا الى حلب وحاصروها ، ثم ارتدوا عنها الى حماه استعدادا للقاء الجيش الذي أرسله السلطان سليمان القانوني بقيادة فرحان باشا لقمع الثورة• وتقابل الفريقان في القابون قرب دمشق ، وأبدى الغزالي شجاعة فائقة ، ولكنه

هزم في (٢٧ كانون الثاني – يناير ١٥٢١) ، وكان انتقام الاتراك قاسيا ذكر الناس بفظائع المنغول وقسوتهم .

أخذ ابن أياس على الغزالي ابتداءه بحلب ، وأكد أنه لو تقدم الى مصر لضمن تأييد الشراكسة هناك لان السكان كانوا مستائين بشكل عام من استبداد خاير بك وشدته . على أي حال فقد بدأ الاتراك أثر ذلك يغيرون سياستهم ، فكفوا أيدي المماليك عن بعض المناصب التي كانوا يتقلدونها ، وعهدوا بها الى موظفين عثمانيين ، كما أجروا بعض التغيير في تقسيم سوريا الاداري .

وأعقبت هذه الثورة ثورات أتعبت البلاد ، ثورات العصبيات المسلحة التي كانت تتمرد كلما أنست من نفسها القدرة الكافية على مقاومة السلطان ، وكان سليمان القانوني قد توفي وأعقبه السلطان سليم الثاني الملقب بالسكير ، واتخذ تاريخ الشام طابعا خاصا رتيبا من الحياة اليومية والحوادث ضئيلة الاهمية ، كتوجيه قوة عثمانية ضد الموارنة بناء على شكوى الروم في مدينة طرابلس ، ونزاع بني سيفا وبني عساف ، وعصيان بعض الولاة عند عزلهم ، وقد ألف الرأي العام السوري آنئذ هذه الحوادث حتى لم يعد ليأبه لها ، وعلى ذلك مر القرن السادس عشر : ولاة يتولون ثم يعزلون ، ومحاولات بسيطة من الامراء المحليين للاستقلال كل بأقليمه مع ما ينشأ عن احتكاك هؤلاء الامراء من تنازع وتهادن ، والدولة العثمانية ترقب الحال لتتدخل عند اللزوم ، مع محاولات للاصلاح نادرة ترجع الى شخصية الباشوات ، حتى اذا جاء القرن السابع عشر برزت في الشام شخصية الامراء المعنيين وانتشرت أخبارهم التي أقلقت الدولة العثمانية وأحرجت موقفها .

. . .

جاء في روايات الانساب أن الاسرة المعنية نشأت في نجد وديار ربيعة من شبه جزيرة العرب ، ويرجع نسبها الى ربيعة من نسل عدنان(١) ، اشتهر منها الامير أيوب ، وكان وأولاده ذوي بسالة عظيمة ورأي نافذ ، فكانوا موضع الحسد والغيرة وانتهى بهم الامر الى أن يخرجوا الى بلاد العراق حيث تناسلوا وتكاثروا ، ثم هجر فرع منهم العراق الى جهات حلب شمالي سوريا ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين الامير ربيعة الذي خلف معناً جد الاسرة المعنية المنسوبة اليه ، وعرف معن بالاقدام والشجاعة والاشتراك في قتال الصليبيين ونزل بعشيرته وأحلافه الى سهل البقاع وبعلبك فخيموا هناك ، ثم قصدوا مشارف لبنان ليشنوا الغارة على الصليبيين في الثغور البحرية ، وينكلوا بهم.

واتصل معن بالامراء التنوخيين وكان بين الاسرتين مصاهرة ، فأكرموا مثواه ، وصعد معه الامير بحتر التنوخي أمير الغرب الى ربوة عالية أشرف منها على البلاد الواقعة بين نهري الصفا والباروك فدله عليها ، وهي منطقة الشوف من جبل لبنان ، وسكنها المعنيون فعلا وشيدوا لهم البيوت ، وتقاطر عليهم السكان لحسن جوارهم وكرمهم ، وقد توفي الامير معن سنة (١١٤٩) بعد أن بقي ثلاثين سنة ، وخلفه ولده الامير يونس المعني الذي أحبه الناس وقصدوه ، وبدأت أمارة المعنيين في أيامه تستتب ، وجاء الشهابيون من حوران الى وادي التيم فصاهروا المعنيين ، وتعاقب المعنيون على الامارة حتى تولى فخر الدين الاول في سنة (١٥٠٧) وهو جد الامير فخر الدين الثاني الكبير ، فأعجب به السلطان سليم ، وكان زلق اللسان حاضر البديهة ، ولقبه سلطان البر ، الا أن نهايته كانت سيئة ، فقد غدر به العثمانيون وقتلوه سنة ١٥٤٤ ، فخلفه ولده قرقماز .

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف : فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان . (ص٢٢) .

وقد شاءت الظروف أن يوجد ما ينغص عيش الامير الجديد ، وكان الاسطول العثماني قد كسر في معركة ليپانتو البحرية (٧ تشرين الاول - اكتوبر ١٥٧١) وبدأت سيادة العثمانيين على البحر المتوسط بالافول ، حتى تجرأ القرصان على شواطيء هذا البحر الشرقية ، ففي سنة (١٥٨٤) نهب بعض القرصان أموال الخزينة المرسلة من الشام ومصر الى استامبول ، فاتهم المعنيون بذلك ، وأرسل الباب العالي حملة يقودها ابراهيم باشا والي مصر آنئذ ، وبعد أعمال التنكيل والتخريب التي وقعت بقرى المعنيين وديارهم ، استدعي الامراء للاجتماع بقائد القوات العثمانية ، فامتنع قرقماز عن الذهاب اليه ، وكانت ذكرى الغدر بأبيه لاتزال عالقة بذهنه ، فحنق عليه ابراهيم باشا ، رغم الهدايا والاموال الغزيرة التي أرسلها اليه قرقماز ، وهاجم مقر المعنيين بعنف ، واضطر الامير أن يفر لاجئا الى قلعة نيحا واختلفت الآراء في موته هناك .

في هذه الظروف المضطربة ولد ونشأ الامير فخر الدين المعني الثاني ، وكان في الثانية عشرة من عمره عندما مات أبوه قرقماز ، فأثر كل ذلك في نفسه وخاصة عندما رأى نفسه وأخاه الصغير ترسلهما أمهما الى بعض الجهات النائية ليختفيا فيها عن العثمانيين ، واستقر بهما المطاف عند أحد مشايخ الخازنيين بمقاطعة كسروان فكان ذلك سببا في الصلات الوثيقة التي ربطت فخر الدين بالخازنيين فيما بعد ، وانتقائه الكثير من وزرائه منهم ، واستمر الطفلان في مخبئهما نحو خمس سنوات حتى بلغ فخر الدين أشده وهدأت الحالة بالشوف التي قام عليها في تلك البرهة خالهما الامير سيف الدين التنوخي ، فخرجا من مخبأيهما ، وتسلم فخر الدين الامارة من خاله ليسير في اتجاه جديد كان له صداه البارز في أوساط الدولة العثمانية .

تولى الامير الجديد والحقد يملأ جوانحه ، الحقد على الدولة العثمانية التي غدرت بجده وقتلت أباه ، والحقد على الامراء السيفيين الذين وشوا بأبيه وأوردوه موارد الهلاك • وكان يدرك أن النزاع سيقوم يوما ما بينه وبين الدولة العثمانية من جهة ، وبينه وبين الامراء السيفيين من جهة أخرى ، وقدرأى أن يبدأ بالسيفيين لان السلطة العثمانية أصبحت قوية بلبنان ؛ وتلفت حواليه باحثا عن الحلفاء ، فاذا بأمراء الارسلانيين الدروز يرحبون بعلاقات مصاهرة وتحالف تتوثق بينه وبينهم ، واذا به يوفق في استمالة الشهابيين السنيين حكام وادي التيم والامراء الحرفوشيين الشيعيين حكام بعلبك والبقاع والمشايخ الجنبلاطيين حكام كلز وضواحي حلب وأمراء البدو والاعراب في جهات حوران وفلسطين ، فيصبح في عزة ومنعة وسط حشد من الحلفاء والمقربين •

وصانع الامير باشا دمشق ومالأه ، يساعده في ذلك أحد مواليه السابقين الحاج كيوان الذي كان قد دخل في (وجاق) الانكشارية في دمشق وارتقى حتى نفذت كلمته وأصبح من المقربين ، ثم عني بتأليف قوة عسكرية تحقق له أهدافه ، فأنشأ جندا من (السكبان) وأمدهم بما يلزم من العدة والمال •

وبدأ النزاع سنة (١٥٩٨) حين اشتبكت قوات فخر الدين ويوسف باشا سيفا قرب نهر الكلب ، فانهزم السيفيون ، واحتل المعنيون كسروان ثم بيروت ، الا أنهم لم يحتفظوا بهما ، لان الارسلانيين وبعض حلفاء فخر الدين توسطوا للصلح بين الطرفين ، فأعيدتا ، وراح فخر الدين يقوي جيشه من جديد ويصطنع لنفسه الحلفاء حتى بلغ عدد جنوده نحو مائة الف مقاتل من سكبان ولبنانيين ومغاربة ، عدا عن تحصين القلاع وتجهيزها بآلات الحرب والحصار •

وسنحت الفرصة الثانية للحرب عندما شغل السلطان بحروب العجم والمجر والقضاء على ثورات الانكشارية ، فانطلق فخر الدين سنة (١٦٠٣) يوسع حدود مملكته ويضم اليها صفد وعجلون وبانياس وغيرها ، ويقهر السيفي في معركة جونية ليدخل كسروان ويولي فيها وزيره الشيخ أبا نادر الخازن ، وليمنح نسيبه الامير التنوخي ولاية بيروت ، الامر الذي فتح أعين الدولة العثمانية ، وأشعرها بالقلق من هذه القوة المتعاظمة التي بدأت تلوح في الافق السوري مهددة سلطة الباب العالي ، وكان أشد ولاته حقدا على المعني أحمد باشا الحافظ والي دمشق ، وكان قاسيا سلط سيف الذل والمصادرة على سكان دمشق ، وتطلع الى القضاء على سلطة الامراء المحليين ، وأقواهم وأقدرهم على مقاومته أمير الشوف الذي يوسع امارته باستمرار .

. . .

في ذلك الوقت كانت الظروف في الشمال تتطور لمصلحة فخر الدين .

فقد اعتاد بعض جند دمشق من الانكشارية أن يقصدوا حلب كل سنة فينالوا من الاموال ما يستطيعون الحصول عليه ، (ومهمتهم في الاصل حماية السكان والمحافظة على أرواحهم وأموالهم) ، حتى ولي نصوح باشا ، وكانوا قد (تقووا في حلب وفتكوا وجاروا ... حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كبراؤها واستولوا على أكثر قراها ...(١)) ورأى الوالي الضرر الذي يلحق بأموال الدولة والحيف الذي أصاب السكان نتيجة لذلك ، فقرر اجلاء هؤلاء الجند عن حلب ، واستعان بحسين باشا جنبلاط أمير كلز وبعض ضواحي

(١) الدكتور احمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية للشيخ احمد البديري الحلاق ، (ص ٤٣ ـ مقدمة) .

حلب ، وطردهم بعد أن أوقع منهم عددا من القتلى • الا أن الخلاف ما لبث أن ذر قرنه بين الحليفين ، فعزل السلطان نصوح باشا عن حلب وولى بدلا منه حسين باشا جنبلاط الذي استولى على المدينة بالقوة ، ثم دبرت الدولة قتله ، فخرج ابن اخيه علي عن طاعة السلطان ، فطغى وبغى ، حتى تعهد يوسف سيفا بازالة امارته عن حلب ، الا أنه هزم في المعركة التي دارت بينه وبين علي جنبلاط قرب حماه ، وفر الى دمشق ، تاركا طرابلس التي استولى عليها الجنبلاطيون بما فيها من أموال الاهلين وثروات الامير ، ثم تابعوا سيرهم الى دمشق •

ورأى فخر الدين المعني أن الفرصة مواتية ، فجمع قواته من السكبان والدروز والنصارى والمسلمين وسار مع الجنبلاطيين وكان معهم الشهابيون والحرفوشيون باتجاه دمشق ، فكسروا الجيش الذي أرسل لردهم عنها ، وأباحوها لجيشهم ثلاثة أيام سنة (١٦٠٨) ، وانتهى الامر باعطاء الجنبلاطي مبلغا كبيرا من المال ، أما المعني فقد طلب ولاية البقاع وبعلبك فأجيب الى طلبه ، وعاد الى الشوف وقد ملأ الحنق نفسه لافلات خصمه السيفي منه ، ومصاهرته لآل جنبلاط الاقوياء •

وبلغت السلطان أخبار نهب دمشق ، وتحديات آل جنبلاط للدولة واستقلالهم عنها ، بل لقد طرقت مسامعه أخبار اتفاق عقده علي باشا جنبلاط مع ملك اسبانيا والبابا ودوق توسكانا تعهد فيه بفتح بيت المقدس لهم واطلاق الحرية الدينية فيه وبمنح تجار توسكانا امتياز نقل ما يريدون من البضائع دون أن يدفعوا عنها أيمارسم ، ومساعدتهم على تسهيل أعمالهم في الشام شريطة أن تساعده والدول المسيحية الاخرى على تحقيق مشروعاته وأن تمده بمايلزم في نضاله ضد السلطنة ، فأدرك أن هذه العاديات لا تدفع الا بجيش قوي يأخذ بتلابيب العصاة ، ويعيدهم الى حظيرة السلطنة •

جهز العثمانيون جيشا (لم تر الشام أعظم منه) ، قيل ان عدد جنوده بلغ ثلاثمائة الف جندي ، سار بقيادة مراد باشا حتى وصل الى هدفه المعين بعد أن انضم اليه أحمد باشا الحافظ والي دمشق ويوسف باشا سيفا ، فكسر جيش الجنبلاطي ونكبه وأسرته وبنيه نكبة قال المعلوف عنها (أنه لم تزل ذكراها يتردد صداها في التاريخ) ثم وزع قواده ورجال القشلق في أنحاء البلاد يجبون الاموال ويسلبون السكان .

أما فخر الدين ، فقد دس له أعداؤه لدى مراد باشا ليتخلصوا منه بهذه المناسبة ، وحثوا الوفود الدمشقية على الذهاب الى القائد العام لتشكوا ما لقيته من ظلم الجنبلاطي والمعني على السواء ، الا أن فخر الدين استطاع تبرئة ساحته أمام مراد باشا واثبات اخلاصه للدولة ، واستعان المعني بالسلاح الذي طالما أحنى له العثمانيون رؤوسهم ، سلاح المال ، فأرسل ابنه علياً بالاموال للباشا ، فأكرمه وأنعم عليه بسنجقية بيروت وصيدا ، وأعفى الشوف من (القشلقة) ، وسلم الامر من المنغصات .

• • •

ونعمت امارة المعنيين بفترة من الهدوء سمحت لفخر الدين بالتفكير مليا في الامر .

أدرك الامير بثاقب نظره أن النزاع لابد واقع بينه وبين الدولة العثمانية التي ستقف حاجزا قويا دون تحقيق أحلامه التي باتت تراوده ويزداد مداها باتساع رقعة امارته ، وأن جيشه لن يستطيع الصمود في وجه العثمانيين وحده ، فلا بد له من حلفاء أقوياء يستعين بهم ، ويؤمنون له خط الرجعة في حالة الفشل ، كما فعل آل جنبلاط الذين تعجلوا الامور ولم يحسبوا للوقت

حسابه ، مع أن الامر يحتاج الى الحيطة والحذر ، وانتظار الزمان • وعلى هذا استقر رأي فخر الدين ، على مصافحة بابويـة روما الحريصة والغرب الطامع ، والاستعانة بهما على الوصول الى أمنيته الغالية •

وكانت البلاد الايطالية أكثر بلاد الغرب علاقة بالشرق الادنى ، احتكرت فيها البندقية نقل المتاجر بين الشرق والغرب ، ثم نافستها الجمهوريات الاخرى وخصوصا توسكانا ، وسعت هذه الى خلق صداقات لها مع أمراء الشام ، وتعاقدت مع علي جنبلاط ، حتى اذا انتهى أمره ، راحت تفتش عمن يخلفه في تسهيل مهمتها وتغليبها على منافسيها ، فالتقت مع الامير المعني في المصالح والآمال ، وعقد النية على العمل في الميدان المشترك : أرض الشام الطيبة •

أرسل فرناندو الاول دوق توسكانا مبعوثين الى سوريا لمقابلة فخر الدين ، الذي أبدى استعداده لمنحهم العون في تكوين امارة بيت المقدس المسيحية ، ورعاية المسيحيين في بلاده وتسهيل التبادل التجاري مع ايطاليا ، وفي سنة (١٦٠٨) عقدت بين الطرفين معاهدة تجارية وضع الدوق بموجبها قطعا من اسطوله تحت تصرف المعنيين وزودهم بالمؤن والذخائر الحربية ، ثم اتسعت هذه العلاقة عندما عقد المعني سنة (١٦١١) مع البابا ومع كوزمس الثاني دوق توسكانا الذي خلف (فرناندو) اتفاقا أوجب عليه تسهيل زيارة الاماكن المقدسة واقامة مؤسسة مسيحية فيها وتأييد احتلال قبرص •

وهنا عادت القسطنطينية تعمل ضده ، خصوصا بعد وفاة صديقه مراد وتولي نصوح باشا ، خصمـه اللدود ، منصب الصدارة ، وانتهت المعركة الدبلوماسية التي جرت في البلاط بين أنصار المعني وخصومه الى تجريد حملة أحمد باشا الحافظ التي قادها أربع عشرة أمير أمراء ، وضمت خمسين لواء

زحفت على المعني لتخضد شوكته ، وتقضي على هذا الخطر المحدق بها في امارته ، خطر الاتصال بالغرب وتشجيعه على التغلغل في (بلاد السلطان) .

وانفض حلفاء فخر الدين من حوله واحدا بعد آخر ، وانهزمت قواته أمام قوات الدولة لتتحصن بالقلاع التي عجز العثمانيون عن اقتحامها ، فلما أعيتهم السبل ، طلبوا فخر الدين وأمنوه على حياته وأمارته ، فوردهم الجواب بأن الامير قد أبحر الى الغرب ، ونزلت أمه فأقنعت القائد العثماني بأن الامير لم يعص ارادة السلطان ثم أعطته مبلغا ضخما من المال وحملته مبالغ أخرى الى الصدر الاعظم والسلطان ، بينما كان الامير يخترق الطوق البحري الذي ضربه العثمانيون أمام صيدا ، ويتجه مع زوجته وبعض مماليكه وخدمه الى ميناء (ليفورنة) سنة (١٦١٣) ليتخذ من توسكانا ملجأ له ريثما تعود المياه الى مجاريها في سورية ، فقضى هناك خمس سنوات كان لها أثرها الحاسم في تاريخه وفي نفسيته .

اطلع فخر الدين على حضارة ايطاليا ، وكانت مظاهر النهضة فيها قائمة ، وأعجب بهذه المدنية المزدهرة التي سيحاول تطبيق أساليبها فيما بعد على بلاده ، والتي لم ير مثلها في بلاده الشرقية ، فتوسعت مداركه ، وعادت اليه الآمال (١) .

أراد فخر الدين أثناء اقامته الطويلة زيارة بلاده بصفة سرية واستطلاع أخبارها عن كثب ، فاذن له الدوق ، ورست به السفن بين صور والناقورة حيث أرسل الامير بعض أنصاره ليأتوه بالاخبار فاذا بأخيه يونس يسارع الى

---

(١) انظر الوثيقة رقم ٤ (وثيقة اقامته في ايطاليا) في الباب الثاني من هذا الكتاب .

اللقاء مع الاعوان والمقربين ، ويحدثه عن أخباره وأخبار الامارة ، حتى اذا انتهت الزيارة ، ودع الاخ أخاه ، وأقلعت به السفن الى ايطاليا من جديد .

واستفاد فخر الدين سياسيا من اقامته في ايطاليا ، فوثق صلاته بدوق توسكانا ، واتصل بنائب ملك النمسا وملك فرنسا ، وعرج على مالطة في طريق زيارته لسورية ، فاتصل بفرسانها ، ومر بنابولي حيث كان يقيم نائب ملك اسبانيا ، الذي عرض عليه اعتناق المسيحية شريطة أن يعطى من الاملاك مايعادل امارته في الشام (١) ، ورأى الامير بنتيجة مفاوضاته والمشاريع التي طرحت على بساط البحث أن هذه الدول الاوربية تريد أن تستخدمه لتحقيق مشروعاتها ضد الدولة العثمانية والعالم الاسلامي آنئـذ ، وانها تنظر الى مصلحتها قبل مصلحته التي تتلخص في استقلاله بامارته ، وتوسيعها بالتدريج ، وسرعان ما تلبدت الغيوم في سماء أوربا فنشبت حرب الثلاثين سنة ، وانصرفت الدول الاوربية الى منازعاتها الخاصة ، ولم يبق لفخر الدين من كل ذلك الا الدرس والعبرة .

ثم جاءته الايام بمزيد من العظة عندما ساءت علاقاته مع دوق توسكانا الذي كان قد أعطاه قصرا لسكناه ، فاتخذ فيه مكانا لصلاته ، واستخدم أحد سلالم القصر مئذنة يرتفع فيها صوت المؤذن في أوقات الصلاة ، ويبدو أن الدوق بدأ يضيق به وبأتباعه وخدمه وأقربائه ، فأرسل الى السلطان يطلب مصالحته والعفو عن فخر الدين ، فأجابه نصوح باشا باسم السلطنة يوافق على الصلح ويراوغ بشأن فخر الدين ويعرض عليه ولاية أخرى (٢) ، وكان

---

(1) Carali Paolo : Fackr Ad-din II, Principe del Libano e la corte toscana (1605 - 1635). Vol. 2. P. 51.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٥) .

الامير قد سئم الاقامة في ايطاليا ، فطلب الاذن بالرحيل ، الا أن بعض المقربين من الدوق نصحوه بالامتناع عن اعطائه اياه لئلا يفشي ببعض المعلومات عن قوة توسكانا ، ووردت على فخر الدين آنئذ رسالة من أمه تحدثه فيها بأن أحمد باشا الحافظ قد نقل الى الاناضول وولي عوضا عنه شركس باشا الذي أطلق سراحها وأمنها على حياة ابنها وطلب منها أن تستدعيه ، فألح المعني في طلب الاجازة بالذهاب ، حتى أعطيها أخيرا ، وأقلعت به السفن الى حيث أهله ومواطنوه بعد غياب خمس سنوات ونيف كانت طويلة الامد شديدة الوطأة عليه .

• • •

عاد فخر الدين الى الساحل الشامي يحمل العواطف والاحقاد ، وبين جنبيه يتأجج غيظ شديد على الدولة العثمانية التي أجبرته على قضاء خمس سنوات في المنفى ، والضغينة على خصومه القدماء وخصوصا بني سيفا ؛ عاد والآمال تداعب مخيلته مصورة الاستقلال عن جسم الدولة وتوسيع امارته ، تلك الآمال التي أجبرته على الاتجاه مرة أخرى الى الغرب ، بل الى البابا هذه المرة بالذات .

أما أعداؤه السيفيون ، فقد تقدموا اليه بالهدايا والنفائس اثر عودته تقربا منه وتحببا ، فرد هداياهم وأظهر لهم الجفاء ، ثم اغتنم أول فرصة فكسرهم في عكار سنة (١٦١٨) وأباحها لجنوده وهدم قصر السيفيين وأعاد بحجارته بناء دير القمر حتى اضطر هؤلاء الى دفع الاموال الوافرة وكتابة الصكوك المذلة على أنفسهم ، فلما توفي يوسف سيفا سنة (١٦٢٤) صفا الجو لفخر الدين فدخل طرابلس وأباحها للنهب أربعين يوما ، ونال ولايتها لابنه حسن من الباب العالي ، الامر الذي دعم نفوذه ووطد مركزه .

وأما اتصاله بأوربا في سبيل تحقيق مشروعاته ، فقد تبدى بأجلى مظاهره في ارساله أحد رجال الدين المارونيين سنة (١٦٣٤) الى ايطاليا يحمل للبابا حب الامير للمسيحيين وبغضه للشيعة المحمدية ويطلب المعونة واعدا بالشروط الآتية : المساهمة في أخذ قبرص والقدس ، واباحة استعمال بعض موانئه لهذا الغرض ، مع وعد أخير بعدم عقد أية معاهدة مع السلطان الا بموافقة البابا ، وباعطائه ضمانا على ذلك • ويطلب من البابا بالمقابل توجيه عمارة بخمسين قطعة حربية لاحتلال قبرص نظرا لضعف مركز السلطان فيها ، مع التأكيد بعجز السلطان عن المقاومة لانه (المعني) وملك العجم سيثيران عليه حربا شعواء ، ويرجو البابا ارسال مهندسين وخبراء لانشاء المعابد وامداده بالمدافع والقنابل ، وقطع الوعود بدعم المعنيين بحرا اذا اقتضى الامر • ولكن البابا لم يتخذ أي قرار في هذا الموضوع لسببين : أولهما أن حرب الثلاثين سنة كانت لاتزال قائمة ، وثانيهما التنافس بين الاسرة البابوية (بارباريني) والاسرة الحاكمة في توسكانا (مديتشي) • وهكذا أفلس المشروع من الاساس رغم أن فخر الدين اقترح لحسم التنافس بين الاسرتين اعطاء قبرص لبرباريني وبيت المقدس لاسرة مديتشي ، وكانت النتيجة المرتقبة بعث حقد الدولة عليه من جديد •

والواقع •• أن فخر الدين حاول تجنب ذلك ، حاول التقرب الى الدولة العثمانية ومصانعتها ، الا أن علاقاته مع والي الشام لم تلبث أن فترت لاسباب مختلفة ، منها تأخر الاموال ، ومنها بعض الاعتداءات على الاراضي ، وجرد كل منهما جيوشه ضد الآخر ، فالتقت في عنجر ، ودارت الدائرة على قوات

الوالي مصطفى باشا ووقع هو نفسه أسيرا ، فأكرم المعني مثواه وقبل ذيله ، وأعاده معززا مكرما الى دمشق ، ثم كان ماسبق ذكره من وفاة يوسف سيفا وضم طرابلس اليه وتولية ابنه عليها ، فعظم نفوذ فخر الدين في سورية بأجمعها ، ولقبه الباب العالي بسلطان البر ، وازدادت هيبته حتى قال عنه المحبي (انه لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة) .

على أن الدولة العثمانية لم تخف قلقها من نفوذه المتزايد يوما بعد يوم رغم أنها عمدت الى مصانعته ريثما تواتيها الفرصة التي تمكنها من القضاء عليه ، خصوصا بعد أن عاد هذا الشيخ من جديد الى الاتصال بالغرب المسيحي وعقد المحالفات معه ، فتعاظم الحقد عليه ، وعهد السلطان الى احمد باشا الكجك بأن يقضي عليه قضاء مبرما .

زحف احمد باشا الى ديار المعني بجيش جرار ، وارتكب الامير خطأ فادحا بتوزيع القوات على حصونه المتعددة ، مما أضعف قوته ، بينما تألب عليه الخصوم وانفض من حوله الاصدقاء الا الشهابيين ، ورغم محاولته اليائسة لتقوية معنويات جنوده واعدا اياهم بنجدة الدول المسيحية الآتية لا محالة ، فقد انتصر العثمانيون على أكثر أبنائه وعلى أمير صفد الذي قتل في المعركة ، واعتصم فخر الدين وبعض أولاده ونسائه في قلعة نيحا حيث شدد عليه العثمانيون الحصار من البر والبحر لئلا يعود الى الهرب ، فانتقل الى مغارة جزين بجوار القلعة حيث اضطر الى الاستسلام بعد أن تمكن أحمد باشا من فتح ثغرة الى الداخل ، فأخذ ومن معه الى قلعة دمشق ومنها الى استامبول ومعه أولاده الباقون وبعض نسائه ، وهناك استطاع أن ينال عفو السلطان مراد الرابع ، الا انه احتجزه في الاستانة ، ثم عزم على اطلاق سراحه واعادته الى بلاده .

وفي خلال ذلك كانت الحوادث تتطور بلبنان بسرعة حيث صودرت أموال المعنيين وقتل أو أسر الكثيرون منهم ، وتشتت أنصارهم ، وولى الباشا على لبنان الامير علي علم الدين اليمني الذي اغتنم الفرصة فيما مضى للتنكيل ببعض المعنيين واستصفاء أموالهم وابادة التنوخيين ، فاشتد في اضطهاد بقايا المعنيين وأنصارهم ، حتى نهض الامير ملحم ابن اخي فخر الدين يبغي الانتقام لعمه والتخلص من هذا الظلم الذي لحق بكل من ناصر بني جلدته ، فنجح في الوصول الى بعض أهدافه ، الا انه سبب مقتل عمه ، لان السلطان استشاط غضبا عندما وردته أنباء الامير ملحم فأمر بقتل فخر الدين ونسائه الاربعة وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في العاصمة العثمانية ، ولم يبق منهم الا غلام صغير اسمه حسين عطف عليه بعض الباشوات في استامبول ، فشفعوا به لدى السلطان الذي أدخله في خدمته حتى كبر وما زال في رقي حتى أرسله السلطان محمدالرابع سفيرا الى الهند ، وظل حسين مخلصا للدولة العثمانية ، ورفض امارة لبنان ، ولكنه لم يهمل شؤونها بل كان يتدخل أحيانا لمصلحتها بالاضافة الى العمل الفكري ، وكان ضليعا في العربية والتركية فألف كتابا تاريخيا قيما دون فيه حوادث عصره .

أما في لبنان فقد توفي ملحم سنة (١٦٥٨) فخلفه ابناه أحمد وقرقماز اللذان حاولا الاتصال ثانية بتوسكانا ، ولكن دون أية نتيجة تذكر ، وما عتم أن توفي قرقماز ، فانفرد أحمد بالحكم ، مجابها المصاعب الكثيرة التي اعترضته ، حتى أنه فقد الامارة واستعادها ، الى أن توفي سنة (١٦٩٧) دون أن يترك خلفا ذكرا ، فاجتمع أعيان لبنان واختاروا من بينهم الامير بشير الشهابي ابن أخ الامير أحمد أميرا عليهم بعد انقراض أسرة المعنيين ، الا أن الامير حسين المعني توسط لدى السلطات المسؤولة في استامبول لتعيين حيدر الشهابي أميرا للبنان ، لانه أحق بهذه الامارة باعتباره حفيد الامير أحمد

(ابن ابنته) ، وكان حدثا فعهد بالوصاية عليه الى الامير بشير ، وهكذا انقرضت الاسرة المعنية ، وبدأ حكم الاسرة الشهابية ذات الاثر البارز في تاريخ الشام منذ أوائل القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا .

• • •

ولعل الباحث اذ يتتبع أخبار فخر الدين ، يلاحظ فيها ناحيتين : أولاهما معروفة معتادة وهي نزاعه مع الامراء الآخرين وخصومته مع الباشوات العثمانيين ، والثانية جديدة حقا تجلت في اتصاله بأوربا ، وعمله على نقل المسألة من مجرد تنازع داخلي في بلد من بلدان الدولة العثمانية الى مسألة عامة يشترك في حلها أمراء أوربا وملوكها ، وهكذا يتصل فخر الدين بتوسكانا الايطالية والبابوية ويتبادل معهما العلاقات السياسية والمبادلات التجارية التي وسعت نطاق تجارة الشام ، فكثر تجار ايطاليا فيه ، وعقدت المعاهدات التجارية بين الطرفين ، ونشطت في البلاد ارساليات تبشيرية مسيحية مستعينة بصداقة فخر الدين ، وبذلك بدأ التخطيط الاساسي لمستقبل لبنان يرتسم في الافق البعيد .

واستفاد الامير من هذه الارساليات وذلك النشاط التجاري ، فجنى أموالا كثيرة استخدمها في تعزيز جيشه وتحصين قلاعه ومد نفوذه وتشجيع العلم والادب حتى كثر الشعراء على بابه ، وأكثروا من نظم القصائد في مديحه ، وكان هو نفسه يميل الى المطالعة حتى قال عنه المعلوف انه جمع بين السيف والقلم .

وقد سعى لادخال مظاهر الحضارة التي شهدها في أوربا ، فغرس بعض

المزروعات الجديدة ، وأقام الحدائق ، وشيد له قصرا في بيروت زينه بالنقوش والتماثيل وجعل في حديقته مكانا خاصا للحيوانات على مثال قصور الامراء الايطاليين ، واستقدم من ايطاليا الاطباء والمهندسين والصناع والزراع والخبراء ؛ وله في ميادين الخير ذكريات ، منها أن أزمة حلت بدمشق قل فيها القمح وغلت أسعاره ، فنهض فخر الدين بقسط وافر من الجهود لتفريجها ، ومنها أن الكوليرا انتشرت ذات مرة في حلب فبذل الامير الطيب جهده وما يستطيع أطباؤه الايطاليون لمكافحتها ، ولم يأخذ عليه المؤرخون الا افراطه في أخذ الاموال من الناس ، كما نعى عليه مسلمو عصره محاولته اعادة النفوذ الغربي الى الشرق ولما يمر الزمان على ذكريات الحروب الصليبية وشهدائها بعد .

ولا بد قبل اختتام هذه الخلاصة عن تاريخ المعنيين من التعرض لدينهم الذي اختلف المؤرخون فيه وتعارضت أقوالهم ، فقال عنه ماريتي الايطالي : (ان والد فخر الدين اسمه معن وهو مغولي) (١) ، وزعم الاب أوجين روجيه أن المعني من سلالة ملك القدس (غودو فروا دو بويون) ، فلما طرد الشراكسة المسيحيين من الارض المقدسة وفتكوا بهم ، لجأ أمير منهم مع بعض جنوده الى الصحراء وتوطنوا في أعالي الجليل قرب الاردن على مقربة من لبنان ، فكان منهم المعنيون فيما بعد ؛ وأورد (هيلار) أحد الرهبان الكبوشيين في كتابه (فرنسا الكاثوليكية في الشرق) قصة تتلخص في أن فخر الدين لما مرض سنة (١٦٣٣) استقدم أحد الآباء الكبوشيين فوعده هذا بالشفاء اذا تنصر ، ففعل ، وأعفاه البابا من واجباته بهذه المناسبة ، وأنه عزم على تنصير أولاده وأرسلهم الى ايطاليا لهذه الغاية ، وقد أيد الاب قرآلي

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف : الامير فخر الدين المعني أمير لبنان . ص (٥٣).

هذه الرواية ، وزاد عليها (استنادا الى سجلات الرسائل الكبوشية وغيرها) أن الامير صرح بميله الى المسيحية منذ زمن بعيد ، وانه (لم يحجم حتى الآن الا خوفا من العثمانيين الذين تجبره السياسة على التظاهر بدياناتهم) ، وأضاف الاب قرآلي أن الامير طلب أن يقسم بالانجيل على كتمان سره الا اذا تغيرت الاحوال تغيرا محسوسا ، ويدلل على ذلك بمشروع المعاهدة الذي أرسله مع مبعوثه الماروني الى البابا وفيه يعد بالتعاون مع المسيحيين بشكل سافر . وقال البارون كارادوفو (ان المعني وان لبس العمامة ، الا أنه كان يشارك المسيحيين سرا في اقامة شعائرهم الدينية ولا يذهب الى الجامع الا مرة في السنة) (١) ، وقال عنه محمد كرد علي صاحب خطط الشام ، نقلا عن المعلمة الاسلامية ، أن فخر الدين حاول اقناع مضيفيه في ايطاليا (أن الدروز من نسل رجل مسيحي اسمه الكونت دو درو وانه هو أيضا من أبناء غودو فروا دو بويون) محاولة منه لحمل المسيحيين على اعلان حرب صليبية جديدة ولكنه لم يوفق في ذلك (٢) . وأغلب الظن أن المعني مسلم حاول استجلاب العناصر المسيحية مبالغة منه في التقرب من الغرب وطلب مساعدته ، الا أنه لم يعتنق المسيحية فعلا ، ويؤيد ذلك بناؤه جامعا في ليفورنا ، وتعدد زوجاته ، وطلب امارة الحج لبعض أبنائه الذين تولوها فعلا في بعض السنين ، ولو كان في نيته اعتناق المسيحية لاعتنقها عندما كان في ايطاليا بعيدا عن السلطان ونفوذ السلطان ، مستجيبا للمغريات التي عرضت عليه آنئذ اذا ما تنصر ، وقد أثبت ابنه حسين نفسه اسلاميته وأنكر كل ما قيل خلاف ذلك مما لم يعد معه مجال للشك .

. . .

(١) البارون كارادوفو : مفكرو الاسلام . الجزء الخامس ص (٧٠) .
(٢) محمد كرد علي . خطط الشام . الجزء الثاني . ص (٢٦٥) .

الفصل الخامس

الشهابيون وظاهر العمر

وهكذا آل حكم الجبل الى الشهابيين (١) .

وهؤلاء لم يكونوا أصحاب عصبية فيه ، لانهم كانوا قبل ذلك في وادي التيم ، مما حملهم على تألف العناصر اللبنانية المختلفة ليطمئنوا الى دوام حكمهم ، فكانت الشوف لآل جنبلاط ، وكان آ ل اللمع في المتن مقدمين ، فرفعهم الشهابيون الى رتبة الامارة ، وكان آل أرسلان في الغرب غير مشايعين ، فوضعوا الى جانبهم الشيوخ من آل تلحوق ، وأصلهم من عرب الجزيرة الفراتية جاءوا مع الامير معن ، وكان فخر الدين يتخذ منهم السفراء والرسل الى استامبول .

وفوق هذا البناء الارستقراطي ، جلس الشهابيون ينفذون أحكامهم فيه ، ويتقبلون الاموال والجنود من الزعماء المحليين عند الحرب ، مع مراعاة نفوذ هؤلاء الزعماء ، وخصوصا الدروز منهم ؛ أما المسائل الهامة ، فقد كان يقتضي لحلها جمع أعيان البلاد من الشيوخ والمقدمين والامراء للفصل فيها .

وورث الشهابيون عن المعنيين سياسة نصرة القيسية في تلك المنطقة من الساحل الشامي والجبل على اليمنية ؛ ذلك لان القبائل العربية بعد أن هاجرت

---

(١) يقول الشدياق أن أسرة شهاب تنتسب الى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم . أنظر : أخبار الاعيان في جبل لبنان . ص (٣٧) .

الى سورية ومصر والعراق وغيرها بدأت تستعيد عصبيتها القبلية الجاهلية من قيسية ويمنية ، وتحزب كل فريق على الآخر حتى أصبح لكل من الفريقين علم خاص وشارة خاصة ، فعلم اليمنيين أحمر اللون وشارته قرنفلة حمراء وعلم القيسية أبيض وشارته زهرة بيضاء من الخشخاش ، كما ان رجال الحزبين كانوا يحيون بعضهم البعض بألفاظ خاصة وعبارات مصطلح عليها ، وينفر كل منهما الآخر من استعمالها .

وكان السيفيون يمنيين ، أما المعنيون فكانوا قيسيين ، لذلك كان لانتصار هؤلاء عليهم معنى حزبي عميق ، فلما انهار حكم فخر الدين أظلم الجو ضد المعنيين والقيسيين بشكل عام ، وساد العنصر اليمني في بلاد الشام فاعتز وطغى وجار ، خصوصا عندما ولت الدولة منه أحد الامراء من آل علم الدين الامور ، حتى تغيرت الظروف وعادت سلالة المعنيين الى سدة الحكم فتولى منها ملحم وأحمد ، ثم تولى الشهابيون فعملوا على الانتقام من خصومهم اليمنيين ، ونجحوا فعلا مع مرور الايام ، ولو أن التحزب اتخذ مظهرا آخر بعد انتصارهم فيما بعد .

• • •

كانت الباشوية المهمة في لبنان هي باشوية صيدا عندما تولى الامير بشير الشهابي وصاية الامير حيدر ، فسعى لتقوية صلته بواليها ، وواصل سياسة المعنيين في نصرة القيسية على اليمنية ، وعين على صفد أحد الامراء الشهابيين وجعل مساعدا له أحد شيوخ البدو عمر الزيداني ، الذي تولى عليها فيما بعد ، فكان ذلك أساس المركز الذي تمتع به ابنه ظاهر بعد قليل .

ولما بلغ الامير حيدر سن الرشد ، استلم الامارة بنفسه ، واتجهت أنظاره

في الدرجة الاولى الى بلاد بشارة التي احتلها المتاولة ، فزحف اليهم بقواته ، وكسرهم في وقعة النبطية ، بعد أن قتل عددا كبيرا منهم .

وفي خلال ذلك ، كان نفوذ اليمنية يتعاظم ، فتردد اسم آل علم الدين على الالسن ، وحالفهم الامير يوسف ارسلان حاكم الشويفات ، كما انضم اليهم الشيخ محمد ابو هرموش القيسي ، وأيدهم باشا صيدا الذي ساءه انكسار المتاولة في النبطية ، حتى مست هيبة الشهابيين أنفسهم في الشوف ، فجمع الامير حيدر القيسية ، وسار بهم الى رأس المتن ، بينما تجمعت قوات باشا صيدا ودمشق واليمنية وقررت الاطباق على الخصم من أطراف ثلاثة بخطة محكمة ، فبادر الامير حيدر الى مهاجمة اليمنية في عين دارا ليلا سنة (١٧١٠) ، وقتل قسما كبيرا منهم وأباد جميع أمراء آل علم الدين الذين انقرضت سلالتهم بذلك ، وهرب الباقون لا يلوون على شيء بعد قتال مرير ، وانسحبت قوات الدولة نتيجة لذلك ، واستتبت سلطة الامير حيدر بشكل عام ، وكانت معركة عين دارا حاسمة في النزاع بين القيسية واليمنية .

ولما تنازل الامير حيدر لابنه ملحم سنة (١٧٣٠) كانت الشام تحت سيطرة آل العظم الذين حكموه حقبة طويلة من الزمان .

اختلف الباحثون في نشأة آل العظم ، فقال البعض أنهم من قونية (١) ، وأخذ أكثرهم بالرأي الذي يرجع أصلهم الى معرة النعمان ، وبها ولد ونشأ اسماعيل بن ابراهيم العظم ، فاستطاع السيطرة على مدينته ، ثم على حماه ، وولته الدولة العثمانية سنة ١٧٢٤ ــ ١٧٢٥ أمور الشام وأسندت اليه امارة الحج وظل نجمه في علو حتى سنة (١٧٢٩) حيث عزل وضبطت أمواله ، الا

---

(١) عبد القادر العظم : الاسرة العظمية . ص (٣) . دمشق ١٩٥٠ .

أن أولاده خلفوه في الولاية ماعدا ابراهيم ، وارتفع اسم آل العظم حتى جاء عهد كانوا فيه حكام الشام من أقصاها الى أقصاها (١) ، ولعل الدولة العثمانية ارتاحت لاخلاصهم في خدمتها ، وجدهم في محاربة أعدائها ، واطمأنت الى عدم خروجهم على طاعتها ، فسلمت اليهم أمور الدولة حقبة طويلة من الزمان ، الا أن هذه الاعتبارات لم تكن تمنعها من قتل الولاة منهم طمعا في أموالهم .

وأشهر ولاة هذه الاسرة أسعد باشا بن اسماعيل العظم ، الذي ولي أمور حماه بادىء ذي بدء ، فشيد فيهـا مختلف أنواع الابنية العامة من دور وحمامات وخانات ، ثم أرسل الى صيدا التي لم تعجبه فأعيد الى حماه ، ثم ولي أمور الشام وأمرة الحج بعد عمه سليمان باشا ، وتخاذل في البدء عندما كان العثمانيون يصادرون أملاك عمه وينكلون بنسائه وأسرته ، حتى سماه أهل الشام السيدة سعدية (سعدية قادين) (٢) ، و (سعدية خانم) (٣) ، الا أنه ما لبث أن فرض شخصيته على العسكريين والمدنيين على السواء ، وأصبحت قافلة الحج تروح وترجع في أمان ، و (أرهب الكبار والصغار وعظم صيته حتى في البراري والقفار ...) ، ولكن الدولة نقلته الى حلب ، ثم عزلته ونفته الى أن قتل فضبطت أمواله ، وأسدلت ستارا كثيفا على حياته الممتعة المليئة بمختلف مظاهر الحكم والابهة والغنى .

وكان أسعد باشا هذا واليا على صيدا أيام الامير ملحم ، فساءت العلاقات بين الرجلين ، حتى نشب بينهما القتـال في سهل البقاع سنة (١٧٤٧) ،

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . جزء (٢) صفحة (٢٩٠) .
(٢) حوادث دمشق اليومية لاحمد البديري الحلاق . ص (٦٢ ـ متن) نشر وتحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم .
(٣) نفس المصدر . ص (٣٠ ـ مقدمة) .

ودارت الدائرة على اسعد باشا ، وفاز ملحم الشهابي نتيجة لذلك بالتزام سهل البقاع ، وكانت الملاريا منتشرة فيه ، والبدو ينهكون أهله بهجماتهم المتتابعة ، فكافح الامراض ، ورد عنه المعتدين ، وعمره وأحسن استغلاله حتى أصبح من أخصب بقاع الشام • ورأى أن تلك المنطقة بحاجة الى ميناء تصدر منه الحاصلات فسعى ملحم حتى ضم بيروت اليه ، وكانت قد انتزعت من أمراء الجبل منذ سقوط فخر الدين ، وبذلك أصبحت دير القمر العاصمة الثانية للشهابيين •

واعتزل الامير ملحم الامارة سنة (١٧٥٤) وأقام في بيروت ، فاتفق أخواه أحمد ومنصور على أن يتوليا الحكم مشتركين ، الا أن النزاع مالبث أن دب بين الاخوين ، وعمد كل منهما الى اصطناع الحلفاء ضد أخيه ، فاعتمد منصور على آل جنبلاط الذين استقروا في البقاع بعد رحيلهم عن حلب ، أما أحمد فقد حالف بني يزبك الجد الاعلى لشيوخ آل عماد وخصوم آل جنبلاط ، وبذلك تحولت صبغة النزاع ، من تنافس القيسية واليمنية الى صراع بين الجنبلاطيين واليزبكيين ، ذلك الصراع الذي انتشر في سائر الاقطار الشامية وأقلق الناس ، حين بدأ الامير يوسف الشهابي بالظهور شيئا فشيئا ، وأخذ يتألف الاصدقاء ويماليء الباشوات العثمانيين •

• • •

وبينما كانت الشام تموج بالاضطرابات والمنازعات ، والدولة العثمانية منشغلة في حربها ضد روسيا ، ظهر ظاهر العمر في أفق التاريخ السوري ، شخصية سياسية وعسكرية قدرت الموقف الدقيق وسيطرت عليه •

ينتسب ظاهر الى بني زيدان الذين كانوا في القسم الجنوبي من سوريا ،

ثم اتصلوا بالامير بشير الاول الشهابي ، فأقام هذا عمر الزيداني والد ظاهر وكيلا عنه في صفد ، وعهد اليه بأن يخضع المتاولة الشيعيين في بلاد بشارة ، واستطاع عمر أن يتولى أمور صفد بعد أن كفت يد الشهابيين عنها ، ولم يلبث أن خلفه ابنه ظاهر الذي دار بعينيه فيما حوله فرأى فساد الادارة ، واضطراب الاحوال ، فنظر الى الافق البعيد ، الى الامل الذي بسم له بين صفحات المياه المتلاطمة على قطعات الاسطول الروسي الباحث عن الاصدقاء ، وفي رايات علي بك الكبير التي ارتفعت في مصر عاصية لارادة السلطان ، متمردة عليه .

ولم يكن في بدء أمره الا مجرد شيخ من الشيوخ الذين عجت بهم بلاد الشام ، ثم بدأ يوسع منطقة نفوذه ، فضم اليه طبرية ، وأكمل سيطرته على منطقة صفد وما جاورها ، وكانت صور بيد المتاولة فحاربهم ، ثم صالحهم وعقد معهم معاهدة هجومية دفاعية تعهد بها الطرفان بأن يساعد كل منهما الآخر مهما كانت الظروف .

الى ذلك الوقت كانت علاقات ظاهر مع باشا صيدا علاقات ودية ، مكنته من التوسع برضى الباشا وحسن اختياره ، الا أن ظاهرا مد بصره الى الساحل ، حيث المنفذ الذي يخرجه من طوق الادارة العثمانية ، ويمكنه من اصطناع الحلفاء ، فسيطر أتباعه على الطريق الى عكا وصور ، واعتدوا على أولاهما عدة مرات حتى اضطر باشا صيدا الى اعطاء المتاولة التزام صور ، وتفويض التزام عكا الى ظاهر ، فتركز فيها نشاطه ، وأعاد اليها بعض مكانتها أيام الحروب الصليبية ، ومضى في توسيع نفوذه على الساحل ، فضم حيفا أيضا الى ملكه المتسع المتزايد . كل ذلك وقلق العثمانيين يشتد ، ونظرات باشواتها تزداد حدة وغضبا ، حتى تحرك سليمان باشا العظم والي دمشق ، وهو الاول في بلاد الشام ، ليضع حدا لتوسع هذا الطامع الجديد وامتداد نفوذه .

كان لبنان آنئذ خاضعا للشهابيين كما تقدم ، يجمعون الاموال ويقدمونها لباشا صيدا المسؤول رسميا في الجبل ، وكانت صور خاضعة للمتاولة حلفاء ظاهر ، أما دمشق فكان واليها سليمان باشا العظم ، وعليه يقع عبء مكافحة العصبيات المسلحة التي توسع سلطانها في الاقاليم السورية ، ومن هنا أوعزت الدولة اليه بالنهوض لمكافحة نفوذ ظاهر العمر الآخذ بالازدياد ، فجمع قواته ، وسار بها الى الجنوب .

حاصر الباشا طبرية سنة (١٧٤٣) أخيرا ، واستطاع ظاهر أن يدبر لغريمه مكيدة انتهت بأن دس السم له فمات ، وتراجع جيشه ، واضطرت الدولة مكرهة ساخطة الى اعطائه ولاية صيدا ، الا انها كتبت لباشا دمشق الجديد (أسعد باشا العظم) بانتهاز الفرصة للانتقام ، وحاولت أن تؤلب عليه الشهابيين ، وخاصة الامير يوسف الذي أصبح أميرا على لبنان ، فحالف ظاهر الامير منصور الشهابي الذي كان حاكم الجبل قبل يوسف ، فشغلوا بمنازعاتهم ، وفشلت طرق العثمانيين هذه المرة .

في ذلك الوقت تولى أمر دمشق عثمان باشا ، ويلقب بالصادق لانه أخبر الدولة عن أموال سيده أسعد باشا العظم بكاملها بعد قتله (١) ، وكان ذكيا حازما استطاع أن يضع أحد ولديه على صيدا وثانيهما على طرابلس ، فأصبحت لديه قوة هائلة . وحدث آنئذ أن عثمان باشا صادر الاموال التي كانت تدفع للبدو مقابل حمايتهم للحجاج ، فما كان منهم الا أن نهبوا قافلة الحج عند العودة ، وراح عثمان يبرر موقفه أمام الدولة باتهام ظاهر العمر وتحميله

---

(١) قتل أسعد باشا العظم سنة (١٧٥٦) ، وكان من أشهر باشوات آل العظم بعده سعد الدين باشا ومصطفى باشا ومحمد باشا ويوسف باشا ، وكان آخر من تولى منهم عبد الله باشا .

مسؤولية ذلك ، ورغم أن ظاهرا استطاع استرداد ما غنمه البدو وارساله الى استامبول ، الا أن العلاقات ساءت الى حـد خطير بينه وبين الدولة التي أصبحت تفكر جديا بالقضاء عليه .

رأى ظاهر أن العاصفة تتجمع ضده ، وخصومه يملكون قوات هائلة تكفي للقضاء عليه ، فلم يكتف بانتصاره الاول على عثمان خصوصا بعد أن حاول هذا استنفار أمراء الشوف عليـه ، واستدار يبحث عن الاصدقاء ، ويصغي باهتمام الى حـديث وكيله ابراهيم الصباغ عن ضرورة الاستعانة بالروس الذين يحاربون السلطان ويهزمون قواته .

وكان الروس آنئذ يشتبكون مع العثمانيين في صراع مرير ، وأسطولهم يعبر الى البحر المتوسط بقيادة الكسيس أورلوف ، فيحرق الاسطول التركي بجوار جزيرة خيوس سنة (١٧٧٠) ويحتل بحارته وجنوده أكثر جزائر الارخبيل اليوناني ، ثم يتجولون في الجزء الشرقي من البحر المتوسط متصلين بكل العناصر المناوئة للباب العالي فيه ، فكان من الطبيعي أن يمدوا أيديهم الى ظاهر في عكا ، ويصافحونه بحرارة .

والواقع ... أن محالفة كاترين لم تقنع ظاهرا رغم قوة اسطولها ، فوجه أنظاره الى الجنوب ، الى علي بك الكبير في مصر الذي عصي أوامر الدولة ، واستعان عليها أيضا بأساطيل روسيا وقواتها .

. . .

لعله يجمل ، قبل الاسترسال في مراحل هذا الحلف الجديد (وهو لم يدرس بعد دراسة وثائقية دقيقة) أن تلقى نظرة عجلى على حالة مصر تحت وطأة العثمانيين وعلى حركة علي بك هناك في ذلك الوقت .

حكم العثمانيون مصر بنفس الاسلوب الذي حكموا به ولاياتهم الاخرى ، عين فيها باشا عثماني اتخذ له أعوانا ومساعدين ، وتحت امرته فرق الجيش المختلفة من انكشارية وسباهية الخ ... التي لم تقتصر مهمتها على العمل العسكري فقط ، بل تعدته الى الاشراف على جباية الاموال باعتبار أن مرتباتها كانت مرتبطة ببعض فروع الدخل ، والى تكوين ديوان غدا صورة مصغرة لديوان الباب العالي نفسه ، يتألف من أغوات هذه الفرق بالاشتراك مع الشخصيات البارزة في مصر ، الامر الذي قيد سلطة الباشا العثماني ، وأخضعه لرغبات هذه القوة العسكرية التي أصبحت تستطيع عزله وقتله ان رفض الرضوخ أو حاول المقاومة .

والى جانب هذا الجهاز الاداري ، قامت سلطة الامراء الذين لم يحطمهم السلطان سليم الاول عند دخوله الديار المصرية ، بل عفا عنهم ، ووضع أول حاكم لمصر منهم (خاير بك) ، فأخذوا يستكثرون من شراء المماليك ويبالغون في تقويتهم وتدريبهم ، بل لقد شاع اقتناؤهم من قبل الافراد العاديين والاغوات والباشا العثماني نفسه ، وهكذا بدأت تتكون كتل مسلحة حول الامراء ، مع الملاحظة بأن الكثيرين من هؤلاء الامراء كانوا مماليك لأحد القواد العثمانيين ، الامر الذي يجعلهم من عناصر الحكم العثماني لا أجزاء منفصلة عنه ، وليس مبعث حركاتهم الرغبة في الاستقلال بل الرغبة في التسلط والنفوذ وجمع المال .

ومن هذه الحركات كانت حركة علي بك ، لا من نوع تلك الحركات القومية الاستقلالية التي اشتعلت في البلقان ، بل كانت حركة تغلب وعصبية ورغبة في بسط النفوذ ، وربما زاد علي بك على هذا أنه مد بصره الى الخارج ، فسعى الى التحالف مع روسيا التي كانت تحارب الدولة آنذاك ، واستفاد

من ظروف العثمانيين ، فطرد الباشا العثماني من القاهرة ، واتخذ لقب قائمقام مصر ، وقيل أن أحد الخطباء دعا له في المساجد ولقبه بسلطان البرين وخاقان البحرين ، وأرسل حملة الى الحجاز أزاحت شريف مكة ونصبت مكانه أحد الموالين للحاكم المصري ليطمئن هذا الى أن الاموال وقوافل الحج الآتية من مصر كل سنة لا تقابل بشكل عدائي ، وأن السفن التي تأتي عن طريق البحر الاحمر لن تكون موضع السطو والنهب ، وتم له بالفعل كل ذلك بنتيجة الحملة ، وكان من الطبيعي أن يقابل علي بك اقتراح ظاهر العمر بالموافقة التامة ، فحركته متحدة في أهدافها مع حركة ظاهر من حيث أنها تساعده على الدولة العثمانية ، كما تقيم أمام الدولة حاجزا في الطريق البريـة من مركز قوتها الرئيسية الى مصر ، وهكذا وجد التحالف الذي كاد أن يتغلب على الدولة لولا الاساليب العثمانية والمؤامرات التي ذرت قرنها وكان لها أثر حاسم في الموضوع .

أرسل علي بك أولا حملة بقيادة أحد أمرائه اسماعيل بك لتأييد ظاهر ضد باشوات السلطان في سورية ، فسار هذا في نحو من عشرين ألفا الى ظاهر ، فاختلف الطرفان ، واستاء اسماعيل من أولاد أمير عكا ورفض قتال عثمان الصادق والي دمشق بحجة أن هذا يتأهب للخروج بالحج الاسلامي ، وانه ليس من المروءة مقاتلته في مثل هذه الحال ، وراح كل من الطرفين يكيل التهم للآخر ، هذا يشكو اسماعيل الى علي بك ، وذاك يبرر موقفه ويدلي ببراهينه ، حتى عـزم الامير المصري على تجريد قوة عظمى بقيادة محمد ابي الذهب ــ وكان قد عاد من حملة الحجاز ــ تحقق أهداف الحلف ، وتبلغ الغاية التي كان يرجوها منه .

زحف ابو الذهب الى الشام ، وانضم اليه في طريقه للقاء جيوش الدولة

ظاهر العمر وشيوخ المتاولة ، وهرع كل من ولاة حلب وطرابلس ودمشق الى قتاله ، فدارت الدائرة عليهم في داريا ، وتقدم أبو الذهب الى دمشق ، فعسكر بالقرب منها ، وكتب الى الاهلين الذين خرجوا اليه يطلبون الامان ، ثم دخل المدينة عزيز الجانب مرفوع الجبين •

أما الشهابيون فقد انقسموا الى فريقين ، فريق عد ظاهرا من صنائعهم وعلى رأسه منصور الذي رد على كتاب ابي الذهب ردا حسنا وأرسل اليه هدايا من الخيل وكتاب تهنئة بانتصاره ، وفريق آخر كان يميل الى باشا دمشق وعلى رأسه الامير يوسف الذي تلقى كتاب عثمان والي دمشق بطلب المساعدة ، فلم يحر جوابا ، وآثر الانتظار بعد أن رأى كفة المصريين الراجحة ، والتجاء عثمان الى حمص مكسورا •

وفجأة تغير الموقف ، استفاق الناس ذات يوم فاذا بأبي الذهب قد انسحب بجنوده ، وأسقط في يد ظاهر وحلفائه المتاولة ، بل أخذهم العجب من سبب هذا الانسحاب المفاجيء الذي لم يحسبوا له أي حساب •

اختلف المؤرخون في تعليل انسحاب أبي الذهب ، عزاه بعضهم الى تأثير اسماعيل بك الذي كان قد بدأ يوغر صدر القائد على ظاهر ، فقال حيدر الشهابي أن اسماعيل نبهه الى مغبة الامر ، وحذره من مقارعة السلطان (ان العصيان على السلطان من مكارم الشيطان) ، وقال الجبرتي ان الجنود عارضوا أبا الذهب في محاربتهم خليفة المسلمين ومد يدهم الى دولة نصرانية معادية له ، حتى أثروا عليه فانسحب ، وعزاه بعضهم الآخر الى (صرة) ثقيلة من النقود تلقاها القائد من عثمان ، فآثر الانسحاب مكتفيا من الغنيمة بهذه الثروة التي لم يكن يحلم بها •

والظاهر .. أن أبا الذهب أدرك أن الامير الزيداني يستخدم جنوده لصالحه الخاص ، وأثر اسماعيل في تقوية هذه الفكرة في نفسه ، واثارة جنوده عليه ، حتى شق عليه البقاء ، ولعل الدولة استغلت فيه النزعة الى السيطرة فأرسلت اليه ترشوه وتمنيه بولاية مصر ، وربما بولاية الشام ، وكان باشواتها خير من يتقنون هذه الاساليب ، ففضل الانسحاب موفرا جنوده للثورة على سيده علي بك ، وما لبثت القصة المألوفة أن تكررت ، فقد ثار القائد فعلا على سيده ، واضطره الى الفرار من مصر الى ديار ظاهر العمر ، ناجيا بحياته ، ناقما على مملوكه الذي كفر بطاعته ، وجحد معروفه .

• • •

وهكذا انسحب أبو الذهب من دمشق ، وسرعان ما عاد اليها عثمان باشا يتبعه الامير يوسف الشهابي الذي توطد مركزه عند الباب العالي ، واضطر خصمه الامير منصور الى التنازل له عن الامارة في الاجتماع الذي عقده شيوخ الجبل وزعماؤه على نهر الباروك كما جرت العادة في لبنان ، وبدأ يعد الجنود لمحاربة ظاهر العمر ، حتى اذا اكتملت عدته ، بارح دمشق الى فلسطين . أما ظاهر فلم ييأس ، بل جمع حلفاءه ، ثم فاجأ خصومه ليلا ، فتشتت جنود الدولة ولاذوا بالفرار مع الباشا الذي كان أسبقهم الى الهزيمة ، واستطاع المنتصر أن ينتزع صيدا وأن يعهد بحكومتها الى دنكزلي أحد أعوانه المغاربة .

ورفض الباب العالي عرض الشيخ ظاهر بالصلح ، واعتزم القضاء عليه مهما كلف الامر ، فأعد جيشا عظيما انضمت اليه قوات باشا دمشق وقوات الامير يوسف الشهابي ، زحف الى الجنوب وحاصر صيدا ، وكان الشيخ قد أعد للامر عدته ، من أتباعه في فلسطين ، ومن المتاولة والشيعيين الموالين

له ، ومن مماليك علي بك الذين التجأوا معه ، فسار الى لقاء العثمانيين ، ودارت على الساحل قرب صيدا معركة عنيفة ساهم فيها الاسطول الروسي انتهت بانتصار ظاهر في أيار ـ مايو سنة (١٧٧٢) وبعد قليل ظهر الروس أمام بيروت وضربوها بالمدافع ، ثم نزل البحارة الى المدينة ونهبوها ، فتدخل الامير منصور الشهابي ، وكان يقيم فيها منذ أن اعتزل الامارة ، وأيده الشيخ ظاهر حتى انسحب الروس ، الامر الذي حمل عثمان باشا على الاسراع في احتلال هذه المدينة الساحلية الهامة خوفا من عودة الروس اليها مرة ثانية ، فأرسل اليها قوات بقيادة أحمد بك الجزار لاحتلالها ، وهكذا مهدت الدولة العثمانية والامير يوسف الشهابي لسلطة الجزار على الساحل ، بالرغم من أن الكثيرين حذروا الامير الشهابي من اقامة أحمد الجزار في بيروت ، الا انه لم يستمع لهذه التحذيرات معاكسة لعمه منصور .

وخبر احتلال العثمانيين لبيروت نفسه ، ما كاد يصل الى مسامع الروس ، حتى عادوا بأسطولهم اليها ، فضربوها بالمدافع ، وحاصروها حوالي أربعة أشهر ، حتى ضاق الناس ذرعا بالحصار ، واضطر الجزار الى التسليم عن طريق الشيخ ظاهر ، ودفع الاموال التي طلبت منه ، والتي جباها بدوره من سكان بيروت .

أما ظاهر فقد دانت له فلسطين بأجمعها ، وخضع له المتاولة والبدو والسكان العاديون ، واضطرت الدولة الى العفو عنه وتعيينه واليا على صيدا (١) ، مما جعل الامير يوسف الشهابي تحت نفوذه واضطره الى مسايرته وملاينته(٢) ، حتى حدثته نفسه بانجاد علي بك اللاجيء لديه والزحف بقواته الى مصر .

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٦) في الباب الثاني من هذا الكتاب .
(٢) انظر الوثيقة رقم (٧) . الباب الثاني من هذا الكتاب .

ويبدو أن أبا الذهب دبر لعلي بك مكيدة بارعة ، فقد استكتب أمراء المماليك في مصر رسائل الى أميرهم اللاجيء في الشام يطلبون فيها اليه أن يسرع في الحضور الى مصر ، ويعدونه بتقديم المساعدة له ضد أبي الذهب ، ويذكر حيدر الشهابي أن بعض رجال ظاهر العمر حذروا علي بك من هذه المكيدة ، ولفتوا نظره الى أن أكثر هـذه الكتب ، ان لم تكن كلها ، قد وردت بصيغة واحدة ، فلم يصغ اليهم ، وألح على الشيخ ظاهر بانجاده ، فأمده هذا بالرجال ، وقابلته قوات ابي الذهب شرقي الدلتا (في الصالحية) فانهزم علي بك ، وأصيب بجرح قاتل ، وردد بعض المؤرخين أنه مات مسموما سنة (١٧٧٣) .

على أن أبا الذهب وقد أسكره النصر ، ووعدته الدولة بالخيرات ، تابع السير بقواته الى سورية سنة (١٧٧٥) لمحاربة الشيخ ظاهر الذي أيد عدوه وساعده عليه ، وزاد في حرج موقف الشيخ أن ابنه عثمان ــ وكثيرا ما أتعب والده ــ انضم الى أبي الذهب مع بعض الزيادنة ، وحوصرت يافا حصارا عسيرا وقاوم أهلها الغزاة حتى لانت نفوس المغاربة ، فسهلوا دخولهم الى المدينة ، حيث عاث الجند فسادا في النساء والاموال وأهرقوا دماء الابرياء ، مما أدخل الهلع الى قلب ظاهر خصوصا بعد أن أبى يوسف الشهابي مساعدته ، ففر من عـكا ، وأكمل أبو الذهب أعماله الانتقاميـة في يافا فهدم ديرين للنصارى ، وقتل رهبانهما ، بل كاد يفني النصارى هناك لولا أن ابراهيم الجوهري شفع بهم لديه ، ثم سار الى عكا ، واستقبل وفود يوسف الشهابي ووالي صيدا الدكزلي وكتب يطلب من الدولة توليته مصر والشام ، الا أن الموت داهمه قبل أن يتلقى جواب الباب العالي بالقبول ، فقضي فجأة على حملته ، وعاد جنده الى قواعدهم الاولى .

عاد ظاهر العمر الى عكا ، ولكن الاقدار أبت أن تدعه يطمئن الى نفوذه الممتد ، لان الدولة ، وقد عقدت الصلح مع الروسيا سنة (١٧٧٤) رأت أن تتفرغ للقضاء عليه ، وابتدأت بارسال الاسطول العثماني بقيادة حسن باشا الجزائري يطلب منه دفع الاموال المترتبة عليه للدولة خلال سبع السنوات الفائتة ، فأبى ظاهر بعد استشارة وكيله ابراهيم الصباغ ، فسلط الاسطول نيرانه على عكا وحاصرها ، ورأى ظاهر أبناءه يتمردون ، ومغاربته يثورون عليه وعلى رأسهم دكزلي ، وجنوده يأبون مقاتلة جند السلطان ، فعزم على الفرار ، الا أنه قتل بيد أحد المغاربة ، (ويظن أنه دكزلي نفسه) الذي احتز رأسه وأرسله الى استامبول حيث عرض في (٦ آب ــ اغسطس ١٧٧٥) ، وأخذ حسن باشا يتعقب أعوان ظاهر وأفراد أسرته ممن بقي على الولاء له ، فقبض على ابراهيم الصباغ وكيله وعذبه وألح عليه ليدله على أموال سيده ثم شنقه على شراع احدى سفنه ، وكان القتل من نصيب دكزلي نفسه الذي رأى فيه حسن باشا مثال الغدر والخيانة .

وعهد حسن باشا الى أحمد الجزار بولاية عكا وصيدا ، وكلفه بأن يجتث البقية الباقية من أفراد أسرة ظاهر العمر ، وكانت قد انقسمت الى فريقين ، فريق خرج على رب الاسرة وعلى رأسه عثمان ابنه الذي تقرب الى حسن باشا وذهب معه الى استامبول ليكمل هناك بقية حياته بنجاح ، وفريق آخر ظل مواليا لظاهر وعلى رأسه ابنه علي الذي ظل يقاتل في فلسطين متنقلا من جهة الى أخرى حتى عاد حسن باشا الجزائري الى سواحل فلسطين ، فحمل بقية أسرة الظاهــر الى استامبول وتعاون الجزار ووالي دمشق على الثائر المتنقل الذي اغتيل بمكيدة بارعة عند جسر بنات يعقوب وأرسل رأسه الى استامبول أيضا .

. . .

واذا كانت الدولة قد قضت على ظاهر العمر بهذه القسوة ، فان سجلات الزمان تحفظ لعهده مميزات جعلت مكانه مرموقا في تاريخ الحكم العثماني المظلم في الشام ، فهو أول من استعان بمصر وبدولة أجنبية في آن واحد ، ومد بصره الى خارج بلاده ، ونبه الانظار من جديد الى الرابطة الجغرافية بين مصر والشام .

وكان بعيد النظر ، جالت برأسه أفكار جيدة أحسن تطبيقها ، والقصص كثيرة عن عدله وحرصه على نشر الامن في المناطق التابعة له ، حتى قيل أن السيدة كانت تسير بحليّها ليلا نهارا دون أن يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء .

واهتم ظاهر بالزراعة ، فكان يقول عن الفلاحين (متى أخصب الفلاح أخصبت أرضه ، وأخصبت البلاد كلها معه) (١) ، وكان يعفي الفلاح من دفع الاموال في السنوات المجدبة ويعطيه البذور ويقدم اليه المساعدات ، كما نشط التجارة بين الداخل والساحل وشجع التجار على المجيء الى الثغور التابعة له ، وكان معروفا بالتسامح الديني ، حتى أنه اتخذ وزراءه من النصارى : يوسف القسيس ، ابراهيم الصباغ ، ميخائيل الجمل . أما خلقه فكان مزيجا من طبائع البدو والمتحضرين ، أحب العمران ، فشيد من الابنية الهامة في عكا ما أعاد لها بعض مجدها في القرون الوسطى ، وشيد بنوه المساجد والابنية في صفد وطبريا ويافا عدا القرى والقلاع ، ومر عهده بفلسطين التي خضعت له دون أن يتذمر الاهلون من طلبه للاموال أو ظلمه

(١) نيقولا الصباغ العكاوي : الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وصفد . ص (٥٦) . نشره وعلق عليه قسطنطين باشا .

للناس ، فيما خلا سنين الغزو وأيامه الاخيرة التي حاول فيها الانتقام من الاعداء والاجهاز على من خانوه .

على أن هناك ظاهرة هامة تبدت في حكم ظاهر العمر ، وهي سياسة العثمانيين في ضرب العصبيات بعضها ببعض للتخلص من أطماع زعمائها ، فاستعانت بالدروز والشهابيين ضد ظاهر ، وضربت علي بك بمملوكه أبي الذهب ، ثم ضربت به ظاهرا ، حتى تفرغت لقتاله فأرسلت اليه الجنود والاساطيل ونكلت به وبحلفائه .

وبانتهاء هذه الفترة ، بدأ اسم الجزار يتألق في الافق السوري ، وشرعت الدولة تستخدمه لاغراضها المختلفة ، حتى تأتي جيوش بونابرت ، فيحمل الجزار عبء قتاله ، وينزل به أول هزيمة أطاحت بأحلامه ، وغيرت وجه التاريخ .

. . .

الفصل السادس

أسس العلاقات بين الشرق والغرب قبل نابليون

لم يكن العثمانيون أول من بدأ العلاقات الدولية مع العالم الغربي ، فقد عرف التاريخ القديم علاقات سياسية وتجارية واسعة النطاق بين الشرق والغرب ، منها تركز اليونانيين في طروادة ، ثم الزحف الفارسي على اليونان واشتباك الطرفين في تلك السلسلة الطويلة من الحروب التي دعيت بالحروب الميدية ، وما أعقب ذلك من رد فعل حمل الاسكندر على الوثوب الى الشرق ، واخضاع قسم كبير منه لارادته وارادة قواده من بعده ، حتى جاء الرومان فاستقروا في القسطنطينية وبسطوا سيادتهم على بلاد الشرق الادنى وشمالي افريقيا ، واستمروا يقارعون الفرس حتى ظهر الجيش العربي الاسلامي الفتي ، فقضى على دولة الفرس ، وأنزل بالبيزنطيين ضربة ألزمتهم حدودهم التي ظلت تتراجع حتى سقطت عاصمتهم عام (١٤٥٣) .

كانت الامم المغلوبة أدنى الى منازع الحضارة من المهاجمين العرب الذين تحلوا بدماثة الخلق ، والتسامح الديني ، والاستعداد القوي لتقبل مناهج الحضارة الجديدة ، فلم يلبثوا أن اعتنقوا من تلك الحضارة ما يتمشى مع تعاليم دينهم الحنيف وشرائعهم الاجتماعية ، ولم يلبثوا أن أدركوا أن الجيش العربي المظفر تعوزه القوة البحرية ، وأن الاسطول البيزنطي القوي لايمكن التغلب عليه الا باسطول يفوقه قوة واستعدادا ، وسرعان ما تحقق هذا المشروع على يد معاوية الاول الذي فتح قبرص سنة (٦٦٠ م) وهزم أساطيل الروم في موقعة ذات السواري ، وشرعت القوات البحرية العربية منذ ذلك الحين تصول وتجول وتنتزع الجزر والسواحل .

وعبر الجيش العربي جبل طارق ، وتساقطت مدن الاندلس بين يديه ، حتى دان له هذا البلد الغربي من أقصاه الى أقصاه ، فاجتاز حدوده الى فرنسا ، وتقدمت راياته المظفرة الى الشمال حيث وجدت عوامل خاصة سببت انسحابه من بواتييه ، ولكنه ظل في جنوبي فرنسا والاندلس أمدا غير قصير .

وفي خلال ذلك ، كان اسطول العرب يشد أزر جيوشهم ، فنزلت قواتهم في رودوس ، وانتزعت شواطيء البروفانس ثم احتلت صقلية عام (٧٥٣) والباليار (٧٩٨) ، وروع العالم المسيحي عندما تغلبت أساطيل العرب المسلمين على اسطول بيزنطة وأمالفي ، وهاجمت قواتهم (تاراتتو) في الساحل الايطالي بالذات سنة (٨٣٨) ، ثم حطمت الاسطول البندقي والبيزنطي واحتلت باري سنة (٨٤٠) ، وما كاد القرن التاسع ينتصف ، حتى وقف العرب على أبواب روما يقرعونها بعنف ويهددون كنيسة القديس بطرس بالذات .

ثم دارت عجلة التاريخ ، وزحفت حشود الصليبيين الى الشرق (١٠٩٧) بفلاحيهم ومغامريهم وملوكهم وأمرائهم ، فاحتلوا بيت المقدس والطريق المؤدية اليه ، وبدأ ذلك الصراع الدموي مع أمم الشرق الذي لم ينته الا سنة (١٢٩١) عندما سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق ، وقضى الله أمرا كان مفعولا .

الا أن نتائج هذا الصراع كانت جد هامة ، فقد انتهت سيطرة العرب المسلمين على البحار ، وانتقلت قبسات من الحضارة الشرقية الى الغرب لتزداد اشتعالا ، حتى تغمر بنورها العالم الحديث بأسره فيما بعد ، وتمكن الغرب من التحكم في مصائر الشرقيين ، أساتذته القدماء .

وقد تبودلت السلع والبضائع بين الشرق والغرب في تلك الفترة وما

بعدها على نطاق واسع ، ولعل المدن الايطالية سبقت غيرها الى ذلك رغم احتجاجات بيزنطة وتهديدات البابا ، فنشطت عمليات تبادل السلع ونقلها ، وأنشأ بعض تجارها في كليكيا سوقا واسعة كان التجار يؤمونها من الشام وآسيا الصغرى ، فلما قضى عليها الناصر بن قلاوون سنة (١٣٤٧) ، لجأ الاوربيون الى الاسواق المتنقلة حيث كانوا يحلون في احدى النقاط على السواحل السورية ببضائعهم ومتاجرهم ، فيتمون فيها عمليات المبادلةوصفقات البيع والشراء ، ثم يغادرونها الى بقعة أخرى حيث يقومون بتجارتهم على النسق الاول ، في حرز من السلطات الاسلامية التي كانت تقاوم تغلغلهم بشكل علني .

ثم أدركت هذه السلطات الاسلامية نفسها مقدار الخير الذي تعود به عليهم تجارة هؤلاء الاوربيين ، فوضعوا على بضائعهم الرسوم والمكوس ، وشجعوا رواجها ومروجيها في ثغور الشام ، حتى أصبحت لهم مصدر ثروة طالما اعتمدوا عليها في معاشهم ومشاريعهم الحيوية .

وراجت في أوربا الشائعات عن غنى الشرق وثروة الشرق ، وطفق الاوربيون ينظرون بعين الحسد الى ذلك الترف والرفاه الذين تنعم بهما البندقية ، وكان فن الملاحة قد ارتقى ، وامكانيات الغربيين قد عظمت ، فابتدأت المحاولات لايجاد طريق مباشر بين أوربا والهند ، منبع الثروات . ووصل فاسكو دوغاما بالفعل الى كلكوتا سنة (١٤٩٨) بمعونة الملاح العربي (ابن ماجد) ثم عاد يروي القصة التي هزت الغرب وطوحت باقتصاديات الشرق والبندقية على السواء .

أما البندقية ، فقد راعها الخطر ، وعملت على تلافيه بشتى الوسائل

الحربية والسلمية ، فجهزت للمصريين ما يلزمهم لصنع أسطول كبير أباده البرتغاليون عنـدما حاول اعتراض طريقهم عام (١٥٠٩) وحاصروا البحر الاحمر والخليج الفارسي • وأما المماليك فقد خسروا الموارد التي كانت تأتيهم عن طريق المكوس والضرائب المفروضة على البضائع المنقولة عبر بلادهم ، عدا الخسائر التي لحقت بكثير من التجار والسماسرة والصناع وأصحاب الفنادق نتيجة لتحول الطريق ورحيل الاجانب ، فبدأت مياه البحر المتوسط بالركود بعد أن كانت تزخر بالسفن الذاهبة الآيبـة ، وأصبح أهل الشام يعيشون على مواردهم الخاصة بعد أن قل اتصالهم بالعالم الخارجي ، لان الاوربيين شغلوا باكتشاف الاراضي وامتلاكها عن البحر المتوسط وذكرياته التي لم تكن تروق لهم •

• • •

وفي غمرة هذه الاحداث التي ألمت ببلاد الشرق العربي ، ظهر العثمانيون على مسرح التاريخ ، فورثوا الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، ودولة المماليك في مصر والشام ، ووقفوا وجها لوجه أمام دول العالم الغربي التي عاملتهم حسب موقعها الجغرافي ، وتشابك مصالحها مع الدولة العثمانيـة المتسعة الارجاء •

تقسم علاقات العثمانيين مع أوربا الى دورين : أولهما دور القوة والاتساع على حساب الغرب ، والثاني دور الضغط الاوربي على الامبراطورية العثمانية وفيه تظهر المسألة الشرقية ، وتتميز فيه مرحلتان ، دامت أولاهما من القرن السابع عشر حتى حملة نابليون ، وتميزت بالضغط على الدولة في البلقان مقتصرة على الامور التجارية في الشرق العربي ، أما المرحلة الثانية فقد دامت من الحملة الفرنسية حتى الحرب العالمية الاولى ، وفيها انتقل الضغط الاوربي

الى الشرق العربي ، واستيقظت القوميات في الشعوب الخاضعة للحكم العثماني .

والواقع .. أن الدولة العثمانية نزلت الى البر الاوربي قبل أن يتم تكوينها الآسيوي ، وشرعت بالاستيلاء على أجزاء من جنوبي شرقي أوربا طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ورغم أن الدولة العثمانية بدأت في التقهقر في القرن السابع عشر ، الا أنها كانت لاتزال دولة لها قوتها ، لدرجة أنها تستطيع الوصول في النصف الثاني منه الى فيينا وتحاصرها سنة (١٦٨٠) ، ممايدل على أن القوة العثمانية لم تكن آنئذ قد ضعفت بالشكل الذي بدا عليها فيما بعد ، ويمكن القول بأن الدولة العثمانية في القرن السادس عشر كانت راجحة القوة حتى آخر حكم سليمان القانوني ، وأنها كانت عاملا فعالا من عوامل السياسة الاوربية .

وقد احتك العثمانيون في دور القوة هذا بالدولة الرومانية الشرقية ، وتوسعوا على حسابها حتى هدموها نهائيا باستيلائهم على عاصمتها ، واستولوا على اليونان وبلغاريا والصرب ورومانيا وجزء كبير من المجر ، واشتبكوا مع بولونيا في قتال سرعان ماخرجت منه نتيجة لاضمحلالها الذي انتهى باقتسامها بين جاراتها الروسيا والنمسا وبروسيا حتى اختفت بولونيا من خريطة أوربا ولم تبعث الا في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

أما دولة الهابسبورغ فهي أول دولة اشتبكت مع العثمانيين في قتال عنيف منذ القرن السادس عشر ، وكانت بحكم موقعها الجغرافي هي التي تلقت ضربات العثمانيين بعد أن أتموا الاستيلاء على البلقان ، وذلك في بلاد المجر التي كانت الميدان الرئيسي للصراع بين الدولتين حقبة طويلة من الزمان .

وأما الروسيا فقد بدأت علاقاتها بالدولة العثمانية منذ أيام محمد الثاني ، لان هذا حاصر القسطنطينية واستولى عليها ، وقتل أثناء الحصار آخر الاباطرة البيزنطيين قسطنطين دراغاميس الذي لم يكن له من خليفة الا ابنة أخيه (صوفيا باليولوغ) وهذه تزوجت ايفان الثالث قيصر روسيا سنة (١٤٧٢) ، مما دعا القيصر الى اعلان نفسه خليفة امبراطور القسطنطينية وحامي الرعايا الارتذوكس في الشرق ، الامر الذي كانت له أهميته الكبرى في المسألة الشرقية فيما بعد ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد استولى محمد الثاني على اقليم القرم حيث تسكن أقوام من التتار كانت لها علاقات مع روسيا ، الا أن العلاقات الروسية العثمانية لم تتخذ طابعها العدائي السافر الا منذ أيام بطرس الاكبر .

وهناك دول أخرى تبادلت العلاقات مع الدولة العثمانية في هذا الدور الاول ، تذكر منها أولا البندقية (١) ، لان الاتساع العثماني في قسم من البحر المتوسط تم على حساب البنادقة أولا ، ولان العثمانيين أصبحوا بعد اتساعهم في البلقان مجاورين لاملاك البندقية على الساحل الدالماسي ، ولكن البندقية لم تلبث أن فقدت أملاكها البحرية وأهميتها التجارية بعد تحول الطريق عن المتوسط ، ثم ورثت النمسا أملاكها في ايطاليا وعلى الساحل الدالماسي . وتذكر من هذه الدول ثانيا البرتغال التي اشتبكت مع العثمانيين في البحر

---

(١) أهم المراجع عن علاقات البندقية بالشرق العربي في هذا الدور وثائق مجلس الشيوخ بالبندقية :

أ ـ الاسكندرية : من سنة ١٥٥٥ ـ ١٥٦٩ . المجموعة رقم (١)

ب ـ القاهرة والاسكندرية : ١٦١٣ ـ ١٦٧٧ . المجموعة رقم (٢)

جـ ـ حلب : من سنة ١٦١٣ ـ ١٦٢١
١٦٢٦ ـ ١٦٤٨ المجموعة رقم (٦)
١٦٧١ ـ ١٦٧٨

الاحمر ابان رحلات رعاياها الى الهند والشرق الاقصى ، حتى دالت دولتها، وضمتها اسبانيا الى باقي شبه الجزيرة الايبرية عام (١٥٨٠) .

. . .

أما الدور الثاني فهو دور الضغط الاوربي على الدولة العثمانية ، ويستمر من القرن السابع عشر حتى الحرب العالمية الاولى ، وتميز فيه مرحلتان، الاولى التي دامت حتى غزوة نابليون لمصر والشام ، والثانية تستمر من الغزو الفرنسي حتى الحرب العالمية الاولى .

ويلاحظ في المرحلة الاولى — وسيقتصر البحث عليها في هذا الفصل — أن الضغط الاوربي خلالها كان ضغطا بلقانيا ، بحيث كانت شبه جزيرةالبلقان والسواحل الشمالية للبحر الاسود الميدان الاساسي للنزاع ، بينما انصرف الاعتداء الاوربي على الشرق الى الهند وجنوب شرقي آسيا وأواسطها عند بحر قزوين وبخارى وسمرقند ، أما المرحلة الثانية ، فقد بدأت بضربةبونابرت الى قلب العالم الاسلامي التي وجهت ، برغم فشلها ، أنظار الدول الاوربية الى أهمية هذه المنطقة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يلاحظ أن المسألة البلقانية في الدور الاول لم تتعد الاصطدامات العسكرية بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا وكانت تحل قضاياها المختلفة بمعاهدات تعقدها الدولتان مع السلطان . أما في الدور الثاني فقد بدأ العثمانيون يواجهون القوميات التي انتصرت في النهاية ، فكان القرن التاسع عشر عبارة عن سلسلة ثورات انفصالية قوية تنتج عنها تكوين دول البلقان الحديثة ودول الشرق العربي بعد الحرب العالمية الاولى .

كانت الدولتان المعاديتان للعثمانيين في المرحلة الاولى من هذا الدور اذن

النمسا وروسيا ، أما الاولى فقد بدأت تتخذ دور الهجوم منذ القرن السابع عشر ، يمكنها من ذلك أمران :

١ ــ أن أرشيدوق النمسا ــ وهو في الوقت نفسه امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ــ كان قد قوي مركزه نتيجة لقوته في أملاكه الوراثية .

٢ ــ أن المشكلة الدينية في أوربا حلت حوالي منتصف القرن السابع عشر ، كما انتهت حرب الثلاثين سنة ، مما أتاح للنمسا فرصة التفرغ بعض الشيء لاتخاذ دور الهجوم .

٣ ــ وشجع النمسا على هذا الهجوم ضعف الدولة العثمانية الذي ظهر في أعقاب سليمان القانوني ، الامر الذي أغرى بها الدول المعادية ، وخصوصا المجاورة منها صاحبة الاطماع والتقاليد التاريخية المزعومة .

والامبراطورية النمساوية ، في عدائها الصريح للدولة العثمانية ، كانت تعتبر هذه الدولة مع ذلك ضرورية الوجود ، وكثيرا ما وقفت موقف المدافع عنها ضد روسيا ، لان انهيار امبراطورية العثمانيين يؤدي الى توغل روسيا في البحر الاسود ووصولها الى البلقان مما يقفل على النمسا الطريق الى هذه المناطق ، كما أن روسيا كانت تنادي في تقدمها بأنها راعية الصقالبة الذين كان عدد كبير منهم يخضعون للنمسا ، مما أشعر هذه أن الروسيا كانت تحاول استغلال العاطفة العنصرية لتفصل هؤلاء الرعايا عن الحكم النمسوي ، ولذلك نجد النمسا تقاوم بكل طاقتها التقدم الروسي في البلقان وتساعد العثمانيين ما أمكنها ذلك ، كما فعلت سنة ١٧٦٩ ــ ١٧٧٤ ، ثم بعد ذلك ، في القرن التاسع عشر ، في حرب القرم (١٨٥٦) .

الا أن النمسا كانت تشعر أحيانا باليأس من المحافظة على الدولة العثمانية ،

فتحالف روسيا ضـدها وتأخذ نصيبها من الغنيمة ، كما أن الدول كثيرا ما اختلفت في الميدان الاوربي ثم صفت أمورها على حساب الدولة العثمانية، كما حدث في مسألة بولونيا • وقد تلاحظ ظاهرة أخرى لعلاقات النمسا مع الدولة العثمانية ، وهي انفرادها بمحاربتها غالبا ، وانفرادها بالغنيمة التي تكون في هذه الحالة أكبر وأثمن • وفي سنة (١٧٩٧) استولت النمسا على أراضي البندقية ، وحلت محلها على ساحل الادرياتيك ، مما حفظ لها أهميتها في المسألة الشرقية فيما بعد ، ومكنها من التدخل في أمور العثمانيين على نطاق أوسع •

• • •

أما الروسيا فقد ابتدأت علاقاتها مع الدولة العثمانيـة بتبادل البعثات السياسية بين الدولتين ، دون أن يكون للامر أية نتيجة جوهرية ، ثم أخضع العثمانيون تتار شبه جزيرة القرم لسيادتهم ، ولم يكن لهؤلاء نظام مستتب على الحدود ، فأوجدوا بعض المشاكل التي عولجت في حينها ، حتى تسنم بطرس الاكبر سدة الحكم ، وملأ أخيلة الروس من بعده بالآمال والتقاليد •

تطلع بطرس الى نظام اقتصادي غربي وحضارة غربية ، ورأى أن السبيل الى ذلك هو أن يجعل روسيا (تمد ذراعيها لاوربا) ، أو بعبارة أخرى، أن يجعل لها منافذ على بحري البلطيق والاسود ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال انشاء اسطول حربي وتجاري قوي لحماية الثغور الروسية ولتأمين الاتصال بينها وبين بقية أنحاء أوربا ، هذا بالاضافة الى أحلامه الواسعة بالوصول الى خليج البصرة والمحيط الهندي ، وتحويل تجارة آسيا الوسطى والهنـد الى روسيا •

ثم بدأ عامل آخر يظهر في السياسة الروسية كانت له أهميته العظمى

في المسألة الشرقية ، بدأت الروسيا تشعر بتلك الروابط التي تجمعها بشعوب البلقان ، روابط الجنس والدين ، فنصبت نفسها زعيمة الامم السلافية ، وحامية للديانة الارتذوكسية كوريثة للدولة البيزنطية ، وارتسمت لها بنتيجة كل ذلك في الافق الشرقي أمنية غالية : وضع يدها على القسطنطينية ذات المركز المنيع الممتاز ، التي طالما قال عنها قياصرة الروس (ان روسيا بيت ، والقسطنطينية مفتاحه) .

على هذه الاعتبارات بدأ بطرس الاكبر الضغط على الدولة العثمانية في القرن السابع عشر ، ونرى أول فصوله في حروب القيصر ضد السلطان ، تلك الحروب التي انتهت بصلح (بروث) سنة (١٧١١) الذي كان باجماع المؤرخين والثقات صلحا خاسرا على روسيا ، لانه اضطرها الى رد ثغر آزوف للاتراك ، والى قطع الوعود بعدم تدخلها في شؤون الدولة العثمانية ، وأدخل السلطان متعمدا في هذه المعاهدة نصا بالغاء السفارة الروسية في دولته .

الا أن روسيا استمرت في محاولة تنفيذ سياسة بطرس الاكبر ازاء تركيا خلال القرن الثامن عشر ، فتحالفت سنة (١٧٣٥) مع النمسا التي واقعت الاتراك واضطرت الى الخروج من الحرب بعد انكسار متواصل ، وأسرعت روسيا بعد ذلك الى عقد صلح خاسر مع السلطان الذي برهن لها مرة أخرى على قوته .

ولعل هذه الانتصارات حدت بالعثمانيين المعتزين بنصرهم الى الاحتجاج سنة (١٧٦٨) على مشروعات الروسيا في بولونيا التي كانت عثرة هامة في طريق القياصرة الى البلقان ، وهنا نرى الجيوش الروسية تكتسح الافلاق والبغدان والاسطول الروسي يعبر الى البحر الابيض المتوسط فيمد يديه الى علي بك الكبير في مصر والى ظاهر العمر في الشام ، الامر الذي أجبر

الدولة العثمانية على عقد معاهدة (كوجك كينارجة) سنة ١٧٧٤ وفيها اعترفت باستقلال شبه جزيرة القرم وتخلت عن سيادة كانت تدعيها على قبائل قفقاسيا ، وأعطت لروسيا عدة أماكن على البحر الاسود بالاضافة الى حق الملاحة فيه ، كما تضمنت المعاهدة مبادىء عامة ، استندت اليها روسيا فيمابعد لادعاء حمايتها على معتنقي الارتذوكسية في الشرق .

ثم عظم الخطب عندما اضطر السلطان ، نتيجة لحرب (١٧٨١ — ١٧٨٤) الى الاعتراف بضم القرم الى الروسيا ، التي تحمست لتقاليدها التاريخية ، فأطلقت كاترين على حفيدها اسم (قسطنطين) وقامت بزيارة حافلة للقرم وبعض بلاد البحر الاسود ، فقامت حرب ثانية بينها وبين الاتراك (١٧٨٧—١٧٩١) اشتركت فيها النمسا أيضا ، ورغم هزيمة الدولة العثمانية أمام جيوش الحليفتين، فان الامر لم يكن شديدا عليها ، لان الظروف السياسية في أوربا الغربية تطورت بشكل خطير وجه اليها الانظار في القارة الاوربية بأجمعها ، فقامت ثورة الاراضي المنخفضة على الحكم النمساوي ، واندلع لهيب الثورة الفرنسية ، وكانت النتيجة أن عقد العثمانيون مع الحليفتين معاهدة ياسي عام (١٧٩٢) التي لم يخسروا فيها شيئا يذكر ، ولو أن روسيا وسعت حدودها جنوبا الى نهر الدونتز .

• • •

على أنه لا مناص في هذا الاستعراض السريع لاسس علاقات الشرق بالغرب في فجر العصور الحديثة وضحاها ، من معالجة دور كل من انجلترا وفرنسا في الشرق الادنى في فترة خاصة لما كان لهما من تأثير حاسم في مصير بلاد الشام فيما بعد .

كان الانكليز أمة تجارية وبحرية بحكم موقع بلادهم ، بدأوا بالمساهمة في حركات الكشف والاستعمار الاوربي منذ أوائل العصور الحديثة ، رغم دخولهم الميدان متأخرين بالنسبة لاسبانيا والبرتغال .

وقد اتجهوا الى امريكا الشمالية حيث نزلوا في كندا وكونوا جنوبها ثلاث عشرة مستعمرة كانت نواة جمهورية الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد ، أما في الشرق الادنى فقد بدأوا بتكوين مستعمرات تجارية لهم بالهند اتسعت بالتدريج على حساب مناطق النفوذ البرتغالية والهولاندية والفرنسية والامارات المنغولية الاسلامية .

وكانت شركة الهند الشرقية التي تأسست في أواخر القرن السادس عشر سنة (١٦٠٠) أيام الملكة اليزابت الاولى قطب الرحى في توطيد هذا الاستعمار ، اذ تولت العمل على مسؤوليتها الخاصة بعد صدور المرسوم القاضي بتأليفها ، فأنشأت المحطات الكبرى على الطريق ، وكونت صداقات مع الامراء المحليين بالهند ، وقطعت شوطا بعيدا في طريق بسط النفوذ الانجليزي على هذه البلاد تحميها وتساعدها في ذلك الحكومة البريطانية ، وهكذا انتزعت الامارات الهندية من منافسيها واحدة بعد أخرى حتى خطت أخيرا الخطوة الحاسمة ، فتسلمت الحكم من شركة الهند الشرقية ، وأصبحت الهند قسما من الامبراطورية البريطانية سنة (١٧٦٠) .

هكذا كتب لانكلترا الفوز في الهند ، ثم في غير الهند ، ولكن بقي عليها أن تواجه مهمة صعبة بعد ذلك ، مهمة المحافظة على الامبراطورية ، ولم يكن ذلك كثير الصعوبة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين نحن بصددهما ، لانها استطاعت بانتصاراتها على خصومها من الاسبان والفرنسيين والهولانديين

أن تسود البحار ، ولان شركة الهند الشرقية احتكرت التجارة في هذه الانحاء ، أي أن بريطانيا استطاعت أن تحتكر هذا الجزء من العالم والطرق البرية المؤدية اليه .

كان هناك عامل هام سهل على انكلترا مهمة المحافظة على طرق الامبراطورية تجلى في عدم اتجاه الاستعمار الاوربي آنئذ الى البلاد الواقعة على الطرق البرية المؤدية الى الهند في مصر والشام ، فكان من مصلحة الانجليز اذن أن تبقى الحال هناك على ما كانت عليه ، أي أن تبقى مياه البحرين الاسود والمتوسط راكدة ، لان اضطراب هذه المياه يثير لانكلترا مشاكل هي في غنى عنها (١) .

وطرق الشرق الادنى هذه لم تكن قد جفت تماما ، فعن طريقها كانت تتسرب المتاجر بين الشرق والغرب ، ولكن في نطاق محدود ، سواء عن طريق البحر الاحمر والاراضي المصرية الى الاسكندرية فبلاد الغرب ، أو عن طريق الخليج الفارسي ثم موانىء الشام حيث كانت تنتظرها السفن لنقلها الى الشواطيء الاوربية ، وكان هناك عدد من الاجانب يقيمون على محطات تجارية هامة على هذه الطرق من البنادقة والجنويين والفرنسيين ، بل ان هؤلاء سعوا ، عندما أفلسوا في الطرق البحرية ، الى احياء هذه الطرق البرية

---

(١) اهم مصدر لسياسة بريطانيا في الشرق الادنى هو وثائق وزارة الخارجية البريطانية ، ووزارة المستعمرات ، ورقم الوحدة الوثائقية الخاصة بهذه المنطقة في وزارة الخارجية هو (٧٨) :

A — Foreign Office - Turkey, 1799 - 1802 : Folio 78. Reg : 24, 30 - 33, 35 - 36, 38 .

B — Colonial Office : (1798 - 1801) : Folio 77, Reg : 54, 57.

للتغلب على المنافسة البريطانية القوية ، ولكن العقبات تضافرت لاحباط هذه المحاولات بشكل كلي •

تجلت هذه العقبات أولا في أن العدد الاكبر من الاوربيين كان يفضل طريق رأس الرجاء الصالح المباشر اختصارا للنفقات ، وتجلت ثانيا في أن أحوال الشرق العربي لم تكن تشجع الاوربيين على التعامل معه ، واستخدامه كطريق هامة من الطرق التجارية بسبب تنازع أمراء المماليك في مصر والعصبيات المسلحة والمشاحنات المستديمة في الشام ، بالاضافة الى فقر هذه البلاد آنئذ ، وبالتالي ضعف قوتها الشرائية والاكتفاء بالانتاج المحلي ، عدا اعتداء بعض الشيوخ والامراء أنفسهم على الرعايا الاجانب والسفن التجارية ، كما فعل يوسف باشا سيفا سنة ١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٣م ، وتجلت هذه العقبات بوضوح ثالثا وأخيرا في أن الدولة العثمانية لم تكن تشجع على قيام نشاط تجاري أوربي واسع عبر هذه الجهات ، متمثلة بما حدث للهند حين نزل بها الانكليز تجارا ثم تحولوا الى مستعمرين وحكام ، فكانت توعز الى ولاتها في جدة ومصر والشام وبغداد بعرقلة الحركة في البحار الاقليمية لهذه الولايات ، ونعم السلطان ببعض الراحة من الناحية الدولية في هذه الحال من السكون التي شملت منطقة نفوذه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، موافقا في وجهة نظره هذه لرغبات الانكليز ومصالحهم •

على أن انكلترا لم تنصرف قط عن مراقبة البحر المتوسط بحذر ، فما كادت فرنسا تحصل على امتيازات خاصة لرعاياها سنة (١٥٣٥) ثم في (١٥٤٣) و (١٥٥٤) حتى سارع الانكليز الى الحصول على امتيازات تشابهها في سنة ١٥٨٠(١) ثم اغتنموا فرصة فتور العلاقات بين الباب العالي

(1) C. Read : Mr. Secretary Walsingham and the policy of Queen Elizabeth, vol (3). P. 225 - 230.

ولويس الرابع عشر فوطدوا نفوذهم في الشرق ووسعوا نطاقه ، بل لقد أرسلوا (تيلور) في (١٧٨٩) للبحث عن طريق للهند عبر أراضي الشام، فسار بحذاء الفرات من حلب الى البصرة ، وقرر بعد وصوله الى بغالة، في مراسلاته الرسمية الى حكومته ، أفضلية طريق البحر الاحمر ، وأوصاها باحتلال جزيرة كريت أو قبرص لتأمين الاتصال السليم .

ولعل أهم ما يذكر من محاولات انكلترا آنئذ في الشرق العربي ، تأسيس الملكة اليزابت الاولى لشركة الشرق الادنى الانكليزية (١) سنة (١٥٨١)، وكانت الفكرة المسيطرة على أذهان التجار آنئذ أن مسائل التجارة ينبغي أن توكل الى أفراد يمارسونها أحرارا دون الخضوع لقيود وأنظمة خاصة ، بل يجب تنظيمها من قبل شركات أهلية تستند الى تأييد الحكومة دبلوماسيا وعسكريا ، وقد تبنت ذلك انكلترا وطبقته بشكل فعال .

دعمت بريطانيا شركة الشرق الادنى آنفة الذكر لعدة أسباب :

أولا : حرصها على سلامة رعاياها ورؤوس أموالها في بلاد غريبة عن النفوذ البريطاني .

ثانيا : لانها وجدت أن ترك تجارة الشرق الادنى بأيدي الافراد لا يأتي بالثمرة المطلوبة لانهم ضعفاء بمفردهم لا يستطيعون النهوض بعبء تجارة حرة وسط هذه الفوضى وتلك المشاحنات المستمرة .

---

(١) وضع أول ميثاق لشركة الشرق الادنى الانكليزية في (١١ ايلول - سبتمبر ١٥٨١) . انظر التفاصيل في :

Richard Hakluyt : The principle navigations, voyages, traffiques and discoveries of the English Nation (Glascow 1904). Vol 5. P. 192 - 202.

ثالثا وأخيرا: لانها أدركت أن هذه الشركة كغيرها من الشركات توفرعليها مجهودات كثيرة ، ومن أموال شركة الشرق الادنى كانت تدفع مرتبات قناصل الانكليز فيــه ، ومرتب السفير الانكليزي في استامبول باعتبارهم جميعا يخدمون أغراض التجارة بشكل مجد مفيد. وهكذا اشتدت مزاحمة الانكليز لفرنسا في حلب وطرابلس الشام بشكل خاص ، واتسع نشاطها على شواطيء المتوسط العربية بشكل عام .

ولعل من طريف ما يذكر بهذه المناسبة أن الملكة اليزابت الاولى حاولت ايجاد علاقات سياسية مع الدولة العثمانية عن طريق أول سفير لها في بلاد السلطان ، أيام كانت بريطانيا مشتبكة في حرب مريرة مع اسبانيا ، وكانت الدولة العثمانية قوية ذات نفوذ ، فكتبت تقنع العاهل العثماني بأن الانكليز بروتستانت وان الاسبان كاثوليك ، وحاولت أن توضح له أن البروتستانت أقرب المذاهب المسيحية الى الاسلام ، بل انهم مسلمون ، متوخية من ذلك طلب مساعدته ضد اسبانيا تحت تأثير هذا العامل الديني ، الا أن السلطان لم يزد على أن رد بلطف متظاهرا بتصديق أقاويل الملكة وبراهينها ، دون أن يتعدى ذلك الى أي عمل ايجابي .

• • •

أمافرنسا فلقصتها مع الشام جذور وأصول يحسن استعراضها بايجاز(١).

---

(١) أول المصادر عن السياسة في هــذه المنطقة وثائق وزارة الخارجيــة الفرنسية :

1 — Alep (1630 - 1792) : Reg. 76 - 79.
2 — Alexandrette (1696 - 1778) : Reg. 98 - 99.
3 — Jerusalem (1699 - 1707) : Reg. 628.
4 — Saint Jean d'Acre (1721 - 1791) : Reg. 978 - 981.
5 — Seyde (Saïda) 1645 - 1790 : Reg. 1017 - 1041.
6 — Tripoli (Syrie) 1667 - 1791 : Reg. 1114 - 1124.

تكمن الفكرة الاساسية لاتجاه الفرنسيين نحو بلاد الشام في وجود قبر المسيح المقدس ومسقط رأسه فيها ، مما وجـه اليها الانظار أيام عصفت بأوربا في القرن الخامس بعد الميلاد موجات من البرابرة الوثنيين ، فغمرتها بالخرائب وأشاعت بين أرجائهـا الفوضى ، وعاملت سكان فرنسا القدماء بقسوة وجفاء ، فاتجهت أنظار هؤلاء الى الشام حيث ظفرت المسيحية في ظل الدولة البيزنطية القوية ونعمت بحمايتها ضد وثنيي الفرس المجاورين ، وجالت بمخيلاتهم صور الكنائس الموشاة والاديرة المزخرفة المحلاة ، فعزموا على زيارة هذا الشرق الامين ، مهد المسيحية الاول ، وقبلتها في ذلك الحين .

ومع بدء الحج الى بيت المقدس ، بدأت الشام تستقبل عددا كبيرا من السائحين والزائرين الذين لم يكتفوا بزيارة قبر المسيح ومسقط رأسه ، بل اغتنموا فرصة وصولهم الى هذه الديار فزاروها بوسائط النقل البطيئة آنئذ التي مكنتهم من التعرف على الشام بشكل كامل ، ثم عـادوا الى بلادهم يقصون مشاهداتهم ، ويضعون في أذهان الناس النواة التي أثمرت فيما بعد ، على مر الزمان وكثرة التكرار .

ثم جاء الفتح العربي ، واستقر الامويون في دمشق ، وشغلت فرنسا آنئذ بدفع الخطر العربي الذي تهددها برا وبحرا فلم يتطور وضـع الفرنسيين (الغوليين) ازاء الشام ، حتى انهارت تلك الدولة العربية الصرفة ، وانتقلت العاصمة من الشام الى بغداد ، واستقلت الاندلس متحدية خليفـة الشرق وامبراطورية الغرب ، فوجدت أسباب التغيير ومقوماته .

كانت الدولة البيزنطية حتى ذلك الحين هي حامية المسيحيين في الشرق ، الا ان العداء المستفحل الدائم بينها وبين الدولة العربية القوية منعها من المطالبة

بأي شيء يتعلق بمسيحيي الشرق ، وكانت المراسلات مع القسطنطينية تراقب مراقبة دقيقة وتعد أحيانا خيانة لاسبيل الى العفو عنها مهما كانت الظروف ، فاذا أضفنا الى ذلك السياسة الحمقاء التي اتبعتها الامبراطورية المسيحية الشرقية ازاء المذاهب الدينية في القدس وانطاكية والاسكندرية وخصوصا في قضية (القديس يوحنا) علمنا لماذا تحولت أنظار نصارى الشام عنها ، لتتجه الى امبراطور الكارولنجيين الفرنجة ، الامر الذي كان من أسباب التقارب بين امبراطوريتي الشرق والغرب .

تكاد أسرار هـذا التقارب بين هارون الرشيد وشارلمان تكون مجهولة بشكل تام ، لان أكثر المؤرخين من العرب أغفلوا ذكره ، كما أن المصادر الغربية لم تتحدث عنه الا بشكل غامض تشوبه النعرة الدينية ، ويؤخذ مما ذكرته بعض المصادر الحديثة (المعتدلة بعض الشيء) أن بطريرك بيت المقدس أوفد بعثة الى شارلمان سلمته مفاتيح كنيسة القيامة وقبر المسيح المقدس (١) وطلبت حمايته بالحاح ، وهذا هو الاساس الاول الذي يبرر به الفرنسيون تدخلهم في بلاد الشام ، ويدعون لانفسهم بموجبه (حقا تاريخيا) (٢) فيها ، بل يذهب البعض الى القول بأن الخليفة العباسي هو الذي أرسل الى شارلمان مفاتيح الاماكن المقدسة .

والظاهر .. أن هارون الرشيد رأى مصادقة الغربيين نظرا لعداوتهم

---

(1) Einar Joranson : American Historical Review. Vol. XXXII (1927). P. 241 - 261.

H. Lammens : La Syrie, précis historique. T. I. P. 202.

A. Kleinclautz : Syria vol. VII. (1926). P. 211 - 233.

(2) E. Drianlt : Question d'Orient. P. 14.

لدولة الامويين في الاندلس ، ولدولة البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وكلتاهما عدوة للامبراطورية العباسية في الشرق ، فنجح ديبلوماسيو الطرفين في توطيد العلاقات بينهما ، واستطاع شارلمان أن يحصل على الاذن ببناء الكنائس والاديرة في فلسطين وتأمين الموارد لها ، وارسال اعانات لمسيحييها من أموال ضريبة خاصة كانت تجبى باسم الارض المقدسة ، الا أنه يلاحظ في تسامح الرشيد هذا أن الامر لم يأخذ بشكل من الاشكال طابع الحماية أو أي نوع من تبعية مسيحيي فلسطين أو الشام للغرب ، أو لفرنسا بشكل خاص ، لان الامبراطورية الاسلامية كانت آنذاك في أوج مجدها ، كما ان شارلمان كان أعجز من أن يطلب هذه الحماية أو يستطيع تحقيقها ، خصوصا بعد أن هزمته جيوش المسلمين في الاندلس . كما يلاحظ من جهة ثانية ، أن هذا التقارب تم برضاء الرشيد من البداية الى النهاية ، اذ ليس من المعقول أن يغفل المسلمون عما كان يجري في فلسطين تمهيدا للاتصال بالغرب ، كما ان المسيحيين هناك لم يكونوا ليفكروا في مثل هذا الاتصال الذي يعرضهم لنقمة السلطات الاسلامية وعقابها اذا ما تم في الخفاء ودون ترخيص منها ، وأغلب الظن أن مثل هذه الاخبار وصلت الى بغداد في حينها ، ورأى الخليفة أن يتغاضى عنها انتصارا للنتائج التي كان يقدرها حق التقدير ، الا أنه يستبعد تماما أن يكون الرشيد قد أرسل مفاتيح الاماكن المقدسة ، والوثائق التاريخية التي تثبت ذلك هي على كل حال في طي الكتمان (١) .

ثم وقعت الحروب الصليبية ، فكان لفرنسا فيها مركز الصدارة ، وكان فرسانها وجنودها نواة الجيش الذي دخل بيت المقدس ، والامارات اللاتينية التي عاشت في الشام حقبة من الزمن ، وفيها بذل الفرنسيون الارواح والدماء

---

(١) لم نعثر في اي قسم من اقسام الوثائق الفرنسية (الوثائق القومية ، وثائق وزارة الخارجية ، وثائق البحرية ، الوثائق الدينية والكنسية الخ ...) على اية اشارة تؤيد ارسال هارون الرشيد مفاتيح بيت المقدس الى شارلمان .

مع باقي الغزاة ، فعدت فرنسا ذلك فيما بعد ثاني الاصول السياسية لحقها التاريخي في الشام وتقاليدها الموروثة ، وهو حق متهافت وتقليد باطل من هذه الوجهة أيضا ، لان القانون والعرف الدوليين لايعطيان لدولة ما أي نوع من الحق بنتيجة الاحتلال ، مادام القتال مستمرا ومقاومة الاحتلال ناشطة والاستعداد لطرد الغزاة قائما ولو في مناطق لم يتم احتلالها بعد (١) ، والمعروف أن الجيوش التي قدمت في الحروب الصليبية الى الشام لم تنقطع قط عن القتال أو بناء الحصون ، أو اتخاذ مختلف التدابير لدرء الهجمات الاسلامية التي اتخذت شكل القتال المنظم ، والغارات المفاجئة ، ومختلف أنواع المقاومة التي كانت بين مد وجزر . كما أن القانون الدولي أقر عودة السيادة الى البلاد صاحبة الحق عند انتهاء أي نوع من الاحتلال وازالة جميع النتائج المترتبة عليه دون بقاء أي حق مشروع للسلطات المحتلة في تلك البلاد (٢) ، وقد انتهى احتلال الصليبيين بما فيهم الفرنسيين للشام ، بأن طردتهم الجيوش الاسلامية مكتسبة (حق استعادة الفتح) في سورية من هذه الناحية القانونية الاخرى ، ولو كانت الحجة الفرنسية صالحة ، لحق للعرب أنفسهم الادعاء بحق تاريخي في جنوبي فرنسا نفسها حيث مكثت الجيوش العربية مدة طويلة بعد تراجعها عن بواتييه .

والواقع .. أن احتكاك الشرق بالفرنسيين بشكل خاص كان له أثره في ابقاء شيء من مكانة فرنسا فيه ، وسيعمد محمد علي فيما بعد ـ تحت ضغط

---

(١) قرار المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ ، الصادر في (١ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٤٦) .
المجلة الاميركية للقانون الدولي : عدد ٤١ (١٩٤٧) ص ١٧١ .

(٢) قرار محكمة العدل الدولية الدائمة في قضية (شورزوف Chorzow) لاهاي . آ ـ ١٧ . ص (٤٧) .

ظروف سياسية خاصة ، الى طلب المهندسين والضباط والخبراء من فرنسا ، وساعدت هذه من ناحيتها على دعم مكانتها في الشرق ، فأرسلت البعثات التبشيرية ، وسمحت للرهبان بالتدريس فيه ، بينما كانت تحظر عليهم ذلك في بلادها لاسباب متعددة ، وكانت قد تعاقدت مع سلاطين آل عثمان وتقربت اليهم منذ عهد سليمان الاول .

وهذا التقارب بين فرانسوا الاول وسليمان القانوني بدأ سنة (١٥٣٥) ، وحصل الاول بنتيجته على أول امتياز فرنسي في الدولة العثمانية ، كان الحجة الثالثة في ادعاءات الفرنسيين في سوريا(١) ، وتبعت ذلك اتفاقيات أخرى وقعت سنة (١٥٦٩) و (١٥٨١) و (١٦٠٤) (٢) وطدت الامتياز الاول وزادت فيه ، وأعطى كل ذلك للفرنسيين التفوق في تجارة الشرق الادنى ، حتى أن الانكليز عندما حصلوا من الدولة على امتيازات تشابه امتيازات الفرنسيين في الشرق العربي سنة (١٥٥٣) كان عليهم أن يرفعوا العلم الفرنسي على سفنهم عند دخولهم المياه الشرقية (٣) ، وقد سارع التجار الفرنسيون الى الاقامة في حلب والاسكندرون وطرابلس الشام وحيفا وغيرها للاستفادة من عقود ملوكهم مع السلطان .

أما الدافع لاتفاق سليمان وفرنسوا فسياسي بحت طرح جانبا أسطورة الحماية الدينية والصالح المسيحي ، لان فرنسا كانت آنذاك في عداء مستحكم

---

(1) Comte de Saint - Priest : Mémoires sur l'ambassade de France en Turquie. P. : 179 - 268, 345 - 537.

(2) Gabriel Noradounghian : Recueil d'actes internationaux de l'Empire Ottoman. Paris 1897. 4 Vols.

(3) E. D. Morgan and C. H. Coote : Early voyages and travels to Russia and Persia by Antony Jenkinson and other Englishmen (London 1886). Vol. 1 P. 5 - 6.

مع آل هابسبورغ في النمسا ، وكان سليمان القانوني يقارع النمسا على حدوده البلقانية ، فوحد العدو المشترك بين الطرفين رغم الصيحات التي ارتفعت في أوربا تعيب على فرنسا أن تحالف دولة اسلامية ضد دولة مسيحية كاثوليكية ، وهي التي أطلق عليها بعض المؤرخين لقب الابنة البكر للكنيسة ودعوا ملكها بالمغرق بالمسيحية •

ولا شك أن آل هابسبورغ اضطروا الى توزيع مجهوداتهم بين الشرق والغرب ، ولكننا لانجد خطة عسكرية موحدة يتفق عليها الطرفان ، بل حمل الاتفاق بين طياته مصالح تجارية ، وامتيازات خاصة ، ومنها نشأ بعد ذلك ما سمي بالامتيازات الاجنبية التي تعدت الحدود في القرن التاسع عشر ، حتى أدت الى استعلاء اجنبي على المصالح الوطنية •

على أنه يلاحظ في هذه الامتيازات ما يلي :

١ — أن معاهدات الامتيازات الاولية كانت لا تقيد سوى السلطان الذي عقدها ، ومرد هذه الفكرة الى أن السلطان يمثل رأس الدولة ، ويتحمل المسؤوليات الناجمة عن كافة تصرفاته في السياسة الخارجية ، لذلك يجب عند تولي سلطان آخر ، تجديد أو رفض اتفاقيات سلفه ، وقد سار الفرنسيون على سياسة التجديد ، حتى سنة (١٧٤٠) عندما جدد السلطان محمود الاول الامتيازات الفرنسية بشكل دائم ، بعد أن قام السفير الفرنسي المركيز فيلنوف بوساطته المثمرة لصالح الدولة العثمانية في مؤتمر بلغراد سنة (١٧٣٩) (١) الذي بحث مشاكل الحدود بين العثمانيين والروس ، ومنعت

(1) Gabriel Noradounghian : Recueil d'actes internationaux de l'Empire Ottoman. Vol. 1. P. 258 - 265.

الروسيا نتيجة لمعاهدة بلغراد من المتاجرة في البحر الاسود الا بواسطة السفن العثمانية ، وذلك بضمان فرنسا وتأييدها .

٢ — ان هذه المعاهدات لم تعط للاجانب تلك الحقوق التي أصبحت لهم في القرن التاسع عشر وما بعده حتى الغائها ، فقد وضعت لمجرد تأمين الرعايا الفرنسيين أولا ثم الرعايا الاوربيين الآخرين الذين حذت دولهم حذو فرنسا في التعاقد مع الدولة العثمانيـــة تأمينا لهؤلاء الرعايا على أرواحهم وأموالهم ، بحيث كان تنازع أجنبيين يوكل أمر الفصل فيه الى القناصل أصحاب العلاقة ، أما تنازع أجنبي مع أحد المواطنين فان المحاكم الوطنية هي التي تبت في أمره .

وحتى هذه الامتيازات المحلية كانت السلطات الوطنية كثيرا ما تهملها ولا تأبه لها ، وفي تاريخ البكوات المماليك في مصر كثير من أمثلة تعدي هؤلاء البكوات على التجار الاجانب ، تتجلى في أخذ القروض منهم دون وفائها في الاعم الاغلب ، وفي مظاهر أخرى لدرجة أن كثيرا من هؤلاء التجار رفعوا أصواتهم بالشكوى الى حكوماتهم ، حتى اضطر بعضهم الى الانسحاب الى أحد المرافيء حيث انتقلوا الى مواطنهم الاصلية ، بل ان بعض القناصل الفرنسيين جلدوا بالسياط حتى اضطروا الى الهرب الى فرنسا .

على أي حال فقد استمر التحالف بين فرنسا وتركيا في أكثر العهود ، ومع الملاحظة بأن هذا التحالف كان يقوى أحيانا ، ويضعف أحيانا أخرى ، وقد يتحول الى عداء كما حدث أيام لويس الرابع عشر الذي أرسل جيشا لمساعدة النمسويين في معركة سان غوتار ، ولكن الصفة الغالبة على العلاقات كانت صفة التحالف . وقد أدت فرنسا خدمات جلى للعثمانيين نتيجة لذلك في سنة (١٥٣٩) ، حين نشط السفير الفرنسي فيلنوف لمعارضة السياسة

النمسوية الروسية كما سبقت الاشارة اليه ، ونجح في انقاذ تركيا من أزمة حرب خاسرة مع دولتين قويتين ، كما كانت الحكومة الفرنسية تقدم للدولة العثمانية ضباطا لمدفعيتها وبحريتها ومهندسين وفنيين في حركة الاصلاح الذي كانت الحكومة العثمانية تحاول القيام به من وقت لآخر .

والى جانب تيار التحالف هـذا ، كان ينمو تيار آخر يدعو الى نبـذ التحالف ، اعتقد أصحابه أن موقف الدولة العثمانية يدعو الى اليأس ، ولا أمل في انقاذها من الانهيار ، فعلى فرنسا أن تنضم الى أعداء العثمانيين لتأخذ نصيبها من ممتلكاتهم ، وقد أخذ هذا التيار يشتد شيئا فشيئا حتى كان من نتائجه حملة بونابرت للاستيلاء على مصر ثم سورية سنة (١٧٩٨) ، فلما فشلت هذه المحاولة بدأت فرنسا تصادق الدولة العثمانية وتعمل في الوقت نفسه للاتفاق مع الدول الاوربيـة الاخرى للاتفاق على اقتطاع ما تستطيع اقتطاعه من أملاك (الرجل المريض) .

ولقد سعت فرنسا الى توثيق علاقاتها التجارية مع بلاد الشرق العربي ، وخصوصا في مصر وسورية ، بل يمكن من هذه الناحيـة القول ان فرنسا استطاعت أن ترث في هذا الميدان المركز الذي كان يتمتع به رعايا الجمهوريات الايطالية ، ولا سيما البندقية وجنوة وتوسكانا ، فاستطاعت أن تقيم لهـا جاليات في المدن التي تعد محطات تجارية على الطرق البرية والبحرية كدمياط والقاهرة والسويس وبيروت وطرابلس واللاذقية وانطاكية ، وأهمها جميعا الاسكندرية وحلب .

كانت الاسكندرية أكثر أمنا لحياة الاجانب من القاهرة المشحونة بفتن المماليك ومنازعاتهم ، أما حلب فكانت محطة تجارية من الدرجة الاولى منذ

العصور الوسطى ، وأسواقها مليئة دائما بمنتجات الشرق والغرب ، فهي تشبه الاسكندرية أو القاهرة من حيث وقوعها على الطريق الاساسية الى الهند ، أي طريق الخليج العربي ثم الشام فالبحر المتوسط .

وقد استطاع الفرنسيون هنا أيضا أن يرثوا المركز السياسي الذي كان يتمتع به الايطاليون ، بل تفوقوا عليهم بكمية البضائع والنقود ، وسعوا بعد تشكيل شركة المشرق البريطانية وشركة الهند الشرقية الى تأليف شركة مماثلة ، فأسس كولبر سنة (١٦٦٤) الشركة الفرنسية الشرقية الهندية ، وأراد تحويل الطرق التجارية الى البحر المتوسط لانتزاع احتكارها من انكلترا ، فطلب من الباب العالي السماح بفتح ميناء السويس للتجارة الا أنه لم يوفق الى ذلك .

أما الرعايا الفرنسيون من تجار وقناصل ووكلاء ، فقد أخضعتهم الحكومات الفرنسية لغرفة التجارة في مرسيليا ، بعد أن اقتنعت بأن فكرة التجارة في هذه البلاد التابعة للدولة العثمانية يجب ألا تترك للنشاط الفردي غير المقيد ، وانما يجب أن تشرف عليها هيئة رسمية ، لاسباب أهمها أن هذه المؤسسة تتمتع بالثروة والغنى الذين يستطيعان تأييد الحكومة عند اللزوم ، فضلا عن حمايتها للتجارة في بلاد كان الاوربيون يعتقدون أنها مسرح للفتن والاضطرابات ، ففرنسا من جهة لاتستطيع أن تتخلى عن مركزها التجاري في هذه الانحاء ، وبالتالي لاتستطيع أن تسحب تجارها منها خوفا من أن ترثها دولة أجنبية ثانية ، وكانت تخشى انكلترا بشكل خاص ، كما أنها من جهة ثانية لا تستطيع التفرغ كليا لحماية رعاياها من الظروف المضطربة التي يعانيها الاوربيون في هذه البلاد تحت وطأة الحكم العثماني بسبب مشاكلها القارية وحروب المستعمرات في أمكنة أخرى من العالم ، فكان الحل الوحيد أمامها اخضاع التجارة والمشتغلين بها في الشرق العربي الى غرفة التجارة في مرسيليا .

وعلى ذلك أصبحت هذه الغرفة تضع النظم واللوائح لتنشيط العلاقات التجارية بين فرنسا والشرق العربي ، كما أصبحت تعين القناصل وتمنحهم مرتباتهم ، وتدلي برأيها في اختيار السفير الفرنسي في استامبول ، وقد سنت نظما معينة حتمت على الرعايا الفرنسيين اتباعها ، كعدم اصطحاب الزوج زوجته الى الشرق ، ومنع اقامة الفرنسي فيه أكثر من (١٥) سنة ، ولعلها رغبت في الحيلولة دون تأسيس وتمركز الاسر الفرنسية في هـذه البقعة المضطربة من العالم اجتنابا لمشاكل دولية هي في غنى عنها ؛ الا أن هـذه القيود بدأت في الانحلال بعد ذلك خصوصا في القرن الثامن عشر ومايليه .

. . .

وقد خضع الاوربيون في علاقاتهم مع الشرق العربي لقناصل أو وكلاء لهم أقاموا في هذا الشرق لتيسير المعاملات التجارية لرعايا دولهم وحمايتهم من تعدي السلطات المحلية وفض المنازعات التي تقوم بينهم تحت اشراف سفير دولتهم في استامبول ؛ ولكنهم أضافوا الى هذا الاختصاص التجاري واجبات أخرى سياسية يقومون بها ، فكانوا عيونا لحكوماتهم يطلعونها أولا بأول على أحوال هذه البلاد العربية وعلى مركز الباشوات العثمانيين والامراء المحليين ، ويجتهد كل قنصل في أن يكتسب لدولته نفوذا يفوق نفوذ الدول الاخرى ، ومن هنا حفل تاريخ القناصل في الشرق بهذه الحرب الدبلوماسية التي كثيرا ما استفادت منها السلطات المحلية لابطال تأثير الطرفين المتنازعين .

على أنه يمكن الجزم رغم كل ذلك بأن الحركة التجارية في الشرق الادنى كانت ضئيلة خلال القرنين (١٧ و ١٨) لعوامل متعددة يمكن اجمالها فيمايلي:

١ — فقدان هذه البلاد أهميتها كمركز هام للتبادل التجاري بين الشرق

والغرب ، وذلك على أثر تحول طرق التجارة ، أو طريق التجارة الرئيسي الى رأس الرجاء الصالح ، ولكنها بقيت طريقا لعبور بعض البضائع التي لا تأتي اليها للاستهلاك المحلي بل لتعبر منها الى وجهتها الرئيسية ، وبذلك اقتصر دور هذه البلاد على التجارة العابرة (تجارة الترانزيت) وهي تجارة محدودة لا تحتاج الى عدد كبير من التجار ولا الى تنظيمات واسعة كما كان الحال في العصور الوسطى ، بل انكمش هذا كله واقتصر على عدد صغير ، وكميات ضئيلة .

٢ — ان الشرق العربي بدأ منذ القرن (١٦) يمعن في عزلته بسبب السياسة التي فرضها عليه العثمانيون ، بالاضافة الى العزلة التي أصابته بسبب تحول الطريق التجارية عنه .

٣ — ان تنازع العصبيات المسلحة فيما بينها ، وحروبها ضد الباشوات العثمانيين ، وقيام الفرق العسكرية العثمانية بعضها ضد بعض ، كل هذا أساء دون شك الى الحياة الاقتصادية للبلاد ، وكان عاملا رئيسيا في تضييق وتحديد النطاق التجاري مع الغرب ، وكثيرا ما ترك التجار الاوربيون البلاد الداخلية ولجأوا الى السواحل ليكونوا بعيدين عن تعديات السلطات المحلية، واذا حدثنا التاريخ عن وجود من شجع التجارة وأمن التجار على أرواحهم وأموالهم كالامير فخر الدين المعني الثاني ، فان مثل هؤلاء الرجال كانوا أقلية ضئيلة في خضم الفوضى التي ضربت أطنابها بشكل خاص عندما ضعفت السلطة العثمانية وانتقص من هيبتها .

٤ — ان الدول الاوربية نفسها لم تكن تقدر تمام التقدير الاهمية التجارية لبلاد الشرق الادنى بل كانت تميل الى ترويج بضائعها عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فهو طريق بحري مباشر رغم مشقته ، لا تقوم فيه

عقبات محلية ، خصوصا عندما كانت هذه الدول منصرفة الى ترويج حركاتها الاستعمارية في الكتلتين الرئيسيتين : الكتلة الاميركية بمافيها أمريكا الوسطى وكندا ، والكتلة الشرقية كالهند والشرق الاقصى ، الامر الذي هيأ للدولة العثمانية الجو الصالح لابقاء هذه الكتلة العربية على ركودها وانزوائها من الناحيتين التجارية والسياسية ، فلم توجد عوامل خارجية تستطيع أن توقظها ، ولا تبادل تجاري واسع النطاق يعطيها الخبرة الكافية ، بل وجدت جميع الاسباب التي جعلت هذه البلاد تخضع للعوامل المحلية .

٥ — وزاد في هذه العزلة أن بلاد الشرق لم تكن تنتج المحصولات التي تتطلع اليها الاسواق الاوربية ، ولا شجع العثمانيون على انتاج مثل هذه المحصولات ، فكان القطن مثلا يزرع في مصر وسوريا على نطاق محدود ، وكان قمح كندا وسهول روسيا الجنوبية يغنيان أوربا عن القمح الشرقي ، فضلا عن أن الدولة العثمانية كانت تحرم على هذه البلاد تصدير منتوجاتها الزراعية لغير البلاد العثمانية ، ولو أن أمر التحريم هذا لم يكن يطبق بحذافيره في كل الاحوال .

٦ — وعامل آخر يمكن اضافته في هذا المجال وهو فقدان القوة الشرائية لدى الاهلين ، فان عمليات السلب والنهب المستمرة ، واضطراب الامن ، وجشع موظفي الدولة وعملائها في الحصول على الاموال بشتى الطرق ، أغرق البلاد في حالة من الفقر العام ، ففقد أهلوها القوة الشرائية ، وانحصر همهم في تدبير أمور معاشهم الضرورية ، ومن وجدت لديه الثروة منهم دفنها بين جدران بيته أو تحت أرضه وتظاهر بالفقر لئلا تمتد اليه أيدي الدولة وجنودها الجشعين ، فضعف بالتدريج الشعور بضرورة التبادل التجاري مع

أوربا ، واقتصر الناس على وسائل الحياة التي كانت سائدة في بلادهم ، وهكذا انعزل الشرق ، وانصرف الغرب عنه .

• • •

هذه بايجاز أسس علاقات الشرق بالغرب قبل نابليون ، يلاحظ فيها بشكل عام أن الروح الدينية التي طالما جمعت الغرب ضد الشرق ، والتي تمثلت في الحروب الصليبية ، وفي تدابير الاسبان في الاندلس وحروبهم ضد الاسلام هناك ، وفي قرارات البابا بتحريم التجارة مع المسلمين ، هذه الروح بدأت تضعف في العصور الحديثة ، رغم صعوبة القول بأنها تلاشت ، فقد وجد الكثيرون ممن قالوا برسوخها في نفوس الجماهير ، وارتفعت صيحات في أوربا داعية الى توحيد الجهود الاوربية لطرد الاتراك والمسلمين من أوربا ، ووضعت بالفعل مشروعات كثيرة من هذا القبيل ، لولا أن الارتباكات الداخلية للدول كانت تقيد نشاطها وحريتها في العمل ، بالاضافة الى عوامل سياسية هامة بدأت تعلو على عوامل النعرة الدينية . ويلاحظ فيها ثانيا أن علاقة انكلترا وفرنسا مع الدولة العثمانية تختلف بحكم موقعها الجغرافي عن علاقة روسيا والنمسا بها ، فقد أوجد الجوار مشاكل متعددة بين السلطان وبين الدولتين الشرقيتين ، أدت الى اتخاذ العلاقات بين الطرفين صفة عدائية ، أما بالنسبة لفرنسا وانكلترا فلم تكن هناك مشاكل تؤدي الى عدائهما المستحكم للدولة العثمانية ، لذلك كانت علاقاتهما معها تجارية في أكثرها ، هدفها الحصول على امتيازات تجارية مع بعض مساع سياسية لم تتعد النطاق الدبلوماسي ، أظهرت التنافس الفرنسي الانكليزي بشكله البدائي الاول ، وكانت آخر مظاهره قبل غزوة بونابرت تلك المهمات الدبلوماسية في استامبول لحمل السلطان سليم الثالث على الاعتراف بحكومة الثورة الفرنسية

مع وعده بتقديم المساعدات اللازمة واعادة الامبراطورية العثمانية الى حدودها السابقة لمعاهدة كوچك كينارجه سنة ١٧٧٤ واعادة شبه جزيرة القرم وبلاد البشناق الى السلطان ، وتمكن أخيرا (دو فرينياك) المبعوث الفرنسي من حمل السلطان على الاعتراف بالجمهورية الفرنسية عام (١٧٩٤) ، الامر الذي حفز انكلترا الى زيادة اسطولها وتقويته في البحر المتوسط ، ودفعها الى الاتفاق مع مماليك مصر (مراد بك وعلي بك) لتأمين طريق الهند ، وكانت النتيجة ضغط المماليك على التجار الفرنسيين حتى اضطروا الى مغادرة القاهرة واللجوء الى الاسكندرية عام ١٧٩٥ .

الا أن الايام جاءت بما خرج عن النطاق الدبلوماسي ، وقلب السياسة الاوربية رأسا على عقب ، فنزل نابليون في بلاد الشرق العربي غازيا فاتحا ، واضطربت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، واضطربت معها مياه البحر المتوسط الآسنة ، وتوجهت الانظار منذ ذلك الحين الى هذا الشرق شاغل السياسيين ، ومركز الاطماع .

. . .

الفصل السابع

أحمد الجزار وحملة بونابرت

ولد الجزار سنة (١٧٣٥) في بلاد البوشناق ، ثم التحق بخدمة أحد ولاة مصر ، والتقى هناك بأمراء من المماليك ساعدوه على اجتياز أول درجات السلم الذي أوصله الى السلطة فيما بعد .

كانت الظروف في مصر تساعد رجلا كأحمد الجزار على الظهور ، فهناك الحروب بين الامراء ، وهناك المكائد والمؤامرات العثمانية ، وقد برع هو في كليهما ، فاستفاد من تنازع الامراء ، وساعد علي بك الكبير في حربه ضد عرب الهنادي الذين كانوا يسكنون غربي الدلتا ، وفتك بعدد كبير منهم ، حتى أطلق عليه هذا اللقب الذي ظل عالقا به طول حياته ، وهو لقب (الجزار).

ثم تغيرت الظروف ، ورأى أحمد سيده علي بك يفتك بأصدقائه القدماء ، ونظر الى يديه وقد تلطختا بالدماء ، فأشفق أن يصيبه ما أصاب غيره ، وصمم على الخروج الى مكان آخر يظهر فيه نشاطه وقوته ، فقصد الشام .

وهناك ، وفي وسط المنازعات المستعرة بين ظاهر العمر ، والشهابيين ، ومحاولات الدولة العثمانية ومكائد باشواتها ، وثق أحمد الجزار صلته بوالي الشام من جهة ، وبالامير يوسف الشهابي من جهة أخرى ، حتى أرسله هذا على رأس قوة محترمة لاحتلال بيروت ، فدخلها دخول الفاتحين ، وعزم منذ

ذلك الوقت أن ينفرد بحكمها ، وأن يكف يد الامير يوسف عنها ، وبدأ فعلا في ترميم ما هـدم فيها وجباية الاموال منها استعدادا لما قـد يحدث في المستقبل القريب •

وأدرك يوسف فداحة الخطأ الذي ارتكبه بعد حين ، عندما رأى صنيعته يجمع الجنود ، ويتخذ لنفسه سياسة خاصة ، فأنذره باخلاء بيروت خـلال اربعين يوما ، الا أن الجزار بدلا من الاستعداد للرحيل ، أخذ يستعد للقتال ، الامر الذي لفت نظر كل من جاور هذا الرجل الخطر ، فتقاربت وجهات نظر يوسف ومنصور الشهابي وظاهر العمر في ضرورة انتزاع بيروت منه ، وكتب ظاهر الى الاسطول الروسي في قبرص يدعوه ، فجاء الروس وحاصروا بيروت بحرا بينما حاصرها ظاهر والشهابيون من البر ، ودام الحصار حوالي أربعة أشهر اشتدت أيامها الاخيرة على الاهلين ، حتى اضطر الجزار الى الاستسلام ، والعودة الى عكا ، وعادت بيروت للامير يوسف •

على ان الهزيمة لم تفت في عضده ، وتتابعت الايام تحمل بين طياتها أنباء عن اغتصاب الجزار للاموال الاميرية التي كان يجمعها لظاهر ، وهروبه بها الى دمشق ثم الى القسطنطينية حيث تألف بها قلوب رجال السلطان مصطفى الثالث ، حتى عين على افيون قره حصار ، ولما تسنم السلطان عبد الحميد الاول سدة الحكم عينه واليا على صيدا ، فعاد وفي قلبه حقد دفين ، وبين جنبيه نفس تواقة للانتقام •

بدأ الجزار بانتزاع بيروت من الامير يوسف وضبط أموال الشهابيين وأملاكهم فيها ، وبذلك سيطر على الساحل السوري ونقل عاصمته الى عكا التي بدأت تتقدم منذ ذلك الوقت على حساب بيروت حتى أصبحت من أمنع

المدن السورية ، ثم أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية تقيه شر الشهابيين من جهة ، وباشوات الشام العثمانيين من جهة ثانية ، فأنشأ لنفسه اسطولا قويا مستعينا بأشجار صنوبر لبنان ، عدا السفن المالطية التي كان يضع يده عليها بين آن وآخر ، كما كون جيشا قويا من البشناق والارناؤوط والمغاربة وخصوصا اللاوند ، تلك الطائفة من الجند غير النظاميين التي صدر فرمان السلطان بحلها (واخراجها من رسم العساكر العثمانية) فتفرق أفرادها يلتمسون الرزق والنجاة ، ودخل أكثر بقاياهم في خدمة الجزار ، وهكذا انقسمت الشام الى ثلاث عصبيات قوية أخذت تتجاذب السلطة والنفوذ ، ويحاول كل منها الايقاع بالاخرى ، وهي : القوة العثمانية ممثلة في باشواتها على المدن السورية وخصوصا دمشق ، والعصبية الشهابية ومقرها في دير القمر ومركزها في جبل لبنان ، ثم قوة الجزار الناشئة المتزايدة ومركزها عكا ونفوذها يمتد على الساحل .

وكان مركز يوسف الشهابي جد دقيق ، نظرا لوقوعه بين الجزار من الغرب والباشوات العثمانيين من الشرق ، الامر الذي اضطره بادىء ذي بدء الى مصانعة الجزار خوفا على مستقبل لبنان التجاري ، الا أن هذا الاخير أدرك بثاقب نظره حرج موقف يوسف بالنسبة لانحصاره بين هاتين القوتين من جهة ، ولتعصب بعض الامراء الشهابيين عليه من جهة أخرى ، فعمد الى مناورة الشهابيين لابتزاز أقصى ما يستطيع ابتزازه من أموالهم ، وهكذا أصبح يؤيد الامير يوسف لينال ما يستطيع من أمواله ، ثم يمد يده الى خصومه مقابل ثمن آخر ، ثم يعود اليه ليأخذ منه أموالا جديدة ، وهكذا دواليك .

ويأتي يوم يشتط فيه الجزار في الطلب ، ويمتنع يوسف عن العطاء ،

فتنكشف بين الفريقين حرب ينفض فيها جند يوسف من حوله وينتصر الجزار ، فيضطر الاول الى جمع لفيف من الشهابيين واعتزال الحكم في اجتماع كبير على ضفة نهر الباروك سنة (١٧٧٨) ، ولكن الجزار أعاده بعد قليل وأقره على حكم الجبل الذي لم يخضع له ، فلجأ الى عكا ، وقابله الجزار بالترحاب ، وأخذ منه ما قدمه اليه من هدايا وتحف وأموال ، وأمده بالجند ، في الوقت الذي اتجه الامير سيد أحمد منافسه الى عكا أيضا يطلب من سيدها تثبيته في الولاية ، وهكذا أصبح الجزار يقف حكما بين الشهابيين ، وهو ما كان يتطلع اليه منذ زمان طويل •

كان والي الشام في ذلك الوقت محمد العظم ، وكان عليه بحكم منصبه هذا أن يهيمن على البلاد ويحتفظ بهيبة الدولة ، وقد رأى قوة الجزار ومهارته في ممارسة سلطاته والاستزادة منها ، فعاد الى الاسلوب العثماني القديم ، اسلوب اثارة العصبيات بعضها ضد بعض ، فقرب اليه الامير سيد احمد الشهابي المنافس ليوسف ، وهكذا انقسمت الشام الى حزبين كبيرين ، حزب محمد باشا العظم ، ومعه سيد احمد الشهابي وآل جنبلاط ، وحزب الجزار ومعه الامير يوسف الشهابي واليزبكية ، واشتبك الحزبان في معركة عنيفة في قب الياس من أعمال البقاع ، انتصر فيها الجزار ويوسف ، فأعطت الدولة الاول ولاية الشام ، وعاد الثاني الى امارته •

وكان هذا غاية ما يطمح اليه الجزار ، فقد فتك بأسرة ظاهر العمر وحطم قوة المتاولة ، ثم أدخل الشهابيين تحت كنفه ، وها هو يأخذ باشوية الشام ويتولى امارة الحج ؛ ليس هذا فحسب ، بل لقد أنعمت الدولة على اثنين من مماليكه بالباشوية ، فأقام سليم باشا على صيدا وسليمان باشا على طرابلس ، وبذلك أصبح الجزار صاحب النفوذ الاول في سورية بأجمعها عدا حلب ،

ولم يتحرج عن تحدي سلطة الدولة نفسها والامتناع عن ارسال الاموال اليها.

الا أن ايام الجزار لم تخل من منغصات كان لها أعمق الاثر في نفسه، كتنحيته عن ولاية الشام عدة مرات نتيجة للشكاوى الملحة التي تقدم بها السكان ضده من كل حدب وصوب ، وخصوصا سكان دمشق الذين ضجوا من ظلمه وجوره ، ومنها ثورة مماليكه وعلى رأسهم سليم وسليمان ، بعد أن تواردت اليهم الاخبار عن نواياه بقتلهم جميعا .

والظاهر .. أن الامير يوسف رأى في هذه الثورة فرصة ثمينة للتخلص من هذا الرجل الذي ابتز منه الاموال ، وولاه ثم عزله ثم ولاه ، فانضم مع الدروز الى الثوار ، وانتصر الجميع بادىء ذي بدء على الجزار الذي سرعان ما استرد أنفاسه ، وانتصر على خصومه في سهل البقاع . ورأى يوسف أن نجم الجزار عاد الى الارتفاع ، ونظر الى حلفائه ينفضون من حوله ، فتنازل عن الامارة مرة أخرى أمام أعيان البلاد الذين وقع اختيارهم على أمير شاب لايزيد عمره على (٢١) عاما وهو الامير بشير الثاني (بشير الكبير) الذي سيلعب دورا هاما في تاريخ سورية خلال القرن التاسع عشر (١) .

تنقل الامير بشير من معسكر يوسف الى معسكر خصومه عدة مرات أثناء المنازعات التي سبقت الاشارة اليها ، ثم بدأ باتخاذ خطة خاصة لنفسه ، فتحبب الى أعيان الجبل ، وأيد صلته بالجزار ، حتى انتخبه الجميع بتدبير منه في (١٧٨٨) ، فسعى الى تحطيم كل مقاومة داخليه ، ولم ير مانعا من مصانعة الجزار ريثما يوطد قدمه في حكم الجبل ويستتب له الامر فيه .

وكان من المنتظر أن يقلق سيد عكا بعد أن رأى نجم الامير الشهابي

---

(١) قال الامير يوسف لبشير : (انزل يابني الى عكا وتول مكاني) ، فأجابه بشير : (انني أخاف ان انزل ابنك واطلع ابن الجزار) . انظر : الامير بشير الكبير ، للاب بولس قرآلي . الجزء (١) ص (٩) .

الشاب في صعود مستمر ، فعاد يقرب اليه يوسف ويعرض عليه الامارة ليأخذ منه الاموال ، ويلوح في نفس الوقت لبشير بقوته وسلاحه الخطر فيزيد هذا على عطاء ذاك ، وهكذا يصبح الامر مزايدة علنية يجني أرباحها الجزار . ورأى أعيان الجبل وعقلاؤه ما يفعله الجزار بهم وبأمرائهم ، فعمت الثورة بقيادة الامير يوسف ، واتخذ الجزار جانب بشير أخيرا فقضى على الامير الثائر وأخمد ثورته ، فامتنع الاهالي عن دفع الضرائب ، وراح الجبل يتخبط في بحر من المآسي والفوضى ، ولولا الجزار لخرج الامر من يد الامير بشير الذي لم يكن في قرارة نفسه يطمئن الى اخلاص حاميه ، اذ بينما هو يؤيده ، اذا به يقبض عليه فجأة مع بعض أعوانه ويسوقهم معتقلين الى عكا ثم يعود الى العفو عنهم ، ويعيد بشيراً الى الامارة .

أما عبد الله العظم والي الشام وابنه خليل والي طرابلس فقد رأيا في هذه المنازعات فرصة لتحطيم الجزار ، وتكررت المأساة السابقة ، وانقسمت البلاد الى حزبين كبيرين من جديد ، وقف في أولهما الجزار وبشير ، وفي ثانيهما عبد الله وخليل العظم وولدا الامير يوسف ، فانتصر الجزار ، الا ان انتصاره لم يكن حاسما ، ولم يستطع أي من الفريقين القضاء على خصمه ، فتهادنا .

. . .

في هذا الجو المضطرب ، ظهر بونابرت في مصر ، ثم زحف الى الشام .

كانت الثورة الفرنسية قد بلغت أهدافها الاولى ، فألغت الامتيازات الاقطاعية ، وهدمت الطبقات الممتازة ، وأخذت تسعى لنشر مبادئها في الداخل والخارج بكل وسيلة ممكنة .

وكان من المنتظر أن تستثير هذه الحركة عداوة الدول الاوربية لاسباب متعددة ، فتشكل التحالف الاول ، وزحف بونابرت الى ايطاليا فكسر الجيوش النمساوية ، وعقد مع النمسا صلح كامبوفورميو ، ومن ايطاليا أطل نابليون على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة وجاور ممتلكات الدولة العثمانية في البلقان ، وعادت الى ذاكرته خصومة انكلترا العنيدة التي سلبت فرنسا قسما كبيرا من مستعمراتها والتي لاتزال تحمل لواء الحرب ضدها ، فبدأ يفكر في مشروعات شتى أهمها الاستيلاء على مالطة ومصر ، واتخاذ هذه الاخيرة قاعدة لبسط النفوذ الفرنسي في الشرق ، ومن هناك قرر أن يسدد ضربة قاضية الى أكبر جوهرة في التاج البريطاني بقطع طريق المواصلات الى الهند على الانكليز والزحف اليها بقوة عسكرية كافية .

ولما عاد الى العاصمة الفرنسية ، كانت الفكرة قد نمت في مخيلته ، بعد أخذ المعلومات الكافية بشكل نظري وعملي ، ولما قدم اليه مشروع حكومة الادارة بالنزول في الجزر البريطانية درسه باخلاص ، ثم قدم تقريره الذي زعزع آراء القائمين على الامور ، ثم أعقبه بتقرير ثان عن مشروعه الشرقي وأيده فيه تاليران وزير الخارجية ، فوافقت الحكومة الفرنسية على الحملة ، وقصد نابليون مصر ، فاحتل الاسكندرية ، والقاهرة ، واستعد للخطوة التالية .

حاول القائد الفرنسي اتخاذ خطة حكيمة استمدها من عادات السكان وتقاليدهم ، فأعلن احترامه للدين الاسلامي ، وقرب اليه العلماء وعين بعضهم في الديوان ، واحتفل بالاعياد الاسلامية والمحلية كعيد المولد النبوي وعيد وفاء النيل ، ثم بدأ يتصل بالامراء المسلمين والبارزين من حكام المقاطعات العثمانية كشريف مكة ، وأحمد الجزار .

وكان القلق قد استحوذ على الجزار عندما نزل الفرنسيون في مصر ،

تحدث الامير حيدر احمد الشهابي عنه (بان الجزار انشغل باله وخافت أهالي المدن الاسلامية ... ومنع الجزار خروج المراكب من البحر ، وامتنعت الموارد المصرية والرز عن عربستان) . ولا شك أن الجزار حسب لامتداد لهب الحرب الى الشام الف حساب وبدأ باتخاذ الاحتياطات اللازمة .

ثم تواردت الاخبار عن تحالف الدولة العثمانية مع الانكليز ، وأعقب ذلك وصول قطع الاسطول الانكليزي بقيادة سدني سمث الى عكا ، فبدأ الجزار يطمئن ، حتى صدر فرمان السلطان الذي يحث المسلمين على الجهاد ، ولاحت في الافق بوادر مجيء قوات عثمانية الى الشام للوقوف أمام الزحف الفرنسي ، فعاد القلق يساور الجزار ، والهواجس تحدثه بأن مجيء تلك القوات السلطانية لابد قاض على قوته أيضا ، وأعقب كل ذلك ورود رسالة بونابرت اليه .

تضمن الفرمان العثماني (١) حديثا عن الفرنسيين وعن مروقهم عن الدين ، وكيف أنهم ينادون بالتساوي بين الناس ليس لأحد على أحد فضل ولا مزية ، وانهم بعد أن أفسدوا في اوربا اتصل فسادهم الى ابطال الملة المحمدية ، وقال الفرمان : (فالآن يا حماة الاسلام ويا كماة المسلمين ويا عزة الموحدين ويا أبطال الحرب والضرب ويا رجال الغارة والنهب ... بحول الله وقوته وباهر عظمته عما قليل يجتمع عساكر وفيرة ، وجنود كثيرة مع سفاين كالجبال ، ومدافع كالرعد القاصف والبرق الخاطف وشجعان لايبالون بالموت لاعلاء كلمة الله ، الخ ...) (٢) .

---

(١) تاريخ حيدر . جزء (أ) ص (١٨٧) .

(٢) انظر الوثيقة رقم (١٠) .

أما رسالة بونابرت الى الجزار فقد تضمنت شرحا لسياسة قائد الفرنسيين ازاء المسلمين وصداقته لهم (... وما أتينا الا لنحامي عن المسلمين ونحمل محامل الحج الشريف ونبقي الصلاة باسم حضرة السلطان سليم وللبيان حرر لتكونوا آمنين وتفتحوا البنادر وتسير المتاجر الخ ...) وأرسلت مع أحد الضباط الفرنسيين (بازين) في سفينة للجزار كانت راسية في دمياط ، وسافر معه ترجمان لنقل حديث نابليون الضافي الى الوالي العثماني ، ولكن الجزار صم أذنيه عن كل ذلك ، بل أمر باعادة (بازين) الى دمياط دون أن يسمح له بالنزول الى البر ، ولعله أدرك أن العثمانيين اذا انتصروا فسينالونه بعقابهم الشديد ، واذا انكسروا فان سلطته ازاء الفرنسيين المنتصرين ستكون جد ضعيفة بينما هو سيد الشام في ظل الدولة العثمانية ، فضلا عن أنه كان الى وقت قريب يضطهد الفرنسيين القاطنين في الموانيء التابعة له ويسيء اليهم ، وبدأ يحسب حساب عاقبة ذلك الآن ، حتى ولو مالأ الغزاة وسار في ركابهم .

هكذا وضحت اذن خطة الجزار ، فهو يخشى الفرنسيين ولا يصدقهم من جهة ، كما أنه لايستطيع وضع كل قواته تحت تصرف العثمانيين خوفا من ان ينقضوا عليه بعد ذلك من جهة أخرى ، فقرر ملاينة العثمانيين ومسايرتهم مع التزام جانب الحذر وعدم تشتيت قواتـه ، وفي الوقت نفسه كسب تأييد الانكليز في الدفاع عن ولايته وحمايتهم .

أما الدولة العثمانية فقد قررت ان توفد الصدر الاعظم يوسف ضيا الى بلاد الشام ليتولى القيادة العامة ضد الفرنسيين ، وكتبت الى الجزار وغيره من الباشوات في سورية تحضهم على النهوض معه ، وأرادت أن تضمن ولاء الجزار فأعادته الى ولاية دمشق بعد أن رفعت يد عبد الله العظم عنها ، الا أن الوالي الجديد فضل أن يبقى في عكا معتصما بقلعتها المنيعة ، وأرسل

قوات استولت على النقطة الامامية الفاصلة بين مصر والشام ، وهي قلعة العريش ، فكان ذلك سببا مباشرا في زحف الفرنسيين الى بلاد الشام .

• • •

تعددت الروايات في أسباب الحملة الفرنسية الى سورية ، فقيل ان بونابرت أراد بتقدمه في الشام التمهيد لمشروعه الضخم في الوصول الى الهند ودعم العناصر الثائرة على الحكم البريطاني هناك ، وانزال الهزيمة بعدوه في أثمن جوهرة ضمتها امبراطورية بريطانيا التي هي سبب تفوقها السياسي والحربي في القارة الاوربية ، وقد ذكر بونابرت نفسه بعد ذلك في مذكراته أنه كان ينوي فعلا تنفيذ هذا المشروع .

وقيل أن القائد الفرنسي كان يريد بحملته على الشام أن يتوغل في أملاك الدولة العثمانية حتى يستولي على القسطنطينية ، ومن هناك يتقدم عبر البلقان الى النمسا ، فيهزم الدول المتألبة ضد فرنسا حتى يصل الى باريس ، وقد صارح بذلك أحد ضباطه قائلا (سأثير بلاد سورية وأسلحها بعد أن أستولي على عكا ، فأزحف من دمشق الى حلب ، فأبلغ القوم أمر الغاء السخرة وابطال عهد الباشوات الظالمين ، فيزيد جيشي ما أوغلت في بلاد الساخطين فأصل الى الاستانة على رأس كتائبي فأهدم دولة الترك مقيما في الشرق دولة جديدة عظيمة وأعود الى باريس من ادرنة ومن ڤيينا بعد أن أهدم دولة النمسا وأشتت شمل آل هابسبورغ ، فيكون لي الصيت البعيد بين الاجيال القادمة) (١) .

الا أن الترتيبات التي اتخذت لم تدل على هذه الاهداف البعيدة ، بل

---

(١) اميل لودفيغ : نابليون . الترجمة العربية (عادل زعيتر) ص (١٠٣).

دلت على غايات عملية ولدتها أحداث الساعة ، وشعور نابليون بالخطر المحدق به وبجنوده ، فقد أدرك القائد المحنك أنه في الشام يستطيع أن يكون أكثر قربا من الدوائر العثمانية بشكل يتيح له فرصة القيام بحرب دبلوماسية مع الاتراك العثمانيين لاجبارهم على التوقف عن بذل أي مجهود ضده ، وليضمن قبولهم ببقائه في مصر تحت سيادتهم الاسمية مقابل شروط يعرضها عليهم .

ثم هناك سبب قوي يدعوه لاحتلال الشام ، فقد ضاق الفرنسيون ذرعا بذلك الحصار الذي ضربته سفن الانكليز التي كانت تتمون من ثغور الشام ، وقدر قائدهم العام أنه باستيلائه على هذه الثغور يضطر السفن البريطانية الى البحث عن موانيء أخرى بعيدة ، فيتسع المجال للاتصال مع فرنسا ، ويزداد الامل في ورود النجدات .

ولعل السبب الرئيسي في هذه الحملة دفاعي رغم طابعها الهجومي ، والهجوم أحيانا من خير وسائل الدفاع ، فقد بلغت مسامع بونابرت أخبار تحالف عقده السلطان سليم الثالث مع روسيا وبريطانيا ، وتعيين احمد باشا الجزار واليا للشام ، ثم قبض جنوده في الطميلات أثناء زيارته للسويس مستطلعا امكان شق القناة ، على رسول من الشام يحمل الى مصر مراسلات من الجزار وابراهيم بك تضمنت أنباء احتلال جيوش الجزار العريش ودخولها الاراضي المصرية ، فعاد الى القاهرة على جناح السرعة بعد أن شعر بالخطر يجتاز الصحراء اليه ، ومن هناك بعث الى الجزار برسالة يطلب فيها اخلاء العريش ، فرفض هذا ، فتابع بونابرت اعداد قواته ، وأسلم أمور الاسكندرية الى (مارمون) ، وأمور الصعيد الى (ديزيه) أما القاهرة فقد نصب عليها (دوغا) وبذلك انتهت الترتيبات العسكرية للحملة .

وكان لا بد من استمالة قلوب المصريين الذين ما فتئوا يثورون عليه

ويحاربون ضده ، فجمع الديوان وزعماء البلاد ووجوهها ، وأخبرهم بلهجة سياسية لبقة أنه ذاهب بجيش لجب ليحارب ابراهيم بك وأتباعه في سورية دون السلطان ، وأنه سينزل أشد العقاب بمن سيقوم بأعمال الشغب أثناء غيابه ، ومناهم بالمكافآت وحسن المعاملة اذا هم أخلدوا الى السكينة وانصرفوا عن السياسة والشغب .

ثم أصدر منشورا باللغة العربية أعلن فيه عفوه عن المذنبين والمسؤولين في ثورة القاهرة ، واعادته الديوان الخصوصي لتسهيل مصالح الناس ، وحض الجميع على الانصراف الى أسباب معاشهم والتزام جانب الهدوء .

وهكذا تمت التمهيدات السياسية للحملة ، وتجهيزاتها العسكرية ، التي ضمت فيما عدا الجند والسلاح ، ثلة من أكارم العلماء ورجال الدين لخطب ود السوريين بعد أن عرف مدى تأثير الدين على السكان ، ودوره الهام في هذه البقعة من الشرق .

. . .

صدر الامر الى كل من (كليبر) و (رينه) فزحفا نحو العريش حيث فرقوا جموع الجزار ، واحتلوا الموقع فيما عدا قلعة العريش التي استعصت عليهم ، وتعذر عليهم حمل جنودها على الاستسلام .

واستقل نابليون في (١٠ شباط ـ فبراير ١٧٩٩) بعض السفن لينضم اليهما مع (٢٠٤٠٠) جندي فرنسي ، فاذا بالقائدين ينتظرانه بلهفة ، ويبتدرانه بحديث القلعة المتمردة ، فكتب الى حاميتها يقنعها بالقاء السلاح ، فلم يجده ذلك شيئا ، واضطر القائد العام أن ينتظر دومرتين مع المدافع الثقيلة ، حتى اذا وصل هذا ، وابتدأت القنابل تحمل الى المحاصرين الموت والدمار ،

سارعت الحامية الى طلب الصلح شريطة أن يسمح لافرادها بالاحتفاظ بسلاحهم ، فرضي بونابرت بذلك حقنا لارواح جنوده ، وتوفيرا لوقته الذي كان يحرص عليه كل الحرص ، الا أنه أخذ على جنود الجزار عهدا بعدم محاربتهم له سنة كاملة ، فتعهدوا له بذلك ، ثم نقضوا العهد ، فعرض المغاربة منهم خدماتهم على كليبر ، وانضم الارناؤوط منهم الى الجزار ، أما الباقون فقد ساروا شرقا مبتعدين عن الموت ، متجنبين متاعب كانوا في غنى عنها .

أما نابليون فقد أصدر منشورا يدعو السوريين فيه الى مساعدته ويعلن عن صداقته للعثمانيين وحرصه على بقاء المسلمين وجوامعهم ومؤسساتهم الدينية بعيدة عن كل اعتداء ، ثم أتبعه بمنشور آخر الى المصريين حدثهم عن نصر الفرنسيين المؤثل في العريش ، وغنائمهم فيه (... ان الفرنساوية وجدوا في قلعة العريش مخازن أرز وبقسماط وشعير وثلاثمائة رأس من الخيل الجياد وحمير كثيرة وجمال غزيرة اكتسبه جميعه الفرنساوية ... فيا اخواننا لاتعارضوا الملك المتعال واتركوا أنفسكم من القيل والقال ، واشتغلوا في صلاح دينكم والسعي في معاش دنياكم ، وارجعوا الى الله الذي خلقكم وسواكم ، والسلام عليكم ...) .

ثم سار الجيش الفرنسي الى غزة .

كان الحر مخيفا ، والرياح العاتية تلفح الوجوه ، وتمطر الغزاة بوابل من الرمال الحارة الكاوية ، وقد قلت المياه ، وتعب الخيل والجنود على السواء ، وابتدأت روح التمرد والعصيان تتركز في قلوبهم ورؤوسهم ، حتى اذا اجتازوا الصحراء بصعوباتها وأهوالها ، وصلبت الارض تحت أقدامهم ، تغير الجو ، وهطلت عليهم الامطار ، فأصيب الكثيرون بالامراض ، وقاسى الآخرون أنواعا من مشقات لاتوصف ، حتى وصلوا الى غزة التي استسلمت ، ووجد

فيها نابليون من الطعام والذخيرة ما عوضه وجنوده بعض النصب الذي نالهم في طريقهم الوعرة القاسية ، فوزع المنشورات ، وأنشأ ديوانا وطنيا لحل المشاكل المحلية •

وكانت الخطوة التالية يافا ، وهي شديدة الاستعداد منيعة التحصين ، قدرت القوات المدافعة عنها بـ (١٢٠٠٠) مقاتل ، فحاصرتها القوات الفرنسية ، وأرسلت الى حامية المدينة ضابطا تركيا يطلب الى جنود الجزار تسليم المدينة ، فقتل الضابط والدليل ، ورفع رأساهما على الحراب فوق السور ، بعد أن ألقيت جثتاهما من فوقه •

واهتاج الفرنسيون لهذا التحدي الصريح ، وكانوا قد ضاقوا ذرعا بهجمات فرق المغاوير التي كانت توجه اليهم أقسى الضربات ثم تعود بسرعة الى المدينة الحصينة وراء الاسوار ، فشنوا هجوما كاسحا استعملوا فيه مختلف ضروب الحيلة والقتال ، حتى تمكنوا من دخول المدينة واحتلالها •

وهناك استبيحت الحرمات •

انقض الفرنسيون على من رأوه داخل الاسوار دون أن يفرقوا بين مدني وعسكري ، فأعملوا السلاح في الرجال ، واجتازوا بحرا من دمائهم الى النساء ، والحلي ، والثروات •

وبين أنات الجرحى ، واستغاثة النساء ، وصرخات الفوز العظيم ، مضى ذلك الليل الحزين يكلل يافا بالسواد ، ويوشحها بازار من الدم والنار •

ثم انقشع الظلام ، وتعالت الشمس تكشف للغزاة عما قدمت أيديهم ، وتنقل اليهم الاخبار بعد ذلك عن آلاف الجنود المدججين بالسلاح الذين لجأوا الى خانات كبيرة لم يفتشها الفرنسيون المنشغلون بالسلب والنهب والسبي •

فاوض بعض الضباط هـذه القوة الكامنة اجتنابا لمعارك أخرى دامية، لم يكن الجنود المتعبون على أتم الاستعداد لها ووعدوهم بالابقاء على حياتهم، حتى اذا اقتادوهم الى القائد العام ، وجه هذا اللوم الى ضباطه لابقائهم على حياة هذا الجمع من الرجال الصالحين للقتال ، ثم عقد مجلسا حربيا ناقش مصيرهم ، واستقر الرأي بعد لأي وطول جدال على اعدامهم جميعا ، فسيقوا الى بقعة من الساحل قرب يافا ، وابتدأ التنفيذ في (١٠ آذار — مارس ١٧٩٩).

وكانت المذبحة الثانية أشد من الاولى ، وأكثر قسوة وفظاعة .

وجه الجنود بنادقهم الى صدور اسراهم العزل من السلاح ، فلم يصيبوا الهدف بدقة ، فعادوا يطلقون عليهم النار ، حتى نفذت ذخيرتهم بين صياح الخائفين ، وحركات المصابين ، وقيام الجرحى وقعودهم ، وقد دفعهم حب الحياة الى التمسك بأهدابها ، فألقى كل منهم بنفسه على زميله يحتمي به ، والجميع يعانون العذاب الاليم .

ولما نفـذت الذخيرة ، صدرت الاوامر بالاجهاز على الجرحى بالسلاح الابيض ، فاصطبغت المذبحة بلون أقسى من سابقه ، واتخذ التنفيذ طابعا من الوحشية سجله التاريخ على صفحات قاتمة السواد .

ثم بدأت جثث القتلى تتفسخ داخل المدينة وخارج المدينة ، وبدأ الطاعون يكتسح الآدميين على مختلف مشاربهم ، بشكل أعيى الاطباء ، وحول يافا الى مستشفى واسع ومقبرة كبيرة .

وفي غضون هذه الموجة من الهلع والنكبات ، كان بونابرت يعمل جاهدا على ترميم ما تهدم من حصون يافا ، ثم اتصل بالقدس طالبا اليها الاستسلام ، فعلقت ذلك على فتح عكا ، وأصدر منشورا الى سكان القاهرة يعلمهم فيه

عن نصره العظيم ، ووقائع يافا المظفرة ، وأخيرا أمر بالتقدم نحو عكا ، فتقدم الجند الى قلعة القلاع ، وحصن سورية الحصين .

. . .

استولت القوات الفرنسية على حيفا دون قتـال ، وأسرت فيها سفينة للانكليز ثم تابعت طريقها الى الهـدف ، حتى بلغت أسواره الحصينة في (١٨ آذار ــ مارس ١٧٩٩) .

وكانت أخبار مذابح يافا قد وصلت الى عكا ، فصمم الجزار على المقاومة حتى اللحظة الاخيرة ، معتمدا على أسوار المدينة من جهة ، وبراعة جنوده ووفرة عددهم من جهة أخرى .

ثم عززت براعة الجند ومناعة الاسوار بخبرة (فيليبو) الفنية ، وهو أحد النبلاء الذين أجبرتهم الثورة على مغادرة فرنسا ، قدمـه سدني سمث في العشرين من آذار ــ مارس (١٧٩٩) الى الجزار كمهندس حربي اختصاصي بفن التحصين والدفاع في حالة الحصار ، فرحب الوالي العثماني به ، وأيده في توصياته وعمل بها ، لاسيما بناء ذلك السور الداخلي لايقاع أبناء جلدته في فخ أباد منهم العشرات عنـدما نجحوا في اختراق السور الاول قبيل انتهاء الحصار .

ألقى بونابرت الحصار على عكا اذن ، وجمع أركان حربه ، فاستقر الرأي على انتظار المدافع الضخمة التي كانت في طريقها من مصر للبدء بالهجوم الحاسم ، الا أن اسطول (برتييه) ضل طريقه وسط الضباب الكثيف ، فأسره الانكليز ، ونصبوا مدافعـه على الاسوار ، واستعملوا عتاده ضد الفرنسيين أصحابه الاصليين .

ثم بدأ أول هجوم فرنسي على المدينة بعد أن مهدت له المدفعية بقصف متواصل طيلة يوم كامل ، فباء بفشل ذريع أضعف معنويات الفرنسيين ، في حين أنعش آمال الاتراك وشجعهم على المقاومة حتى النهاية .

وسرت اشاعة قوية عن سير قوة محترمة من الاتراك والمماليك اليهم ، فأوفد نابليون كليبر لملاقاتهم في الف وخمسمائة جندي — وكان جيش الخصم يزيد على الثلاثين ألفا — فلما حاصروه في مرج ابن عامر ، زحف بونابرت لنجدته في اكثر من ثلاثة آلاف جندي ، بددوا شمل المهاجمين ، وغنموا كل مؤنهم وعتادهم . ثم تواردت أخبار أخرى عن جيش يزحف من دمشق الى عكا ، فسار مورا بفرسانه اليه ، واستولى على الناصرة ، وغنم ما في مخازنها الكبيرة من مؤن وعتاد ، وبذلك اطمأن نابليون الى قوة مركزه أمام عكا التي لم يعرف كيف يخضعها لنفوذه الجبار .

أنشأ القائد الفرنسي لغما هائلا عند أحد الابراج الرئيسية ، استغرق اتمامه حوالي ثلاثة اسابيع ، وسمع له عند انفجاره صوت خيّل الى الناس معه أن زلزالا عظيما قد انبعث من جوف الارض ، وأن كل الصواعق المخيفة قد انقضت عليهم من السماء ، ثم انجلى الغبار ، وتبين أن هذه الكمية الهائلة من المتفجرات لم تسقط الا عدة أحجار من أقرب أبراج السور اليها ، فأتبعها بهجوم سريع فشلت كل دفعاته ، وترتب على مجلس أركان الحرب عقد اجتماع مستعجل ، تقرر فيه مرة ثانية انتظار وصول المؤن التي أخذت طريقها من مصر اليهم في بطء شديد .

وكانت الاخبار قد تسربت الى بونابرت أن تاليران وزير الخارجية لم يقم بأية محاولة لمفاوضة السلطان ، وأن العدو قد اقتحم على فرنسا حدودها ، بينما استلم زمام القيادة العامة هناك غريماه (مورو) و (أوجيرو) ليدفعا

بجيش فرنسا الى الهزيمة والهلاك ، ففكر لاول مرة بالانسحاب لان قلعة عكا الشامخة أبت أن تجثو أمامه مطيعة صاغرة •

ثم جد في الميدان ما كان له تأثير حاسم على سير الامور ، فقد تداعى الجند في صباح (٨ ايار ــ مايو ١٧٩٩) الى رؤية جمع من السفن ظنوها أتت اليهم بالنجدات ، فلما رأوا سدني سمث ينضم باسطوله اليها ، أدركوا أنها نجدات للعدو ، واستقر الرأي على القيام بهجوم عنيف يخضع عكا قبل وصول هذه النجدات اليها •

وسرعان ما بدأ الهجوم المرتقب ، واجتاز الفرنسيون أحد الابراج ليلقوا الموت تحت النيران التي انصبت عليهم من السور الداخلي الذي بناه (فيليبو) عند قدومه ، ثم أعيدت الكرة في اليوم التالي بقيادة كليبر ، ومرة ثانية فشل الهجوم ، وأصبح الانسحاب ضرورة لازمة بعد أن يئس الجنود ، وفكر قائدهم ببناء مجده في أوربا بعد أن فشلت كل محاولاته في هذا الشرق المنيع ، خصوصا بعد ورود الاخبار عن قيام حركات بمصر يتزعمها رجل يدعي أنه المهدي ، وبعد ارسال جيش عثماني الى مصر من جهة البحر ليقطع عليه خط الرجعة ، بالاضافة الى أخبار فرنسا آنفة الذكر •

وفي الساعة التاسعة من مساء العشرين من أيار (١٧٩٩) صدرت أوامر بونابرت برفع الحصار ، فسارت قواته فرقة اثر فرقة ، ووقف كليبر يحمي المؤخرة بينما تأهب الفرسان لرد الطوارىء ، بعد أن دفنت المدافع الكبيرة والاعتدة الثقيلة في البحر لئلا يستفيد منها العدو ، وكذلك فعل في يافا والمدن الاخرى •

كان الحر شديدا ، وأنات الجرحى تمزق قلوب القادة ، والجنود يطرحون المصابين بالطاعون أرضا من ضباط وجنود ، وقد أمر بونابرت بقتل المرضى

بالطاعون الذين لم يكن يستطيع ابقاءهم لئلا ينكل بهم الجزار ، فرفض الاطباء . ثم أمر بتخصيص الرواحل للمرضى والجرحى ، فتمنع أصحابها ، وأوحوا سرا بألا تعطى رواحلهم لمرضى الطاعون ؛ كل ذلك والسكان يهاجمونهم من البر ، وقنابل الانكليز تنهال عليهم من البحر ، والعثمانيون يلاحقونهم بشكل مزعج ، حتى وصل الجيش الى العريش في (٢ حزيران - يونيو ١٧٩٩) ومنها الى الصالحية في ٧ منه .

وهكذا انتهت الحملة السورية ، ولكن آثارها كانت كبيرة تجلت أبرزها في نفسية ذلك القائد الطموح الذي داعبته أحلام الاسكندر وتجلى في خياله مشروع شرقي ضخم تحطم أمام أسوار عكا ، فودعه وغادرها وفي الفم أنة ، وفي الفؤاد حسرات .

ترى ماذا ستقول باريس وكيف سيحكم التاريخ ؟ لقد حاول نابليون صياغة البلاغ الكاذب لتعليل الفشل بالطاعون ، فرفض أحد الاطباء توقيعه ، فزمجر ، واكتفى بذلك البيان الذي سمعه الجند ، والذي يعلن انتهاء المهمة بعد أن حطم الجيش العثماني الذي كان يتهددهم من سورية ، وبعد أن دكت صروح عكا وتركت أثرا بعد عين .

وأسباب كل ذلك ، يرجع أولها الى مساعدة الانكليز الفعالة ، الذين جعلوا الحصار كأن لم يكن ، فعملوا على ايصال المؤن الى عكا ، وأمدوها بالعتاد ، وأنزلوا اليها الجيش الذي كان يحمله الاسطول العثماني الذي أثار استبشارهم وتفاؤلهم عند ظهوره ، وهم الذين سلبوه آلات الحصار الثقيلة التي كان يحملها الاسطول الفرنسي اليه ، وسلموها الى الجزار ليحاربه بها .

وفيليبو ، ذلك الفرنسي الذي حارب أبناء جلدته نكاية بالثورة وجنودها وبونابرت وشهرته ، لاينكر أن مساعدته كانت لها أهمية بالغة في فشله وفوز

أعدائه ، فنظم الدفاع ، وركز المدافع على الاسوار بشكل فني ، وقدم كل خدمة ممكنة حتى قال كليبر : ان الجزار يدافع عن مدينته على الطريقة الاوربية ، بينما يهاجمه الفرنسيون على الطريقة التركية .

لقد صمدت عكا ، ذلك البيت الحقير ـ كما كان يسميها بونابرت ـ الذي فحصه طويلا بعيد وصوله الى أسواره ، ثم قلب شفتيه ، وقال ان الاستيلاء عليه سهل ، كالاستيلاء على يافا سواء بسواء .

. . .

ماذا كان موقف الرأي العام السوري ازاء الحملة ؟

لقد أراد بونابرت أن يستميل السوريين جميعا الى صفه ، فوزع المناشير على الاهلين يقنعهم فيها بأنه جاء لحماية دين الاسلام ، وانه لم يأت لمحاربة السلطان بل لمحاربة المماليك الخارجين عليه ، ويعد بحماية أرواح المسلمين وصيانة أموالهم وأعراضهم .

الا أن أفعاله كذبت أقواله ، فاستباح جنده أموال سكان يافا وأعراضهم بل وأرواحهم ، ثم وقف أمام عكا يحارب جند السلطان وقائدهم أحمد الجزار ، ومالأ المسيحيين وصلى في دير الرهبان الفرنسيسكان في الناصرة استجلابا لقلوب المسيحيين .

أما أعداؤه فقد حاربوه بنفس سلاحه ، فوزع الباب العالي المناشير على المسلمين يعلن فيها أنه عدو للجيش الفرنسي وأنه سيحارب أفراده باذن الله حتى يجليهم عن الديار الاسلامية ، فتألبوا عليه ، وأرسل سدني سمث الى المسيحيين نسخا من مناشير بونابرت التي يعلن فيها أنه ثل عرش البابوية في ايطاليا ، فحنق المسيحيون على الفرنسيين وامتنعوا عن تقديم الخمور والبارود

اليهم ، بل زاد الاميرال الانكليزي على ذلك بأن بعث أثناء حصار عكا بمناشير الى الجنود الفرنسيين يتعهد لهم فيها بنقل من يريد العودة منهم الى فرنسا دون أن يمسه أي أذى ، عندما كان الفرنسيون يعانون الامرين من المرض الكاسح ، والطقس العاتي ، والمعارك الرهيبة .

وهكذا انقلب الشعب العربي في سورية عامة ضد الفرنسيين ، فأحرج مركزهم ، وكان من أسباب رجوعهم يجررون أذيال الخيبة والفشل ، رغم أن بعض مشايخ المتاولة قدموا خضوعهم ، وأن عباس بن ظاهر العمر قابل بونابرت ، فرحب به أجمل ترحيب ، وأمده بالسلاح والكساء ، ووعده بتوليته على امارة أبيه .

أما الجزار ، فقد سبق بيان موقفه عندما تلقى أنباء نزول الفرنسيين في مصر ، ثم تعيينه قائدا عاما لجيوش الدولة في الشام ، فلما ألقى بونابرت الحصار وشدد عليه النكير ، أخذه الخوف ، وفكر في ترك القلعة والفرار بنفسه ، الا ان الانكليز طمأنوه واستبقوه (١) ، ثم جاءوه بفيليبو ، فاطمأن وصمم على الدفاع حتى النهاية .

وكانت أحوال لبنان مضطربة ، وسلطة الامير بشير متزعزعة ، يعاديه الدروز ، ويخالفه أعيان البلاد ومشايخها ، والحيرة تقلق باله وتستولي على أفكاره ، فقد وصلته كتب من بونابرت يحاول بها استمالته ، ووردت عليه كتب الجزار يطلب المال والجنود للدفاع ضد الفرنسيين ، وكان بشير يخشى الفريقين : كان يخشى انتصار الفرنسيين لانه لم يكن مطمئنا الى ابقائهم على هذه التشكيلات الادارية التي سودته على قومه ، وكان يخشى الجزار الرجل

(١) تاريخ حيدر . ص (٤٥) .

الذي لا يؤتمن ، كما كان يخشى بأس القوات العثمانية التي كانت في طريقها للاشتراك في المعركة .

وقرر الامير بشير بعد طول تفكير أن يلزم جانب الحذر ، فكتب يعتذر الى الجزار قائلا ان امارته أصبحت خارجة عن يده وسلطانه ، ورأى في نفس الوقت أن يعتمد على تلك القوة التي جدت على مسرح الحوادث وهي قوة الانكليز ، ومن هنا جاءت هذه الصداقة والصلات القوية بين بشير وسمث ، الا أنها لم تتعد حدود الصداقة التي حاول الامير بشير تقويتها ليتخذ من الانكليز وسيلة يضمن بهـا مركزه مع الجزار ومـع العثمانيين على السواء .

والواقع .. أن الجزار تنفس الصعداء عندما رفع الفرنسيون الحصار ، واستدار ليواجه من تلكأ في امداده بالمال والرجال من أنصاره ، فاذا به أمام بشير الشهابي وجها لوجه ، ومد هـذا يديه الى سمث ، وقابله في قرية (عين عنوب) قرب بيروت ، فكان تصرف أمـير البحر يتمشى مع سياسـة الانكليز منذ بدء الحملة ، وهي التأليف بين العصبيات الاقليمية لتكون سدا يقف في وجه الاطماع الفرنسية ، ونجح في وساطته بين بشير والعثمانيين مؤيدا مركز الاول مهددا الدولة (العلية) بأن العهود بين الانكليز والعثمانيين (تكون مفسوخة اذا فتك الجزار بالامير بشير) .

ويظهر أن العلاقات بين الجزار وحلفائـه القدماء قد فترت بعد رفع الحصار ، لانه لم يكن يريد لا سيادة الانجليز ولا سيادة الفرنسيين ، كما ان الاميرال كتب الى المراجع المختصة يشكو الجزار ويتذمر منه من جهة ، ووثق الصلات بين الامير بشير والصدر الاعظم يوسف ضيا من جهة أخرى ، فأصدر الوزير الامر بتوسيع ممتلكات بشير حتى بلغت في سعتها حـدا

كبيرا ، وضمت جبل لبنان ووادي التيم وبعلبك وبلاد المتاولة والبقاع وبلاد جبيل ، ونص فيه على أن هذه المناطق هي (مالكانات) له (حسبما كانت في عهد ابن معن) أي تتبع الاستانة رأسا دون أن يكون لولاة عكا سلطة عليه ، كل ما هنالك أنه يرسل الاموال الاميرية الى (خزينة همايون) كما كان الحال أيام فخر الدين المعني الثاني ، وكان الصدر الاعظم غاضبا على الجزار لعدم اكتراثه به حين قدومه الشام ، فأعاد ولاية الشام الى عبد الله العظم ، وأوصاه برعاية الامير بشير وحسن معاملته .

أما الجزار ، فقد نظر بعين الغضب الى تزايد سلطة الامير بشير ، والى تلك المحالفة الثلاثية (بشير — ضيا — سمث) ، وكانت الدولة قد عادت تجند قوات جديدة لغزو مصر ، فصم أذنيه عن دعوة يوسف ضيا له ، ولم يأبه لفرمان الصدر الاعظم باعطاء الممتلكات الواسعة للامير بشير ، بل عاد يولي ابني الامير يوسف على الجبل ، ويجمع حولهما زعماء البلاد .

وشكا الامير بشير الشهابي أمره الى صديقه أمير البحر الانكليزي ، فكتب اليه هذا بأن الجزار رجل لا يعرف الجميل ، وأنه أصبح عدوا للدولة وأنه مستعد لتقديم الخدمات له ، ثم كتب سمث الى يوسف ضيا يحضه على مساعدة الامير بشير في استعادة ملكه ، وتبودلت المراسلات حتى أصدر والي الشام عبدالله العظم منشورا الى الاهلين يطلب اليهم فيه طاعة الامير بشير (... صدر المرسوم المطاع الواجب القبول والاتباع الى أمراء ومشايخ وعقال ورعايا جبل الشوف بوجه العموم يحيطون علما أنه لقد طرق علمنا ما أبديتموه من العصاوة في قبولكم أولاد الامير يوسف حكاما عليكم . وأن البعض منكم ماشيين معهم في أنكم محققين أن ولدنا الاعز الاكرم بشير الدين الشهابي المعظم منصب من لدن الدولة العلية ، وأن كل من خالفه

فيكون وقع تحت غضب مولانا السلطان • فلأجل ذلك أصـدرنا أوامرنا هذه ، فبحال وقوفكم عليها تتركوا ما عندكم من الطغيان وتتذكروا ما حل بكم من قديم الزمان وكيف سبيت الحريم وقتلت الصبيان لما عصى الدولة الامير فخر الدين المعني في زمان الكجك أحمـد • وسوف تورد عليكم العساكر كالغيث الماطر والبحر الزاخر ان لم ترجعوا لجانب ولدنا المشار اليه طايعين والى أوامره سامعين وتكون خطية النساء والاطفال في عنوق الكبار منكم ، والحذر من الخلاف •••) •

الا أن هذه المساعدة العثمانية لم تجد شيئا ، فقبضة الجزار قويـة ، والانقسام قد سرى في الدروز بين فريق يناصر بشيرا وفريق يؤيد ابن الامير يوسف ، وأخذ الامير بشير يتنقل مشردا من مكان الى آخر ، حتى وصلته دعوة الاميرال الانكليزي الى غـزة حيث كانت تدور مفاوضات الجـلاء الفرنسية ، التي انتهت باتفاقية العريش في كانون الثاني ـ يناير ١٨٠٠ ، فأسرع الى لقاء صديقيه سمث ويوسف ضيا ونفسه تتأرجح بين اليأس والامل •

أحسن الصدر الاعظم مقابلة الامير ، ويبدو أنه أراد اتخاذه أداة لضرب الجزار ، ولكن بشيرا اعتذر عن ذلك لانه ليس كفؤا لحصار عكا ، فوعده يوسف ضيا باشا بأنه سيكرس كل قواته ضد الجزار بعد انتهائه من مصر ، ودعاه الى مصاحبته في تقدمه ، فاعتذر عن ذلك أيضا ، وفضل أن يرافق سدني سمث في سفنه ، وانتظر الجميع ان يخرج الفرنسيون من مصر ، ويعود يوسف ضيا ليصفي حسابه مع الجزار •

ولكن الايام لم تشأ تحقيق هذه الامنيات الغالية ، فقد نقضت اتفاقيـة العريش ، وحدثت موقعة عين شمس في (٢٠ آذار ـ مارس ١٨٠٠) التي دارت فيها الدائرة على العثمانيين وارتد الصدر الاعظم مهزوما الى الشام ،

ورأى الامير بشير أن الموقف قد ازداد تعقدا وأن آماله في استعادة امارته قد تحطمت ، فقرر أن يعتمد على نفسه وعلى تطور الظروف ليصفي حسابه مع الجزار ، وكانت سفينة انكليزية قد حملته الى طرابلس حيث مهد المصاعب الخفيفة التي اعترضته ثم تقدم الى الجبل .

كان الجزار يبتز الاموال من صنيعته الامير حسن بن يوسف ، حتى ضجت البلاد من ارهاقه ، واستقبل زعماؤها الامير بشيراً أحسن استقبال ، فشرع هذا في تأليف القلوب ، وازالة الضغائن بين البيوتات والعصبيات حتى وحّد البلاد تحت حكمه . ودار القتال سجالا بينه وبين الجزار الذي أخذ يحصن عكا مقره وقلعته ، ورغم أن الدولة عينت واليا لعكا بديلا له الا أنه قاوم ذلك ، وأخذ يولي بشيرا تارة ويعزله تارة أخرى ، والاحوال تزداد سوءا على سوء ، والفساد ينتشر في طول البلاد وعرضها ، حتى توفي أخيرا في ٢٣ نيسان ـ ابريل ١٨٠٤ (وكانت معاهدة الصلح قد عقدت بين فرنسا والباب العالي في ٢٥ حزيران ـ يونيو ١٨٠٢) ، وانفسح بذلك المجال للامير بشير ليصبح الشخصية الاولى في بلاد الشام .

. . .

هكذا زال شبح الجزار من الشام ، وكان رهيبا على سكانه ، وعلى أعدائه على السواء .

أسرف الجزار في سفك الدماء حتى لقب بهذا الاسم الذي عرف به في التاريخ ، وبالغ في أخذ الاموال بجميع وسائل القسوة والتعذيب ، فكان عفوه عمن يحقد عليهم ينقذهم من القتل ، ولكنه ينكبهم بقطع أعضائهم ، الانف ثم الاذن ثم العين ، وقد يكتفي ببعض الاعضاء دون الاخرى .

(حج الجزار مرة بالناس ، فلما عاد ترامى الى سمعه اتهام مماليكه بحريمه ، فسخط عليهن ، ولم يلبث أن أرسل المماليك في حملة على لبنان ، وأوقد نارا كبيرة في داره ، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد أخرى ، فيقبض بنفسه على عنق الواحدة ويطرحها في النار على وجهها ، ويدوس بقدميه على ظهرها وهو يضغط رأسها ، حتى يتم شيها بالنار وتهلك ، فيرفعها ويحضر غيرها ، وعلى هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزار سبعة وثلاثين امرأة ولم تنج غير فتاة في الثامنة من عمرها) (١) .

وكم من مرة صادر السفن المصرية التجارية في الثغور التابعة له ، فقتل بحارتها ، واستولى على بضائعها وأموالها ، وكم من مرة تملكته الشهوة الى الدم فأصدر الاوامر بالقبض على الناس وسجنهم أو تعذيبهم أو اعدامهم ، وكان سببا في بعث التعصب الديني بين الموارنة والمسلمين في بيروت ليضمن حكمه فيها ، حتى أيامه الاخيرة لم تخل من الدماء ، فقد أمر قبيل وفاته باغراق جميع مساجينه ، ونفذ الامر .

الا أن الايام تحفظ للجزار أنه كان داهية أريبا ، وطد سلطة الدولة في الشام ، وأنه امتنع أحيانا عن تسليم الاموال اليها ، وأخضع الامراء المتنازعين المتخاصمين على الدوام ، ولم يظلم فريقا دون آخر بل كانت قسوته تشمل المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، فاذا غضبت عليه الدولة أغدق عليها الاموال حتى يصفو له رجالها وسلطانها ، قال عنه مشاقة (ان الجزار ظلم ولكنه خدم الدولة والشعب ... فكان وجوده بالنسبة لجور الامراء والمشايخ قبله أقل وطأة) .

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . جزء (٣) ص (٢١) .

ولعل أبرز ما يذكر عنه صموده في عكا أمام الفرنسيين ، الامر الذي كان له أكبر الاثر في نفسية بونابرت ، وفي سير التاريخ العام ، فحد نشاط الفرنسيين في الشرق ، ومنعهم من تنفيذ مشاريعهم الهامة ، كما أنقذ الدولة العثمانية وزلزل مكانة بعض الامراء الذين تقدموا الى أعدائها خاضعين مطيعين ، وكان سببا مباشرا في عودة نابليون الى أوربا ليؤثر على سير الحرب هناك ، وتتطور الامور على النحو المعروف .

• • •

أما بونابرت فان الرأي فيه يتأرجح حسب العصور ، ونفسيات الكتاب والمؤرخين ، فتعصب عليه أعداء الحروب ، واتهموه بالوحشية وسفك الدماء ، وقدموا على ذلك الشواهد والبراهين والارقام .

أخذ على نابليون أمره باعدام آلاف الجنود الذين استسلموا لقواته في يافا ، فهاجمته أقلام الاعداء ، وأشفق عليه المؤيدون ، فقال مشاقة : ان القائد الفرنسي كان يطلق سراح الاسرى كل مرة بعد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق بألا يعودوا الى حربه ، ثم يراهم في المعارك التالية (فلما أسرهم هذه المرة وعددهم يربو على الثلاثة آلاف حنق عليهم وعلم أنهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري فأمر جنوده باطلاق النار عليهم ...) (١) . وقال اميل لودفيغ (... ثم أسر حين فتح يافا ثلاثة آلاف جندي عثماني فحار في أمرهم ، فسأل أيحتفظ بهم وليس لديه ما يطعمهم ؟ أم يرسلهم لفرنسا ولم تبق عنده سفن ، أم يبادل العدو بهم ولما يأسر العدو منه جنديا واحدا ؟ أم يطلقهم وفي ذلك تعزيز لحامية عكا ؟ فماذا يصنع بهم اذن ؟ لقد

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . جزء (٣) ص (١٧) .

جمع مجلسا واستشاره ، فذهب هذا المجلس الى قتلهم مسوغا ذلك بقتل الترك لرسول فرنسي منذ بضعة أيام ، وبأن الجنود يغضبون اذا ما رأوا أرزاقهم تقل بسبب أولئك الاسرى ... فسيقوا الى الشاطيء وذبحوا ، فرأى بعد مدة ، عدد غير قليل من النقاد الالمان الحربيين ، على الخصوص ، أن ذبح أولئك الاسرى مما لا مفر منه ...) (١) .

ولكن ، ألم يكن في وسع بونابرت استخدام الاسرى لاغراض سلمية ليتفرغ الفرنسيون للحرب فقط ؟ واطعامهم من قبل السكان أنفسهم كما كان الجنود الاتراك يفرضون أنفسهم في مثل هذه المناسبات ؟ أما العدو فلم يكن ليؤثر على الفرنسيين الذين هزموا ثلاثين الفا بخمسة آلاف في جبل طابور ، وعشرين الفا من جيش والي الشام بفرسان مورا وقوات لم يتجاوز عددها الالف جندي قبل ورود النجدة الضئيلة .

وبعد .. فلقد أعطوا العهد بالامان على أرواح الجند المستسلمين ، فكان يجب المحافظة عليه مهما كلف الامر ، لان الشرف العسكري يوجب ذلك ، ولطالما تشدق الفرنسيون باحترامه وحرصهم عليه .

ثم ان الطريقة التي أعدموا بها كانت مخيفة مفجعة ، لم تطبق فيها قوانين الحروب ولا روعيت القيم الانسانية ، حتى أن (ميو) استلقى مغميا عليه لهولها وشدتها وهو أحد الضباط المسؤولين .

والتاريخ يدين بذلك الفرنسيين مرتين : في أمر الاعدام ، وفي طريقة تنفيذه .

---

(١) اميل لودفيغ : نابليون . ترجمة (عادل زعيتر) . ص (١٠٣) .

أما ثاني ما أخذ على بونابرت فهو أمره باعطـاء بعض جنوده المرضى بالطاعون جرعات من الافيون لتذهب بصوابهم وتخفف من آلامهم ، وتعجل في موتهم ، فأجابه الطبيب الذي صدر اليه الامر بشيء من الخشونة بأن مهمته أن يشفي المرضى لا أن يقتلهم (١) فقال نابليون بعد مدة (لو كان ابني بين أولئك المرضى ، لما كان رأيي غير ذلك) .

ولعل للقائد الفرنسي بعض العذر في هذه الحال ، فلقد شاهد العذاب الذي يتعرض له أولئك الجنود في نزعهم الاخير ، فأشفق عليهم وأراد وضع حد لآلامهم ، وغايته نبيلة يمليها عليه عطفه الذي استمال اليه الجند في كل حملاته .

وهذا العطف بالذات هو الذي حمل نابليون على التنازل عن راحلتـه للمرضى والامر بالمسير على الاقدام وتخصيص الرواحل للجرحى والمرضى ، وعندما رأى أحد ضباطه راكبا على حصانه أرغمه على النزول وأمر بأخـذ الحصان للمرضى بين تهليل الجند واستحسانهم ، وعندما دخل عليه سائس الخيل يسأله بكل احترام عن الجواد الذي يرغبه ، ألهب وجهه بضربة من سوطه وقال (يجب أن يسير الجميع على أقدامهم ... وانا في الطليعة) فسار على قدميه في طليعـة السائرين بين نوبات الحر ، وعصف الريح ، ولذعات الرمل المحرقة .

ومن الانصاف التذكير بأن أوامر بونابرت قبل دخول يافا كانت تقضي باحترام الاعراض والاموال والشيوخ والعجزة ، فلم يطع جنوده الامر في نشوة النصر ، ثم أصدر الاوامر المشددة الى جنوده حول عكا بمنع سرقة

---

(١) حسن جلال : حياة نابليون . جزء (١) ص (١٨٩) .

ماعز الاهلين وفواكه بساتينهم ، وحمل الضباط مسؤولية ذلك ، ولما لم ينصاعوا للامر كلف مورا قائد الفرسان بمراقبتهم وهدد من يقدم على النهب منهم بالاعدام رميا بالرصاص ، عندما كان الجند يقاسون ويلات الحصار ، ومناشير الانكليز تغريهم بالعودة الى أوطانهم سالمين .

• • •

أما نتائج حملة بونابرت فكانت جمة عظيمة الاثر .

نتج عنها أولا أن التعصب الديني ضد العالم المسيحي عاد الى أذهان الشرقيين مع صور عن الحروب الصليبية واعتداء الغرب على الشرق ، بل لقد عاش مماليك القرن الثامن عشر بمخيلتهم في القرن الثالث عشر ، فجهزوا الجند ليلقوا بالمعتدين على ديار الاسلام في البحر ، فاذا بهم يرتدون أمامهم منهزمين ، وتتسلسل الاحداث حتى يخرج الفرنسيون مع حمد الاهلين وشكرهم لله وفرحهم بزوال المكروه وعودة العثمانيين الى الحكم ، وهم بمساوئهم وظلاماتهم أفضل في نظر الشرقي المسلم آنئذ الف مرة من حكم الفرنسي الاجنبي الذي جاء لاذلال الدين وخليفة المسلمين .

ثم تلت ذلك موجة من الخوف استولت على قلوب الشرقيين من حكام وأفراد ، فنظروا بحذر الى القناصل والتجار الاجانب ، وأخذوا يستمعون الى نصائحهم ويعملون بها مكرهين . وشعر الغربيون بواقع الحال فاستغلوه ، ووفد تجارهم على الشرق يعبون من خيراته ويسيطرون على مقدراته حتى أضحى البعض يستجدي شفاعتهم لدى الحكام فتزلزل مكان السلطان ومركزه لاول مرة في نظر رعاياه ، وظهر ضعفه واضحا بعد أن كان يحاول ستره بمختلف الوسائط والاساليب .

ولم يعرف الشرق كيف يقاوم هذا التيار ، ولم يحاول الغرب ايقاظه من رقاده لانه كان يجني ثمرات هـذه الغفلة وتلك الحيرة ، فقاوم الحركات الاصلاحية ، وأخضعها لسيل من التعليمات وتقارير القناصل ، واتجهت أنظار العالم بشكل جدي الى هذه البقعة من الشرق القديم .

ولعل الاثر كان أعمق في نفوس الانكليز منه لدى الدول الغربية الاخرى ، اذ نميت الى الانكليز تفاصيل مشاريع بونابرت للوصول الى الهند والقضاء على هذه السطوة في المستعمرات (١) ، فقاوموها ما وسعهم ذلك ، حتى اذا ما زال عنهم الكابوس الرهيب ، أدركوا أن نجاحهم هذه المرة غير مضمون في كل مرة ، فقررت بريطانيا اقصاء كل دولة غربية عن هذه البقعة الحيوية ، ووضع المنافذ الى المحيط الهنـدي والشرق الاقصى تحت رقابتها ، بحيث تسيطر بشكل كامل على البحر الاحمر وخليج العقبة وخليج البصرة وكل من وادي النيل ووادي الفرات ، أو بعبارة أخرى : المحافظة على طرق الهند البرية والبحرية من كل عدوان أجنبي ، والتغلغل في هذه الطرق والسيطرة عليـها بشكل تدريجي .

الا أن الثقافة الفرنسية كانت قـد احتفرت لنفسها أساسات في مصر والشام ، فقد جاء مع نابليون علماء كان لهم أكبر الاثر في توطيد أركان الثقافة الفرنسية في هذين البلدين ، وأرسلت فرنسا بعد ذلك البعثات التبشيرية الى الشام تغذي بالثقافة الفرنسية قلوب المسيحيين من السكان مع تعاليم الدين وتوجيهاته ، فاستقبلها هؤلاء بصدور رحبة واستعداد سابق ، وتكلموا الفرنسية واقتنوا كتبها ، واتجه ساسة العرب وأحرارهم فيما بعد الى باريس يعقدون المؤتمرات ويصدرون النشرات .

---

(١) من رسالة بونابرت الى تيبو صاحب في (٢٥ كانون الثاني – يناير ١٧٩٩)

وحطمت الحملة الفرنسية قوة المماليك في مصر ، فمهدت بصورة غير مباشرة لظهور محمد علي ، وزحفه الى بلاد الشام ، فدك حصون السلطان ، وهزم جنوده ، ونشر تعاليم النظام الجديد بين السوريين مع جيوشه وقواده .

لقد كان لحملة بونابرت أبرز الاثر في الشام ، زرعت بذور خوفه من الغرب ، ونبهت مطامع هذا الغرب اليه ، وأذكت الثقافة الفرنسية فيه ، وزلزلت مركز السلطان في قلوب سكانه ومهدت لزحف محمد علي اليه ، ليسير الشام بعد ذلك في طريق اختطها لنفسه بعد أن هزه الفرنسيون من سباته العميق ، حتى بلغ أول الاهداف السامية بعد حوالي قرن ونصف القرن في استقلاله الناجز وحريته الكاملة .

* * *

الفصل الثامن

سورية والادارة المصرية

تنفس الامير بشير الصعداء عند موت الجزار ، وشعر بانه تحرر نهائيا من ذلك الكابوس المزعج الذي كان ينغص عليه أيامه ، وعندما وصله خبر تعيين ابراهيم باشا الحلبي واليا على دمشق وصيدا وطرابلس وتلقى أمر الدولة بالانصياع لارادته بادر الى تقديم المساعدة للوالي الجديد ، وحماية طريق جنوده الذين توجهوا لحصار (اسماعيل باشا) في عكا ، وتأمين المؤن والذخائر لهم .

وتلا ابراهيم باشا في ولاية الشام عبد الله باشا العظم ثم كنج يوسف باشا الذي اشتهر بقسوته في نابلس وبلاد النصيرية ، وحاصر مصطفى بربر في طرابلس ثم ارتكب نفس الفظائع في تلك المدينة عندما دخلها ، فشفع له والي صيدا سليمان باشا لدى الدولة لاعفائه من العقاب ، الا انه تقاعس في قتال الوهابيين ، وراح في كل هذه الغزوات يجمع الاموال الطائلة عدا تلك التي كان يجبيها من دمشق ، حتى ضجت البلاد منه ، وصدرت الاوامر السنية الى سليمان باشا الكرجي بحربه والقضاء عليه .

وسليمان باشا هذا كان من مماليك الجزار ، هرب منه ، ثم عاد اليه مستغفرا فسلمه صيدا ، ثم عينته الدولة على عكا بعد وفاة سيده ، فحكمها

بالشدة وأغدق الاموال على مقربيه ، واغتنم فرصة وجوده في الحكم فجمع الثروات الطائلة واحتكر بعض المواد ليبيعها الى الاجانب لحسابه الخاص . وقد قاتل (محمد آغا ابو نبوت) حاكم يافا وغزة عندما أراد هذا الاستقلال وأجبره على الهرب ، وتوسط لمصطفى بربر لدى الدولة ثم أرسله الى بلاد النصيريين اثر اعتدائهم على طبيب انكليزي ، فأخضعهم ، ولما بلغ الدولة ما بلغها من مساويء كنج يوسف باشا ، انتدبت سليمان باشا لقتالـه لانه (تربية الغازي الجزار ثم أحمد باشا حتى لايقال ان هـذا راح ولم يخلف انسانا) فزحف الى دمشق التي حاربت مع واليها وهزم جيوش كنج يوسف باشا الذي هرب الى مصر حيث استصدر له محمد علي عفوا من السلطان ، وتولى سليمان باشا باشوية دمشق ، وصادق الامير بشير وعلا اسمه فيأنحاء البر الشامي حتى توفي سنة (١٨١٩) فأسفت الدولة لموته لانه نشر الامن وحكم بالعدل ، ولو أنه جمع ثروة طائلة من أموال الناس شأن كل وال آنئذ وكل وزير .

وفي خلال كل ذلك ظهرت دعوة جديدة في أراضي شبه الجزيرةالعربية ، تسنى لها أن تنمو وتترعرع ، ثم تتجه الى الشمال ، تلك هي دعوة محمد بن عبد الوهاب الذي رأى انتشار كثير من البدع والمفاسد التي تفرض وتشيع باسم الدين ، فعزم على تطهير أبناء جلدته من كل دخيل ، وتطبيق تعاليم الاسلام كما وردت في الشرع الشريف ، وقالت عنها بعض المصادر الاجنبية انها كانت ترمي الى تنصيب خليفة عربي بعد خضوع العرب مـدة طويلة للاستغلال الاجنبي (١) ، وقد وجد آذانا مصغية فيالسعوديين أمراءالدرعية ،

---

(1) Archives Françaises : Correspondance politique. Turquie Vol. 216. F. 233. Document No. 6 de Jean Raymon au ministre des relations extérieures. 30 - mai - 1808.

وسرعان ما انضمت اليهم قبائل نجد ، واستولى الوهابيون على مكة وجدة والمدينة فهدموا القباب فوق الاضرحة وأزالوا معالم الزينة من قبر الرسول وأجبروا في مكة أمير الحج الشامي على دفع مبلغ معين عن كل حاج في معيته ، والارتداد من حيث أتى ، كما استولوا شمالا على كربلاء واخترموا حرمة قبر الحسين في (٢٠ نيسان ــ ابريل ١٨٠٢) ثم زحفوا الى الشام في (١٨١٠) ، واستطاعوا الوصول الى حلب شمالا رغم المقاومة المستميتة التي أبدتها دمشق (١) . وقد أوكلت الدولة الى محمد علي أمر القضاء على الحركة فوفق في المهمة رغم الصعوبات الجمة التي اعترضته ، وأعاد للخلافة هيبتها وحمايتها للحرمين الشريفين ، الا ان الحركة كانت قد لفتت أنظار الاوربيين الى شبه الجزيرة العربية ، ورفع انتصار مصر وقضاؤها على الحركة من مكانتها الدولية آنئذ ، فبدأت دول الغرب تتحسس هذه القوة الجديدة الآخذة بأسباب النهوض والارتقاء .

وتوجهت عينا محمد علي الى الشام مرة أخرى تمعنان النظر ، فاذا بالقتال يستعر فيه والخلاف ينشب ، واذا بالامير بشير يغادر امارته نتيجة لارهاق عبد الله الجزار والي عكا له وطلباته الكثيرة منه ، ثم يعود اليها بدعوة من الزعماء البارزين .

أما عبد الله الجزار هذا فقد تولى الساحل الشامي سنة (١٨٢١) وهو حدث صغير السن ، فملأت مخيلته أحلام وأوهام ، أقربها الاستقلال بالشام ، وأبعدها خلع السلطان وجعل عكا مركز الخلافة بدلا من القسطنطينية ، ولم تكن تلك النوايا لتخفى على السلطان ، ولم يكن عبد الله نفسه ليكتمها ، وسرعان ما أغرى السلطان والي دمشق بباشا عكا ، واصطدم الطرفان .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية . الترجمة العربية . جزء (٤) ص (٢٢) .

وكانت ولاية دمشق في يد درويش باشا الذي اعتدى على أملاك الامير بشير الثاني في البقاع ، الامر الذي جعل هذا الاخير ينضم الى صف والي عكا في ذلك الخصام ، وتكشفت المعركـة بين الطرفين عن انتصار الجزار وبشير ، وانكسار والي الشام ، فخشيت الدولة قوة الجزار وامتداد نفوذه ، وأوعزت الى ولاة حلب وأضنة بمحاربته ، واعتصم والي عكا منهم بقلعتـه الحصينة وأرسل يطلب النجدة من محمد علي ثم من الامير بشير الذي اضطر الى الرحيل عن امارته بعد أن ضيق الولاة عليه الخناق ، فاستدار الجزار مرة أخرى الى سيد مصر يستجدي منه العون وهذا يفكر في الامر بأناة ، حتى أيقن بفائدة مساعدته لهذا المستعطف الملحاح وشفع له لدى الباب العالي فقبل الشفاعة ، وعفا عن الجزار وأعاد بشيرا الى ولايتـه ، وبذلك أصبح لمحمد علي يدان في كل من حصني الشام المنيعين : عكا ، وجبل لبنان . أما بشير فقد حافظ على صداقته مع والي عكا وصيدا ، يطمئن بها على امارته ويستعين على أعدائه ، واغتنم فرصة فرض اتاوة للسلطان على سيد عكا بعد العفو عنه ـ وكان عليه منها مبلغ كبير ـ ففرض على خصمه الشيخ بشير جنبلاط الف كيس (الكيس ٥٠٠ قرش) فثار هذا ، وانضم الجزار الى بشير لان الاموال كانت تجبى لمصلحته ، ولان محمد علي كتب يطلب اليه مساعدة بشير ، فهزم الحليفان أتباع الشيخ الدرزي في ١٨٢٥ وساقوه الى عكا حيث لقي حتفه خنقا على أبشع وجه . وهكذا أصبح محمد علي يتدخل في شؤون الشام ، ويتخذ الاصدقاء ، وقد صرح للمبعوث العسكري الفرنسي لديه بأنه ينوي استخدام هؤلاء الاصدقاء (الذين يدينون له بوجودهم) عند زحفه على الشام (١) .

(1) Archives du Ministère de la Guerre. Carton Egypte, 1677. Rapport du général Boyer , (le 8 - Octobre - 1825).

وأوجبت هـذه الصداقة على أمير لبنان الزحف الى نابلس المتمردة لاخضاعها ، وكان المطلوب منها (٦٠٠) كيس عندما كانت تابعة لدمشق ، فتعهد عبد الله الجزار برفع عائداتها الى الف كيس اذا أوكل أمرها اليه ، فثارت ، وسار اليها الوالي الطموح وحليفه الشهابي فأخضعاها ، وحصلا منها على ما وصلت اليه اليدان .

الا أن مطالب عبد الله الجزار المرهقـة ، وانفراده بمظاهر النصر على نابلس دون حليفه الامير بشير سرعان ما خلقت بين الرجلين شيئا من الفتور استغله محمد علي فيما بعد ليضمن بشيرا الى جانبه في موجة السخط التي انتابته ازاء تصرفات الجزار الشاذة الناكرة للجميل .

وكانت الدولة العثمانية تتخبط في مآزق حرجـة ، فقد عمت الفوضى وانتشر الاضطراب ، وانتقصت الحملة الفرنسية من هيـبة السلطان في نظر رعيته التي خاف بعضها على نفسه ، وطمع البعض الآخر في الحرية والانفصال ، تشجع المسيحيين منهم دول أوربا وتؤيدهم ، بينما راح المادحون والهازجون يتغنون بمجد سلف ، وماض زال ، وشعوب الرعية تثور اما طلبا للاستقلال كاليونان ، واما طلبا للاصلاح وايقاظ الدولة الاسلامية ، كأنصار الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية .

وهذا الشعور بالاصلاح نفسه اعتمل في قلوب السلاطين ، فسارع سليم الثالث الى التجديد ، وأنشأ جيشا جديدا ، ونشبت معركة بين القديم والحديث انتهت بقتـل السلطان ، وتسنم مصطفى الرابع عرش السلطنـة بين سنتي ١٨٠٧ — ١٨٠٨ استولى بعدها محمود الثاني على مقاليد الحكم ، وكان متشبعا بأفكار سليم ، فقضى على الانكشارية ، وشـرع في انشاء الجيش

الحديث الذي دربه ضباط أوربيون ، واعاد النظر في النظام الاداري ، فاذا بالصعوبات تكتنفه من كل جانب ، وتوقفه في منتصف الطريق .

كانت أولى تلك الصعوبات تعصب كثير من العلماء وثورتهم على من يقتبس عادات (النصارى) ليشيعها بين (عباد الله الاتقياء) ، وثانيتها اتساع رقعة الامبراطورية وعدم الانسجام بين أفرادها وشعوبها ، وثالثتها الافتقار الى الاعوان المخلصين الراشدين الذين يطرحون المصالح الشخصية والمادية ليرتفعوا بهذه الدولة الى القوة والرفعة . وفوق كل هذا وذاك ، كانت الثقة معدومة بين الحاكمين والمحكومين ، وكانت خزائن الدولة فقيرة عاجزة عن تمويل الاصلاح والانفاق عليه ، بينما تعاقبت الحروب ضد أوربا وخصوصا روسيا ، وضد الثوار وخصوصا الوهابيين واليونانيين ، تلك الحروب التي لم تترك للدولة العثمانية فرصة للاستقرار والاصلاح .

هذه كانت حال الدولة عندما نشبت الحروب بينها وبين محمد علي ، فوضى في كل مكان ، وثورات في كل مكان ، وعجز عن الاصلاح لوجود موانع قوية تحول دونه ، أما الشام بشكل خاص فقد أرسل اليها السلطان واليا جديدا (سليم باشا) ، فأراد هذا زيادة الضرائب على السكان وارهابهم بقتل بعض زعمائهم مبتدئا بحماه ، وهنا ثارت ثائرة الاهلين ، وهاجموا الباشا الذي تحصن بقلعة دمشق ثم حاول الهرب منها ، فقبضوا عليه وقتلوه ، ونصبوا حكومة موقتة ، وباتوا ينتظرون قضاء الاستانة فيهم .

. . .

وكان محمد علي قد استقر في ولاية مصر ، بعد أن قضى على أعدائه من المماليك ، واجتاز أزمة نزول الانكليز في الاسكندرية سنة (١٨٠٧) بسلام ،

فأقام أنظمة اقتصادية وادارية ثابتة ، وكون جيشا حديثا قويا على الطريقة الفرنسية ، حسب رغبته التي عبر عنها بوضوح منذ أن قابل المبعوث العسكري الذي أوفدته اليه فرنسا لتنظيم جيشه (١) ، وابتنى لمصر اسطولا محترما ، وحارب بكل ذلك الى جانب السلطان في الجزيرة العربية فقضى على الحركة الوهابية ، وفي اليونان التي أخمد ثورتها ، وابتدأت تراوده أحلام جميلة ببناء امبراطورية له ولسلالته من بعده ، أو على الاقل النهوض بهذا الهيكل البالي واعادة الحياة اليه ، فمد سلطانه الى السودان وبلاد العرب ، وامتدت عيناه الى بر الشام الخصيب .

وكان الدافع الكامن وراء كل محاولات الباشا للاستقلال ، تلك الغريزة التي تدفع بالانسان الى الكفاح والنضال في سبيل الحياة والبقاء ، فقد كان محمد علي يشعر دائما بما يحاك له في القسطنطينية من مكائد وما ينفث في أذني السلطان من سموم أدت سنة (١٨٠٦) الى محاولة اقصائه عن مصر الى سالونيك ، وسنة (١٨١٣) الى تغيير مبعوثه الى السلطان (لطيف بك) عليه ، بعد عودة هذا من القسطنطينية حيث سلم السلطان مفاتيح الحرمين الشريفين واجتمع الى بعض أعداء سيده شخصيا ، حتى بدا من تصرفاته ما يشعر بخروجه عن طاعة محمد علي ، وشاع في القاهرة بان لطيفا جاء الى مصر مزودا بما يلزم للقيام بانقلاب ضد مولاه القديم . بل لقد حاولت السلطات العثمانية في القسطنطينية بث التفرقة بين محمد علي وابنه ، فعينت الابن سنة (١٨٢٩) حاكما دون أبيه ، وقيل أن السلطان حاول تسميم محمد

---

(١) وثائق وزارة الحربية الفرنسية . مصر . من رسالة الجنرال بوابيه الى (كليرمون دولاتونير) وزير الحربية الفرنسية . الاسكندرية في (١ كانون الاول – ديسمبر ١٨٢٤) .

علي عن طريق احدى الجواري التي أرسلها هدية اليه (١) ، وكان في تعيين خسرو عدوه اللدود صدرا أعظم واعتماد السلطان عليه ، أكبر ما حمل الوالي على التفكير في الاستقلال والدفاع عن كيانه وولايته وحياته .

وفي سبيل ذلك ، عمد محمد علي الى احياء القوى الكامنة في مصر ، واتباع سياسة اقتصادية تدرعليه الاموال اللازمة لتجهيز جيش كبير ، واسطول ضخم وتأمين باشويته بالاستيلاء على منافذ السلطان اليها اذا مافكر في ذلك.

أما بناء الاسطول ، فيحتاج الى أخشاب الشام وغاباته ، لان مصر ، على غناها بالمواد الغذائية ، كانت لاتستطيع تأمين هذه المواد الاولية اللازمة ، وكذلك بلاد السودان التابعة لها ، بالاضافة الى صعوبة نقل الاخشاب مما وراء شلالات النيل ، على حين كانت الشام غنية بالغابات خصوصا في قسميها الجنوبي والغربي ، على سفوح جبال الكرمل ولبنان واللاذقية وانطاكية والامانوس حتى اضنة التي كان فيها مايزيد على (٥٠٠,٠٠٠) هكتار من المساحة المشجرة بشكل جيد ، وكانت مصر بحاجة الى هذه الاخشاب لصناعة السفن ، كما كانت أشجار التوت في لبنان جد ضرورية لصناعتي الفحم والبارود .

وأما تجهيز الجيش فيحتاج الى رجال أشداء ، وكان محمد علي بحاجة الى المزيد من أولئك الرجال بعد الخسائر التي مني بها في بلاد العرب والسودان والمورة ، فطلبهم في السودان ، فاذا بالسودانيين لا يستطيعون تلبية ندائه ولا يستطيعون تحمل الشتاء القارس واقليم البحر المتوسط ، حتى مات أكثر من أرسل منهم الى المورة في الطريق ، وشعر الوالي الطموح بحاجة الى رجال الشام المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم على الحرب ، خصوصا

(1) Michaud et Poujoulat : Correspondance d'Orient. P. 263.

من سكن الجبال منهم ، لدعم جيشه والدفاع به عن كيانه وتنفيذ مشاريعه ، وقد صارح الجنرال بوابيه بذلك في أوائل حزيران (١٨٢٥) في اجتماع سري طويل (١) .

وكانت سورية غنية ببعض المواد التي يمكن أن تدر على الباشا أموالا تكفي لتمويل هذا الاسطول وذلك الجيش وتلك المشاريع ، وخصوصا الحرير الذي بلغ ما صُدِّر منه الى وادي النيل خلال السنين العشر الواقعة بين سنتي ١٧٨٩ — ١٧٩٩ حوالي (٢٩٠٠٠) رطلا من اللاذقية و (٣٢٠٠٠٠) رطلا من بيروت وطرابلس مجتمعتين ، و (٤٠٥٠٠) رطلا من صيدا وصور ، عدا الالبسة الحريرية الجاهزة التي صدرت منها دمشق (٣١٠٠٠) قطعة (٢) مما اشتهرت به دمشق كما اشتهرت بيروت بصنع الحقائب الحريرية وحلب بالالبسة الحريرية المذهبة .

وكانت مصر في أشد الحاجة الى زيتون الشام وزيته بعد أن فشلت زراعته حوالي الفيوم والقاهرة في مضاهاة الزيتون الشامي في الكمية والنوع ، فاضطر محمد علي الى استصدارها من الشام ، واستجلاب الصابون الجيد الذي كان يصنع منه ، والذي صدرت فلسطين منه سنة (١٧٩٩) ما يقرب من (٩٠٠٠) قنطار ، وذلك لتموين جيشه ومؤسساته وقصوره وبعض صناعاته كصناعة الطرابيش . هذا عدا المواد الاخرى كالتبغ الذي يؤكد (كارن) استعماله سنة (١٨٢٠) بين الرجال والنساء على السواء (٣) والذي كان المصريون يفضلون السوري منه على المصري ، حتى بلغ ما استورد منه سنة (١٧٩٩) نحو (١,٦٠٠,٠٠٠) رطل من اللاذقية فقط .

---

(١) من تقرير الجنرال بوابيه الى وزارة الحربية الفرنسية عن مشاريع محمد علي . في (٨ تشرين الاول — اكتوبر ١٨٢٥) .

(٢) الدكتور أسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا . ص (٧٢) .

(3) Carne : letters from the East (P. 111 - 112).

لقد كان التبادل التجاري بين الشام ومصر في النصف الاول من القرن التاسع عشر يجري على نطاق واسع ، فكانت سورية تستورد من مصر الارز والسكر والتمر والقمح والسمسم والنيلة والاسماك المملحة واللؤلؤ والاقمشة القطنية والصوفية ، وكانت تصدر الى مصر الحرير والقطن والزيتون وزيته والصابون والتبغ والفواكه المجففة والنبيذ وعسل النحل والخيل وجلود الماعز وغيرها ، فاذا استطاع محمد علي أن يحتكر هذه الاصناف في سورية ، أو المهم منها على الاقل كما فعل في مصر ، توفر لديه مبلغ كبير يسهل أمامه جميع الصعوبات ، بالاضافة الى الاموال التي تدرها عليه هـذه البلاد باعتبارها منفذا هاما لتجارة آسيا الوسطى والهند والاناضول .

وفوق كل ذلك ، كانت سورية أحسن موقع استراتيجي يحمي امبراطورية محمد علي الافريقية ، ويرد عدوان السلطان عنهـا ، فهناك أولا ممر بيلان الوعر الضيق الذي يمكن أن يعد خط الدفاع الاول ، وسلسلة جبال لبنان الخط الثاني ، ثم الكرمل وصحراء سيناء الخطين الثالث والرابع ، وهي مواقع طبيعية يصعب اجتيازها ـ اذا حصنت ـ على أي جيش يزحف من الشمال . وهناك ثانيا ذلك الساحل الطويل الذي يجنب مصر بالاضافة الى جزيرتي كريت وقبرص ، أي غزو بحري يمكن أن تتعرض له .

وبعد .. فان سورية يمكن أن تكون مصدر متاعب ومقر دسائس لانهاية لها تحاك ضد محمد علي ، وقد أدرك هو هذه الحقيقة منذ السنين الاولى لتوليه باشوية مصر ، وكتب الى الباب العالي في ٢٥ شعبان ١٢٢٥ (٢٥ ايلول ١٨١٠) متذمرا من اتصال سليمان باشا والي صيدا بالمماليك واستشارتهم ضده ، ويرى بان (مصلحة الحجاز تقضي بابعاد سليمان باشا عن منصبه) (١) ،

---

(١) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . جزء (١) ص (١) .

كما ادرك ان الشام يمكن ان يكون مقرا للمهربين ومركزا لقطع الطريق على التجارة المصرية ، وكتب الى نجيب افنـدي ـ رسول السلطان اليه ـ في ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م يشكو اعتداء بعض (عربان غزة) على بضائع من الهند كانت تجتاز السويس الى مصر (١) ، أي انه كان يرى ان بلاد الشام مكملة لمصر ومفتاح لها ، لايطمئن القائد الا اذا جمع بين البلدين ، ليؤمن التجارة ، ويصون الحدود ، ويضمن حفظ النظام في ربوعهما معا ، وقد نصحه الجنرال بوابيه ـ مبعوث فرنسا العسكري لديه ـ بناء على توصية من باريس ، بان عليه أن يقوي جيشه ، وبدلا من التضحية في مقاطعات لن تكون له قط كالمورة مثلا ، فان عليه ان يستخدمه في مناطق حيوية ذات فائدة له كسورية وآسيا الجديرتين بان تكونا مسرحا لامجاده ، وان يشكل هناك حكومات عادلة تحمي مختلف المصالح وهناك يستطيع ان يؤسس امبراطورية لاينازعه عليها منازع (٢) .

لهذا كله حق لمحمد علي ان يرمق الشام بعين حالمـة ، واهتمام بالغ ، ويتدخل في شؤونها ، فيخطب ود الامير بشير ويشفع لكنج يوسف باشا ، ويمد يده لانقاذ عبـد الله الجزار من محنته الصعبة ثم يبث فيهـا العيون والارصاد ، يزودونه بالاخبار ، ويسخر في العاصمة من يبث الفكرة في اذني السلطان ، ثم يخطو الخطوة التالية ، فيطلب الشام رسميا منه ثمنا لتدخله في اخماد ثورة اليونان ، فيقبل السلطان ، ثم يحجم عن ذلك وينكث بوعده ويجيب من عرض القضية عليه (اذا أحلنا هذه البلاد الى عهدة محمد علي

---

(١) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . جزء (١) ص (٩) .

(٢) وثائق وزارة الحربية الفرنسية . الوحدة الوثائقية : مصر (١٦٧٧) . من رسالة الجنرال بليار الى الجنرال بوابيه في (١٠ شباط ـ فبراير ١٨٢٦) .

باشا واضطررنا فيما بعد أن نعزله عنها فهل يخرج منها ؟) (١) ، ويكون ذلك من اسباب استياء محمد علي وعزمه على احتلال الشام بالقوة .

والظاهر .. ان السلطان محمود الثاني الذي كان يحاول الاصلاح في بلاده استاء لتصرفات محمدعلي الخاصة ، ومفاوضته بعض الدول على انفراد ، كما ادهشته تلك القوة التي بدت على الجيوش المصريـة في بلاد العرب والسودان واليونان ، ومظاهر الاستقلال التي أخذت تبدو على مصر في عهده والتي تجرد الخلافة من ممتلكاتها اذا ما اقتبستها سائر الممتلكات عن مصر واحدة اثر اخرى ، فاستمال عبد الله الجزار والي صيدا وعكا اليه ، وابتهج هذا لفكرة السلطان التي تجعله في مقام محمد علي سواء بسواء ، فتحداه ، حتى زحف هذا بجيوشه اليه ، يحاربه ويحارب السلطان اذا حاول مؤازرته .

وقد تجلت مظاهر هذا التحدي أولا في مصادرة الجزار بعض بضائع التجار المصريين بحجة أنها تخص تجارا من نابلس ، فكتب محمد علي الى استامبول يشكو سيد عكا ويطلب استبداله بغيره ، وينوه بمدى خسارة الخزينة المصرية من مثل هذه المصادرات ، وتجلت ثانيا في تلك المراسلات المتبادلة بين محمد علي وبعض زعماء اليونان التي ضبطها الجزار وأرسلها الى السلطان ، فكتب هذا الى والي مصر يؤنبه ويضمر له السوء ، وفي امتناع الجزار عن وفاء دينه لمحمد علي الذي بلغ (١١,٠٠٠,٠٠٠) قرش سنة ١٨٣١ .

أما السبب المباشر للحرب فهروب بعض فلاحي اقليم الشرقية من الجندية

---

(١) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . الجزء الاول ص (١٠٠) من كتاب محمدنجيب افندي الى محمدعلي في (٢٧ جمادى الاول ١٢٤٣) الموافق (٢٧ كانون الاول ١٨٢٦) .

وبقية الاعباء الى بر الشام ، ولما كتب محمد علي الى عبد الله الجزار يطلب اعادتهم ويهدد بارسال بعض موظفيه لذلك ، أجابه عبد الله بأدب وبرصانة خالية من المجاملات بانهم لم يخرجوا عن ارض السلطان ، ويذكره بأن تدخل ولاية في شؤون ولاية أخرى أمر لايقره العرف ولا يرضى عنه الباب العالي ، فعرف محمد علي بان كل جهوده لاستمالة الجزار قد ضاعت هباء وأن عكا قد خرجت من يده ، واعتمل في نفسه الغضب والحقد على من استمد منه العون المالي والعسكري ليبقى في ولايتـه ، ثم تنكر له ، وعبث بوعوده وعهوده ، وشعر والي مصر بضرورة العمل العسكري ، خصوصا وقد أنبأه عيونه في الشام ان الاضطراب في دمشق على أشده وان الاهلين ثائرون على سليم باشا واليهم ورجال الدين ينقمون على السلطان محمود ويأخذون عليه اقتباسه عادات الغربيين ونشرها في ديار الاسلام المنيعة الطاهرة ، ولعله كان واثقا من نزاعه مع السلطان في يوم من الايام فأراد هذا النزاع في أرض بعيـدة عن مصر ، أراده في الشام كان دائما محط انظـاره والذي طالما هفت اليه الآمال .

أما السلطان فقـد آزر صاحب عكا ، وكتب احمد خلوصي باشا في ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٧ (١٢ آب ـ اغسطس ١٨٣١) الى والي دمشق (... فقد صرف النظر عن اعطائه النيشان العالي ... فمن المستحسن الا تقطع العلائق الحسنة والالتفاتات الشاهانية دفعة واحدة بل يلزم ان يكون ذلك تدريجيـا وان نسعى سعيا حثيثا لحمله على الرجـوع الى الطريق المستقيم) (١) .

. . .

(١) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . جزء (١) ص (١٢٤) .

وهكذا وقعت الواقعة ، وزحفت الجيوش المصرية الى الشام .

تحركت هذه الجيوش الى الشمال عن طريقي البر والبحر ، متبعة نفس الخطة التي اتبعتها القوات الفرنسية من قبل ، ففتحت يافا بعد ان دخلت غزة ، ثم احتلت حيفا والقدس ونابلس ، وألقت على عكا حصارها القاسي الطويل .

وكان عدد أفراد الحامية التي قبعت وراء اسوار تلك المدينة المنيعة يقرب من ستة آلاف جندي ، تعتمد على مدافع ضخمة وخبراء اوربيين واسوار حصينة ، أما الجيش المصري فكان يقرب عدده من (٢٤٠٠٠) جندي تمركزوا حولها وأخذوا يقذفونها في التاسع من كانون الاول — ديسمبر ١٨٣١ بوابل من القنابل من كل جهة ، يؤيدهم اسطول بحري قوي أبرزه خمس سفن ضخمة كل واحدة منها مجهزة بمائة مدفع عدا القطع الاخرى والطرادات التي أكملت من البحر الطوق الذي ضربه ابراهيم باشا على المدينة من البر ، فدافعت المدينة بقوة ، وانسحب الاسطول ، واستمر الحصار على اشده .

وفي خلال ذلك ، وصل الى الاسكندرية مبعوثو الباب العالي لاجراء مفاوضات مع محمد علي الذي استقبلهم في (٢٨ كانون الاول — ديسمبر ١٨٣١) وعرض شروطا أعلن الباب العالي أنها غير مقبولة بأي شكل من الاشكال (١) .

وشعر القائد المصري بان الحصار طويل ، فكتب الى الامير بشير يستدعيه ، واستقبله حين قدومه استقبالا حافلا ، ثم اتفق معه على أن تؤمن

---

(١) الوثائق البريطانية . الوحدة (٧٨) . المجموعة (٤٧٢) ١٨٣١ — ١٨٣٣

قواته مؤن الجيش المصري وتقدم له المساعدات . وكان عبد الله الجزار قد تملكه اليأس فرفع الاعلام البيضاء اشارة الاستسلام ، وبدأ مع ابراهيم مفاوضات انقطعت فجأة بعد ان وصلت الى الوالي أخبار الباب العالي بأن المؤن والذخائر في طريقها اليه .

أما عثمان باشا الذي عين حاكما لطرابلس فقد وصل اليها ومعه (٥٠٠٠) جندي تركي ، وأدرك ابراهيم أن (الدولة العليـة) تحاول حشد أقصى ما تستطيعه لحربه ، فترك عكا ، وقصد طرابلس ثم حمص عندما فر عثمان اليها ، وهناك مزق جيشه وعاد الى عكا بفكرة جديدة ، فكرة انهاء الحصار قبل ان تجتمع ضده قوات عثمانية اخرى ، وضرب عكا على أحدث وسائل الحصار المعروفـة التي كان يعرفهـا بعض الاختصاصيين الايطاليين الذين اشتركوا معه في حرب اليونان ، والذين كانوا آنئـذ في مصر ، فأرسل يستقدمهم ويضع أمور الحصار بين أيديهم .

وأدى ضرب عكا على الطريقة الحديثة الى فتح ثغرة في السور اندفع منها الجنود في (٩ آذار – مارس ١٨٣٢) الى داخل المدينة لتستقبلهم اسلحة الحامية ونيران السكان ، فيخشى القادة العاقبة ويأمرون جنودهم بالانسحاب بعد ان عرفوا ان مقاومة المدينة آخذة في الانهيار .

أما الباب العالي فقد روج الاشاعات المختلفة ضد المصريين ، ولم يذكر لابراهيم ولا لمحمد علي اسما في قائمة التوجيهات (جدول باشوات السلطنة) التي صدرت عنه في عيد الفطر ، الامر الذي فهم منه العزم على محاربتهما بعناد ، ثم عمد الى جمع المجلس الشرعي ليصدر هذا المجلس في (٢٧ نيسان – ابريل) الفتوى التالية : (حيث ثبت خروج محمد علي وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق

عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف أولا : تجريد محمد علي وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان) • ثم أصدر أمره بتعيين حسين باشا القائد العام لجيوش الدولة حاكما لمصر وكريت والحبشة ، وبذلك عبر بكل الوسائل عن نقمته على والي مصر واستيائه منه ، مما أشعر ابراهيم بضرورة شن هجوم حاسم على المدينة لانهاء هذا الحصار الذي طال أمده ، ولاكته ألسنة السوء من قريب ومن بعيد •

وقد بدأ هذا الهجوم بالفعل في (٢٧ ايار — مايو ١٨٣٢) من ثلاث جهات ، تمكن ابراهيم بنتيجته من احتلال أحد خانات المدينة ، وجعله نقطة انطلاق اساسية لقواته ، ومن ثم تدفق الجنود الى المدينة حتى ادرك السكان أن النهاية قد أزفت ، فطلبوا الاستسلام ووافق ابراهيم على ذلك شريطة ان يلقي الجميع سلاحهم في الحال ، ووقف القتال بالفعل وتم احتلال المصريين للمدينة ، فرمموا حصونها ودعموها بالمدافع تمهيدا لجعلها مركزا رئيسيا للقائد العام في الشام ، أما الجزار فقد قبع في بيته حتى اقتاده جنود ابراهيم باشا اليه ، فاستقبله بأدب ، ثم أرسله الى أبيه الذي قابله برحابة صدر وأنزله في دار الضيافة حتى كانون الثاني — يناير (١٨٣٣) حيث غادر مصر الى الاستانة ، مع جواهره وكنوزه التي لم يستول عاهل مصر على شيء منها •

ورأى ابراهيم أن يستفيد من الوقت ، وكان اخوه عباس قد احتل الثغور كبيروت وصيدا ، فزحف بجيشه الى دمشق ، ودخلها بعد معركة قصيرة قرب المدينة ، ثم اسرع الى حمص حيث احتشدت جيوش باشوات حلب وقيسارية ودمشق وطرابلس وغيرهم ، وكانوا لاهين بمظاهر الوجاهة والعظمة وتبادل

الزيارات والمجاملات عندما فاجأتهم القوات المصرية في (٨ تموز – يوليه ١٨٣٢) ، فأمعنت في قواتهم قتلا وجرحا ، حتى بلغ عدد قتلاهم (٢٥٠٠) في حين لم يزد قتلى الجيش المصري على (١٠٢) قتيلا ، وكانت الهزيمة ساحقة قضت على ثاني جيش تركي أعدته السلطنة لمقاومة جيش مصر الفتي القوي ، ولم يبق الا القوات التي ارسلت مع حسين باشا بعد ان خلع عليه السلطان ووضع فيه كل الآمال ، وبعد اسبوع كان المصريون يدخلون حلب بين ترحاب الاهلين الذين كانوا قد رفضوا تقديم المؤن للجيش التركي .

أما حسين باشا فقد تمركز في بيلان ، وسلط من مرتفعاتها المدافع ووزع في بقاعها الجنود ، وبات ينتظر قدوم الجيش المصري الذي ما لبث أن وصل في (٢٩ تموز – يولية ١٨٣٢) حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، ووقف قائده العام يرقب الموقع بخبرته الفنية الطويلة ، فلاحظ أن القيادة التركية قد أهملت بعض المرتفعات التي يجب احتلالها للسيطرة على الموقف ، وحصر العدو بين نارين .

وقد تمت الخطة بنجاح . اتجهت بعض القوات الى تلك المرتفعات لاحتلالها بينما حول ابراهيم انتباه الاتراك الى جهة ثانية ، وانطلت الخدعة وقام المصريون بحركة التفاف جعلتهم يسحقون الاتراك ويهزمون فلولهم ويغنمون منهم (٣٩) مدفعا بالاضافة الى الذخائر والمعدات الاخرى .

وهكذا أصبح دخول المصريين لسورية حقيقة واقعة غير قابلة للتغيير ، فكتب وزير الخارجية الفرنسية الى ممثله يأمره بنصح محمد علي بالتعقل والحكمة ، ويقول : ان محمد علي ، وقد أصبح سيد سورية ، يجب أن يعرف كيف يقف في الوقت المناسب . ان قلب الامبراطورية العثمانية سيكون

له نتائج دولية خطيرة للغاية (١) • ولم يلبث الجيش الظافر ان دخل آدنه ، حيث توقف بناء على أوامر من محمد علي الذي كان ينتظر تأييد الدول ، ثم تابع الزحف الى كوتاهية حيث دمر الجيش العثماني الذي أعده السلطان بقيادة رشيد باشا ، وهدد بروسا وأصبح طريق العاصمة ممهدا أمام قواته الزاحفـة •

ههنا سارعت الدول الى التدخل ، وشعر السلطان بحرج الموقف ، فجمع وزراءه وأعوانه ، وقرر الجميع ضرورة التفاهم مع محمد علي (٢) وكلف الديوان العثماني (البارون دو فارين) القائم بالاعمال الفرنسي في القسطنطينية أن يكتب الى ابراهيم باشا يرجوه فيها ان يوقف زحفه ، وان ينتظر تسوية النزاع بالطرق الدبلوماسـية ، فكتب الممثل الدبلوماسي الفرنسي الرسالة المطلوبة الى ابراهيم ، وأرسل في الوقت ذاته رسالة سرية الى سليمان بك (الكولونيل سيف) الفرنسي الاصـل والذي كان رئيس اركان ابراهيم ومستشاره الخاص لحمل ابراهيم على التوقف ، فأجابه الكولونيل الفرنسي (والاجنبي يرجع دائما الى أصله وبني جلدته مهما بلغ من احسان الآخرين اليه) يشرح له اسرار ابراهيم ويقول انه لايستطيع من نفسه ايقاف الزحف ،

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . المراسلات السياسية . مصر . من رسالة وزير الخارجية سباستياني الى القنصل الفرنسي بالاسكندرية (ميمو) في (١٣ ايلول – سبتمبر ١٨٣٢) .

(٢) تتفق الوثائق البريطانيـة (المجموعـة ٧٨ . اضبـارة ٢٢١ . كانون الثاني يناير ١٨٣٣) والوثائق النمساوية (مستشارية الدولة : قسم المراسلات . القسطنطينية ١٨٣٣) على أن السلطان قد اتخذ هذا القرار بتاريخ (٢ كانون الثاني – يناير ١٨٣٣) بعد أن يئس من المساعدة البريطانية .

ويرجوه ان تبقى محتويات الرسالة فيما بينهما (١) .

وأسفر كل ذلك عن معاهدة كوتاهية التي عقدت في (١٦ ايار - مايو ١٨٣٣) بين السلطان ومحمد علي بعدمفاوضة طويلة تخللتها ملابسات أحقدت الانكليز على العاهل المصري وأشعرتها بان تأثير محمد علي ووجوده هو الذي حدا بالدولة الى طلب النجدة من الروسيا وتجول الاسطول الروسي في مياه البوسفور ، وقد نصت على اعطاء محمد علي ولاية سورية طيلة حياته ، كما اعطت لابنه ابراهيم تحصيل أموال آدنة وقبل بها السلطان تحت ضغط فرنسا وانكلترا . وقع السلطان المعاهدة ، الا انه نفث فيها بغض الانكليز لمحمد علي عندما أتبعها بمعاهدة هنكار اسكلهسي في (٨ تموز - يولية ١٨٣٣) التي تجعل من روسيا بمثابة حامية الدولة العثمانية مقابل اغلاق هذه مضايقها في وجه الدول عند الحاجة (٢) .

. . .

وابتدأت الادارة المصرية لسورية .

رضي الاهلون عن هذه الادارة في البدء ، رضوا عنها لانها انقذتهم من بطش ولاة الاتراك وسوء ادارتهم ، رضوا عنها لانها أزالت عنهم كابوس ذلك الجيش الذي كان السلطان قد ارسله ليحارب بونابرت ، ثم بقي في

---

(1) Archives Françaises. A. E. (Vol. No. 1. des mémoires et documents relatifs a l'Egypte), du colonel Sève au Baron de Varenne, 17 - Janvier - 1833.

(٢) نشر نص معاهدة هنكار اسكلهسي في القسم الثالث من كتاب (العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا) للمؤلف .

الشام يرتكب الفظاعات ويستحل الحرمات ، رأى السوريون جيشا منتظما يدفع أفراده ثمن ما يأخـذون ، ويوصي قائده وضباطه باحترام الاعراض والاموال والعدالة والانسانية .

ثم رأوا دورا جديدا من الاصلاح في الادارة والاقتصاد ، بدأ بتوزيع الجيش المصري البالغ عدده (٨٥٠٠٠) محارب على سبعة عشر معسكرا ، وتأليف مجلس للمشورة في كل مدينة زاد سكانها على (٢٠٠٠٠) نسمة ، يستطيع اصدار قرارات نافذة يمكن استئنافها الى المجلس الاعلى في دمشق ، وعكا ، وتمييزها بعد ذلك الى القاهرة ، السلطة العليا في الدولة .

وجعل ابراهيم باشا ، الحاكم العام لسورية وكيليكية ومحصل اموال آدنة ، مركزه في انطاكية ، ليستطيع الاشـراف على مناورات الاتراك من الشمال ، وادارة البلاد في الجنوب ، وعين نسيبه شـريف باشا واليا على دمشق ، بعد أن ألحق فلسطين بها ، والشيخ حسين عبد الهادي على عكا ، ثم فصل حلب عن دمشق ـ لتعذر اشراف حاكم واحـد على تلك البقاع الشاسعة ـ وعين اسماعيل بك واليا عليها . وترك للشهابيين استقلالهم في لبنان وأسند الى أمرائهم أمور الساحل ثم وضع سليمان باشا الفرنسوي حاكما له (لكثرة اتصال الساحل بالاجانب من تجار وقناصل) ، وجعل لكل مدينة متسلما يقضي بين الناس ورئيسا لشؤون المال ، وابطل الاقطاعات .

وقد راقب تنفيذ أوامره بدقة ، فكان يتنقل بين الولايات على الدوام يفتش الدواوين والمجالس ، ويشتد في عقوبة من قصر من الموظفين ، حتى الهدايا التي كانت تقدم الى الولاة في رمضان أبطلت لئلا تعتبر نوعـا من الرشوة قد تؤثر على علاقة الحاكم بالمحكوم من قريب أو من بعيد ، كما ابطلت المصادرات ونظمت جباية الخراج . ورأى ابراهيم في القضاء فسادا

ما بعده من فساد . كان السلطان يعين المفتي ، وهذا يعين القضاة ممن يدفع له أفحش الاثمان ، وهؤلاء يلجؤون الى ابتزاز أموال الناس لتعويض مادفعوه ثمنا لمركزهم المربح ، فعمد محمد علي (او بالاحرى ابراهيم) الى اصلاح القضاء على نسق فرنسي ، واصبحت الدعاوى تقدم الى الحاكم الذي يحيلها بدوره الى المحكمة باستثناء القضايا الجنائية التي تحتاج الى تمعن وتحقيق ، أما القضايا الكبرى فتقدم الى المحاكم العليا المؤلفة من قاضيين ، وجعلت القضايا الدينيـة والشخصية من اختصاصات القاضي الشرعي ، والقضايا الديوانية والتجارية والضرائب من اختصاص ديوان المشورة ، مع امكان استئناف الاحكام جميعا الى قاضي القضاة . وقد كافح ابراهيم الرشوة جهد الطاقة بوضع عقوبات رادعة للمرتشين من القضاة والموظفين وقرر لهم رواتب ثابتة بعد أن كانت اجورهم تستوفى من رسوم القضايا التي تعرض عليهم .

ولم ينس ابراهيم ماكان يعتري المجتمع السوري من أسواء أظهرها تلك الفروق بين المسلمين وغير المسلمين ، فساوى بين الجميع أمام القانون ، وولى المسيحيين الوظائف الحكومية ورفع عنهم بعض القيود الاجتماعية كالنزول عن رواحلهم اذا ماقابلوا أحد المسلمين في الطريق وارتداء الملابس الزرقاء والسوداء .

وعرفت البلاد اصلاحا اقتصاديا جديدا ، فقد أنشيء المصرف الزراعي لتسليف المزارعين ما يعينهم على تهيئة أكبر محصول زراعي ممكن ، وعين لهذه الغاية صراف في حلب وصراف في آدنة وآخر في دمشق ، وعمل على تنقيـة المياه الجارية من عنـتاب الى حلب واكثارهـا وتجفيف مستنقعات الاسكندرونة ، وتم استيراد أنواع النباتات والاشجار من أوربا كما ادخل زراعات جديدة في كافة أرجاء سورية .

وازدهرت الصناعة في سورية وتجلى فيها الاختصاص ، فاختصت دمشق بأثواب الحرير القطني وسروج الخيل ودبغ الجلود ، وحلب بالاثواب الحريرية المقصبة المذهبة ، واشتهرت طرابلس والقدس ونابلس ويافا والرملة بالصابون كما أتقن الناس من الخليل صنع المصابيح الزجاجية ، وأنشأ القائد العام معملا لنسج الصوف في صيدا يسد حاجة سكان الجبال الباردة ، كما أنشأ معاصر الزيت في طرابلس واستوردت الآلات من فرنسا ، أما المواد الاولية فقد حاول المصريون تداركها من الارض السورية الطيبة ذاتها ، فأوكل للفرنسيين أمر البحث عن الرخام ، وأوكل للانكليز أمر استخدام الفحم الحجري من لبنان وفلسطين ، واستخدم النمسويون لاستخراج الرصاص والفضة والنحاس والذهب والحديد من بلاد النصيرية ، كما عممت تربية دود القز وشجع الاكثار منه للحصول على الحرير الكافي •

وقد نتج عن كل ذلك ازدهار التجارة السورية ، فاستوردت شبه جزيرة العرب وايران وتركيا الانتاج السوري ، وغدت دمشق دعامة اساسية في تجارة الشرق وحلب مركزا للتجارة مع الاناضول والعراق ، وشجع ابراهيم من ناحيته هذه الوثبة الاقتصادية ، فعبد الطرق — خصوصا على الساحل — واستخدم ثلاثين مركبا لنقل البضائع الى انطاكية عن طريق العاصي ، وخفض قيمة الفوائد المالية وفتح ابواب دمشق امام الاوربيين •

وفوق هذا وذاك فقد شجع الحاكم العام الشعراء والعلماء وأنشأ عددا من المدارس وأرسل بعض الشبان لاكمال تعليمهم العالي في مصر ، وخرب بعض القلاع التي كان يتحصن بها الثوار كقلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وعمل على نشر الامن بكل ما لديه من حيلة وقوة • وتتجلى سياسته في تعليماته الى اعضاء المجلس الدمشقي عند تأليفه (••• وبعد الحكم يقدم

تقرير بذلك الى مجلسنا للتنفيذ ويكون ذلك بلا ميل ولا غرض في النفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف الى كبير أو صغير ووجيه وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو اعظم منه من ارباب المجلس ، فيكون قد خالف أمرنا وأوقع نفسه تحت طائلة الملامة) .

لقد كانت النية تتجه الى اصلاح جميع المرافق القومية ، ولكن حالت دون الاصلاح صعوبات ، برزت أولاها في الافتقار الى الرجال الصالحين ، وبرزت ثانيتها في فساد الجهاز الحكومي واعتياد الموظفين الطرق البالية في تصريف الامور .

. . .

وأوقف ابراهيم وأخره عن الاصلاح سبب آخر اساسي وهو قيام الثورات عليه ، ومحاربة جنوده في كل مكان .

فقد احتاج محمد علي الى المال لتسديد النفقات الباهظة التي صرفت في تجهيز الجيوش والقيام بالحروب ، كما احتاج الى الرجال لسد النقص الذي خلفته المعارك الحربية ضد السلطنة والثوار على السلطنة .

أما المال فقد لجأ محمد علي الى القروض للحصول عليه ، فرفض أصحاب الاموال مده بشيء منه الا بموافقة الباب العالي ، وحاول البعض استخدام هذه الحاجة لربطه ومصر بعجلة المصالح الغربية فرفض الوالي ذلك ، وكان السلف التي أخذها على موسم القطن قد استنفذت فأمر ابنه ابراهيم بالحصول على الاموال اللازمة من سورية نفسها . وفرض هذا بالفعل ضرائب كثيرة على السكان كضريبة الفردة التي تؤخذ على كل فرد بين الخامسة عشر والستين حسب فقره أو غناه ، وضريبتي الدخولية والتصريح عن البضائع

المشحونة من بلد الى بلد آخر ومن مدينة الى مدينة أخرى ، ورسوم المواشي وضريبة الشونة التي تقضي بأن يقدم الاهلون للجيش حاجاته عدا احتكار الحرير واجبار الاهالي على زرع بعض الحاصلات فكانت هـذه الضرائب بالاضافة الى الشدة التي استعملت في جبايتها سببا أولا في قيام الثورات .

وأما الجنود فقد أخـذوا من سورية ، ولوحق الشبان بمنتهى الشدة لضمهم الى الجيش ، الامر الذي أفقد الشام اليد العاملة ونفر منه السكان حتى كان بعضهم يقلع عينه أو يقطع أصبعه للتخلص من الجندية ، فكان ذلك سببا ثانيا في التمرد على الحكم ، وقد كتب المبعوث الروسي سنة (١٨٣٧) يقول (ان التجنيد يسير بنشاط في سورية بأجمعها ، الا ان البلاد تعاني أزمة اقتصادية خانقة وهي مهددة بالمجاعة نتيجة لفقدان اليد العاملة في الزراعة) (١).

فاذا أضيفت الى كل ذلك مصادرة الحيوانات اللازمة للجيش رغم الضرر الناجم عن ذلك في الزراعة والتجارة وتسخير الاهلين لاقامة الحصون والاعمال العامة ، ونزع السلاح من السكان والاساءة الى نفوذ الملاك الكبار الذين كانوا يجنون من نفوذهم وتقربهم من باشوات الاتراك المال الوفير ، تجلت اسباب النقمة العامة التي اعتملت في قلوب السوريين على الادارة المصرية .

ولا شك ان الباب العالي كان يدرك ذلك كل الادراك فأرسل رشيد باشا بجيش لجب الى الحدود السورية ليبـذر الاموال ويجود بالوعود ، حتى اضطرمت نيران الثورات في سورية يشجعها السلطان ويؤيدها الانكليز .

وأول ما يذكر من هذه الثورات ثورة فلسطين حيث اتفقت اسر طوقان

---

(١) الوثائق الروسية : مجموعة ١٨٣٧ رقم (٢٢) . من تقرير شاسو الى مديم في (٢٧ تشرين الثاني – نوفمبر ١٨٣٧) .

والجزار وأبي غوش لتضاؤل نفوذها أيام المصريين ، وخلعت عنها طاعتهم ، وانتصرت في عدة مواقع ، بل وحاصرت ابراهيم نفسه في القدس عندما جاء لنجدة جيوشه حتى اضطر محمد علي الى القدوم شخصيا الى يافا ومفاوضة قاسم الاحمد واغرائه لفك الحصار ففكه ، وسارع ابراهيم الى جيوش والده فنظمها وقادهـا الى حيث شتتت قوة الثوار وفرق جموعهم واعدم قاسم الاحمد نفسه .

والثورة الثانية التي تذكر للشام على الحكم المصري نشبت في طرابلس وعكار وصافيتا ، فأرسل سليم بك للقضاء عليها بعد افتضاح أمر المؤامرة على حامية طرابلس ، وساعده الشهابيون حتى قضى على الفتنة وتم القبض على زعماء عكا وصافيتا .

وبينما كان الجيش المصري يزحف من اللاذقية الى حلب لاحلال الامن والنظام هناك ، هاجمت طائفة من النصيرية احدى فرقه ، وابتدأت بذلك ثورة النصيرية الشديدة التي كلف سليم بك بالقضاء عليها يؤازره الشهابيون وقضى عليها بالفعل بعـد ان احرق من قراهم الكثير ، وجند منهم حوالي (٤٠٠٠) رجـل وشقت الطرق في جبالهم ، وانتهت بذلك فتـن سنتي ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤ .

أما الثورة الكبرى على ابراهيم باشا فقد اضطرمت في منطقة الدروز سنة (١٨٣٧) حين حاول ابراهيم ان يطبق قانون الجندية عليهم ، واستدعى بشير أمراء دروز لبنان وأراهم الامر وأقنعهم بالانصياع ، فقبلوا بعد لأي ، وجند منهم حوالي (١٦٠٠) رجل .

ولما وصل الخبر الى دروز حوران سادهم شعور بالقلق والاستياء ، وباتوا

ينتظرون دورهم ويتناقشون في مقاومة كل امر من هذا القبيل ، حتى صدق حدسهم ، واستدعى شريف باشا والي دمشق كبير مشايخهم يحيى حمدان وعرض عليه اوامر ابراهيم باشا محاولا اقناعه بالانصياع ، فأجابه الزعيم الدرزي بان شبان الدروز لايستغنى عنهم لانهم يصدون عن بلادهم عدوان العربان المجاورين ، وتطور الجدال حتى اشتدت لهجة الشيخ وثارت ثائرة شريف ، الامر الذي حمل الزعيم الدرزي على التظاهر بالاقتناع ، والانسحاب وفي نفسه ثورة وفي القلب حقد عظيم .

وهناك ، بين أهله وعشيرته ، قرر يحيى حمدان وقرر معه الزعماء مقاومة الحكم القائم ورد اهانة الوالي بالنار والدم ، وابتدأ الدروز بنهب أملاك شريف باشا وبحري بك مدير مالية سورية ، فأرسل اليهم والي دمشق سنة ١٢٥١هـ حوالي (٤٠٠) جندي فاجتمع الدروز الى قائدهم وأوهموه أنهم سيدفعون المال بدل الجند المطلوبين ، حتى اذا أرخى الليل سدوله وانتشرت الظلمة الحالكة ، انقض الثوار على الجنود يذبحونهم ذبح النعاج ويطاردون قائدهم المهزوم مسافة طويلة .

واستلم محمد باشا مفتش الجيش المصري قيادة جيش قوي زحف به الى بلاد العصاة ، فاستدرجوه الى الوعر من الارض ، حتى اذا توغل في اللجاه طلعت جموعهم عليه فجأة تعمل في جنوده السلاح حتى تشتتوا وتمزقت الحملة وغنم الثوار مؤنهم وذخائرهم ، وتكررت الخدعة نفسها ضد جيش احمد باشا المنكلي الذي لقي نفس المصير في شعاب اللجاه ومسالكها الصعبة ، حتى ساءت سمعة الجيش المصري ، وقام شبلي العريان بدروز وادي التيم يحاولون قطع مواصلات المصريين وتشتيت شملهم ، وبدأ الاضطراب بين دروز لبنان .

هنا شعر ابراهيم ان الامر اخطر من مجرد ثورة محلية يمكن القضاء عليها بالاكثار من الجند والذخيرة ، خصوصا بعد ان خاض الجيش ما خاضه من الثورات ، والاتراك على الحدود يوقظون شياطين الفتنة وينفخون في نارها ، ومجلس السلطان في استامبول يقرر الهجوم على سورية برا وبحرا ويحاول اقناع انكلترا بذلك ، فأوعز القائد المصري الى الامير بشير بتأمين طرق المواصلات في التيم ، وأرسل على جناح السرعة يطلب من ابيه الجنود الالبانيين لاعتيادهم الوعر من المسالك والجبال ، ثم جهز جيشا استلم قيادته بنفسه ، احاط به اللجاه من كل جانب ، وخاض غمار معارك دامية حتى استولى على منابع المياه ، وقيل انه (الزم علماء الكيمياء بصنع (محلول سليماني) القاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر هؤلاء الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشا وأتوا الى اقليم البلان) (١) ، على أي حال فقد أجبر العطش قسما كبيرا من الثوار على الهجرة ، أما القسم الآخر فقد اشتبك مع ابراهيم في معركة حامية الوطيس ، فسحقهم ابراهيم ، وتابعهم ظافرا ، فلموا شعثهم وعادوا الى المقاومة فكسرهم مرة اخرى وطارد شبلي العريان حتى استسلم فعينه قائدا لفرقة نظامية من الهوارة ، أما دروز حوران فقد دعاهم الامير بشير الى الاستسلام ففعلوا ، وسلموا سبعمائة من بنادقهم وألفين من البنادق التي غنموها من الجيش المصري ، وانتهت الثورة الدرزية الخطيرة .

فقد المصريون في الثورة الدرزية حوالي عشرة آلاف رجل حسب تقدير قناصل الدول ، وخسروا في الثورات الاخرى قرابة اربعة آلاف رجل ، وانتهى الامر باعفاء الدروز من الجندية والسخرة ، وتعب الجيش المصري

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . جزء (٣) ص (٦١) .

وضجره ، وكانت أكبر نتائج هذه الثورات قرار السلطان بأن وقت الثأر قد حان ، وأصر على ذلك رغم نصائح البعض بالعدول عنه .

• • •

والواقع .. ان السلطان كان يتربص بالمصريين الدوائر ، ولو سمح له بالعمل لاسرع في اغتنام هذه الفرصة المواتية وسحق أعدائه الذين انتقصوا من هيبته وكشفوا سيئات الاتراك ، وهو الذي طالما اقترح حجز محمد علي في قصر منيف على البوسفور وتأمين عيش رغيد له ، وطالما حاول اقناع الدول بضرورة محاربته للمصريين فتنصلت من ذلك رغم تأكيده بعدم تدخل روسيا في كثير أو قليل .

الا انه لم يهدأ ، بل راح يحشد الجيوش قرب سورية ويوقف القوافل على حدودها ويمنع التجارة مع سكانها ويوعز لقواته باحتلال بعض الاماكن الهامة في الاراضي السورية لتكون نقطة الانطلاق في زحفه المقبل بينما كانت الدول الاوربية في شغل عنه تكتفي بمراقبة الموقف عن بعد بحيرة وسكينة .

ولاحظ ابراهيم هذه التحركات ، فأرسل يطلب النجدة من ابيه ، ويوعز الى بشير بتأمين طرق المواصلات والحيلولة دون الثورات ، وكان رشيد باشا الذي أرسل لاخماد ثورة الاكراد قد توفي وخلفه حافظ باشا في قيادة الجيش التركي ، فبادر الى احتلال مركز منيع اطمأن جيشه اليه ، ثم بدأ عمليات الاستفزاز من جديد ، بينما حشد المصريون ثمانين الف جندي في سورية استعدادا للطواريء ، واستعد الاهلون للثورة وقد بدأوا يأسفون على النظام التركي من جديد (١) ، وبدت سورية وكأنها تقف على مستودع

(١) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : المراسلات السياسية . مصر . رقم =

من البارود .

ووقعت الواقعة ، ودارت معركة نصيبين الرهيبة بين ابراهيم وحافظ الذي بدأ الهجوم ، وكان مركز الاتراك حصينا فالتف المصريون حوله بخفة وحذاقة ، ثم هاجموا أعداءهم من كل جانب فاختلط على هؤلاء الامر ، وتقهقر فرسانهم بسرعة يفسدون نظام المشاة والجيش بأكمله من ورائهم حتى تمزق وتشتت جنوده ، واستولى المصريون على خيام الاتراك بأكملها عدا العدد والذخيرة التي كانوا يعدونها لاسترداد سورية من جديد .

وكانت هزيمة (٢٤ حزيران ـ يونية ١٨٣٩) ساحقة قضت على آمال طالما داعبت السلطان محمود الذي لم تصله أخبار النكبة لانه توفي في ٣٠ حزيران ، فتسنم العرش عبد المجيد ، واستلم خسرو الصدارة العظمى ، فقصد عدوه أحمد فوزي باشا الاسكندرية وسلم الاسطول التركي الذي كان تحت قيادته لمحمد علي ، وهكذا خسرت الدولة في وقت وجيز سلطانها وجيشها واسطولها ، ثم امر السلطان الجديد بمحاكمة حافظ باشا لانه بدأ هجومه دون أمر السلطان ، فأظهر القائد العثماني أمر سلطانه بالهجوم ، ورأت الدول ورأى الناس كيف كان (الخليفة) يتظاهر بالسلم والوداعة بينما هو يعد العدة ويجهز الجيوش ويعطي أوامر الكر والفر والعدوان .

. . .

ماذا كان موقف الدول من كل هذه الاحداث ؟

لقد أقلق الروسيا منذ البدء ظهور هذه القوة الجديدة في منطقة نفوذها ،

= (٧٠ ـ ٧٣) . من رسالة كوشيليه الى موليه وزير الخارجية الفرنسية في (١ نيسان ـ ابريل ١٨٣٩) .

أو ماكانت تسعى لجعله منطقة نفوذ لها عن طريق القسطنطينية ، فمدت يدها الى السلطان تعرض عليه العون والمساعدة ، علها تنال بالسلم والصداقة ما لم تستطع أن تناله بالحرب والنزال ، فتعلل هذا ، والتفت حواليه باحثا عن صديقتيه الغربيتين فاذا هما في شغل بمشاكل اوربا وخاصة حركة استقلال بلجيكا ، فقبل مساعدة الروس ، وطلب الجيوش والاساطيل منهم ، وقصد مورافييف الاسكندرية ليطلب من محمد علي سحب جيوشه وانقاص عددها الى عشرين الفا وتسليم اسطوله الى السلطان ، عندما كان الوالي في أجمل نشوات الظفر بعد ان سحق ابنه جيوش الاتراك في قونية وهدد القسطنطينية.

وازاء كل ذلك ، تحركت فرنسا وانكلترا ، وكانت الاولى تحتل مركزا مرموقا في البحر المتوسط ، فساء ملكها لويس فيليب أن يحتضن القيصر سلطان القسطنطينية وينزل جيوشه فيها ، فسارع الملك الفرنسي الى ايفاد من يحل الازمة ، واستطاع بعد الاخذ والرد ان ينال لمحمد علي سورية ومصر وأدنه ، وساعدته انكلترا في ذلك ، فوثق محمد علي صلاته بالملك الفرنسي ، وغدا يعتمد عليه ، بينما نقم السلطان على الدولتين الغربيتين ، فعقد مع روسيا معاهدة هنكيار سكلهسي في (٨ تموز – يوليو ١٨٣٣) ملقيا بنفسه بين ذراعي نيقولا ، مستسلما الى حمايته الوارفة ، حماية الذئب للحمل ، واغتنم محمد علي هذه الفرصة ، فسارع الى ارسال مذكرة الى قناصل الدول في (٣ سبتمبر – ايلول ١٨٣٤) يندد فيها بالخطر الروسي والقاء السلطان بنفسه في وسطه ، ويعرض على الدول الاعتراف باستقلاله متعهدا باشتراك جيشه في مقاومة نفوذ روسيا في المنطقة ، فأجابته انكلترا بالرفض البات والمعارضة المطلقة (١) .

(1) E. de Cadalvène et E. Barrault : deux années de l'histoire d'Orient, 1839 - 1840. Paris 1840 T. 1. P. 344 - 345.

وكانت انكلترا قد تحفظت في البدء ، ثم رأت في محمد علي كل مايدعو الى سخطها ، فقد أخذ الوالي الجديد بأسباب القوة ، وابتنى لنفسه اسطولا كبيرا ثم قفز الى شبه الجزيرة العربية حتى وصل نفوذه الى الخليج العربي والى قلب اليمن ، وزحف الى السودان يضمه الى ممتلكاته ويكمل به سيادته على البحر الاحمر ، فخشيت بريطانيا على مصالحها في طريق الهند ، ثم أمر بمنع السفن الآتية من بمباي ان تتعدى جدة شمالا في البحر الاحمر ، وأنشأ المصانع التي نافست الصناعة البريطانية ، ولم يكتف بذلك بل زحف الى سورية ليمتلك طريق الفرات الى الهند ويهدد القسطنطينية فيعطي الروس فرصة للتدخل السافر ، كما اتهمه الانكليز بأنه صنيعة فرنسا ويدها اليمنى في الشرق .

كل هـذا جعل بريطانيا تنقم على محمد علي وتتشمر لمقاومته بمختلف الاساليب ، وكتب الكولونيل دوهاميل الى وزير الخارجية الروسية يقول (ان احتلال محمد علي لسورية لم يكن من شأنه فقط استثارة السلطان ، بل والدول البحريـة أيضا وخصوصا انكلترا التي تحاول جرح كرامتـه والاساءة اليه) (١) .

وكان محمد علي يعتمد على الاحتكار لتجهيز جيشه ، فاستصدرت أمرا من السلطان بالغائه ، وكان الاجانب يدفعون ثلاثة بالمئة مكوسا جمركية عن بضائعهم بينما كان الرعايا يدفعون عنها عشرين بالمائة ، فعمد قناصل الانكليز الى حماية بعض الاهلين لاعفائهم من هذه المكوس لتنقص واردات مصر ،

---

(١) الوثائق الروسية : مجموعـة ١٨٣٦ . رقم (٧) . من رسالة المبعوث الروسي دوهاميل الى وزير الخارجية الروسية نسلرود في (٢٧ حزيران - يونيو ١٨٣٦) .

فتعجز عن تمويل الادارة والجيش ، وقد حدث أن وقف سليمان باشا (آمر منطقة السواحل) في وجه شحنة من الحرير ، فحاول قنصل انكلترا لفت نظره الى الفرمان الذي ينص على حرية التجارة فلما أجابه القائد المصري بانه لم يتلق الاوامر بتنفيذ هذا الفرمان ، توجه القنصل الى الساحل وعمل على شحن البضائع بنفسه (١) ؛ وكانت بريطانيا قد ارسلت في سنة (١٨٣٤) ريتشارد وود الى لبنان بحجة تعلم اللغة العربية فمكث في كسروان ، وشرع يذر بذور الفتنة بين اللبنانيين الساخطين الناقمين ، وذلك بعد أن اطمأنت الى اتفاقها مع امام صنعاء ، وضمنت تأييد الشيوخ والسلاطين العرب ، واحتلت عدن ، ثم شرعت تقنع السلطان باعادة الكرة على جيوش محمد علي ، فان انتصر ظفر ، وان انكسر أيدته وأوقفت جيوش مصر عن الزحف والتقدم ، بينما أبلغت محمد علي رسميا بلسان ممثلها (كامبل) رسميا أن حكومة صاحبة الجلالة تعارض بكل معنى الكلمة مساعي محمد علي في الاستقلال ، وانها متفقة مع فرنسا والروسيا والنمسا على استعمال القوة لمجابهة أي عمل عدائي من جانبه ، وقد قررت هذه السلطات زيادة وحدات الاسطولين الفرنسي والانكليزي في المتوسط وارسال قوات نمساوية الى سورية عند الحاجة (٢) .

وكانت معركة نصيبين ، وكان نصر ابراهيم المؤثل ، فسارعت فرنسا الى ارسال (بوالكنت) ليسدي لمحمد علي النصح بالتوقف والتزام جانب

---

(١) الوثائق الروسية : مجموعة ١٨٣٦ رقم (١٥) . من رسالة لافيزون الى بوتنيف في (١٢ نيسان ـ ابريل ١٨٣٦) .

(٢) وثائق القنصلية اليونانية بالقاهرة . من رسالة القنصل اليوناني (توسيزا) الى سكرتارية الدولة للبيت الملكي والشؤون الخارجية رقم (٦٤/٥٠٧) في (٤ آب ـ اغسطس ١٨٣٨) .

الدفاع ، وانصاع هو الى نصحها ثقة منه بتأييدها اذا ما حان وقت العمل .

وبدأ بين فرنسا وانكلترا خلاف استفحل مع الزمان ، فقد رأى بالمرستون ان بقاء محمد علي في سورية بالنسبة لبريطانيا مجلبة لمشاكل لا نهاية لها وحروب يضرمها احتكاك الجيشين على الحدود ، وان خير حل لذلك هو جعل الصحراء (صحراء سيناء) حدا فاصلا بين الدولتين ، ولكن فرنسا أصرت على منح سورية لمحمد علي ، ورفضت باسم محمد علي اقتراح النمسا بتقسيم سورية بينه وبين السلطان وايصاله الى حدود باشوية دمشق وطرابلس بعد ضم عكا اليه ، وكانت النتيجة ان تنازلت روسيا عن معاهدة هنكيار اسكله‌سي ، فاستعاض بالمرستون بها عن عن فرنسا ، واقنع النمسا بان تدخل روسيا الزائد في شؤون الدولة العثمانية الناجم عن تصرفات محمد علي خطر على كيانها في البلقان وفي النمسا نفسها وأفهم بروسيا ان القضاء على محمد علي انما هو اضعاف لمركز فرنسا في الشرق ، ومن ثم تكتلت الدول الاوربية في العمل ضد محمد علي دون فرنسا .

وكانت مساعي أنصار بريطانيا وقناصلها في سورية قد أثمرت ، فقد نقم اللبنانيون على الحكم المصري لفرضه ضريبة الفردة عن سبع سنوات مقدما على الاحياء والاموات ، وسخط كبار الملاك على ابراهيم لامره بجمع السلاح وقرر النصارى والدروز على السواء المقاومة والتمرد ، يثيرهم ويمدهم بالمال والسلاح قناصل الدول وخصوصا الانكليز ، فاشتعلت في أواخر أيار — مايو ١٨٤٠ الفتنة التي أقلقت فرنسا ومحمد علي معا ، وشرع ابراهيم في القضاء عليها بأي ثمن .

أما بالمرستون وعبد المجيد فقد طربا للنبأ ، وسرعان ما جمع الاول حلفاءه

في عاصمة بلاده ، ووقع معهم اتفاقية لندن في (١٥ تموز – يوليو ١٨٤٠) التي لم تبلغ فرنسا الا في ١٦ ايلول – سبتمبر ، وهي تقضي باعطاء مصر لمحمد علي وراثية وعكا لمدى الحياة ، فان لم يقبل في غضون عشرة ايام اخرى ضاعت عكا من يده واقتصر على مصر ، فان لم يقبل في عشرة ايام اخرى ضاعت مصر من يده وأكره على الخضوع لما يراه السلطان .

وأما محمد علي فقد لبث يترقب نهاية النزاع الفرنسي البريطاني ويستعد ، فاذا بمندوب السلطان وقناصل الدول يبلغونه قرارات لندن في (١٤ آب – اغسطس ١٨٤٠) ويعطونه مهلة عشرة ايام لقبولها ، ثم يعودون اليه في (٢٤) منه لاعلامه ان عكا قد ذهبت من يده ، ويعطونه مهلة عشرة ايام اخرى للجواب ، بعد ان اتصل الاميرال نابيير بالولاة على السواحل السورية ووزع عليهم مضمون اتفاق الدول الاربعة ، وأمد الثوار في جونيه بالسلاح والمال .

وأصر محمد علي على الرفض ، وأيدته الحكومة الفرنسية وهددت بالحرب ، ولكن وزارة تيير استقالت ، وشرع (غيزو) و (سول) يعالجان الامر بحذر وتحفظ ، وعمدت انكلترا الى العمل السريع المجدي خصوصا بعد ان قبضت على رسالة من بوغوص وزير خارجية محمد علي الى سليمان باشا يعلمه فيها عن الامل بمساعدة فرنسا ، فأنزل الحلفاء قواتهم على الساحل السوري بينما شغل ابراهيم عنهم بمطاردة الثوار واحراق قراهم ، فوزعوا الاسلحة على الاهلين ، وهاجموا قلعة جبيل واحتلوا البترون والدامور وصيدا بمساعدتهم وتأييدهم ، ثم زحفوا لمحاربة ابراهيم الذي ردهم على اعقابهم ، مما حدا بهم الى الاستنجاد بالثوار الذين حصروا المصريين بين نارين ، فارتد ابراهيم الى البقاع ، وفقد سيطرته على الموقف .

وفي خلال كل ذلك ، كان مركز الامير بشير يزداد حرجا ودقة ، حتى

رأى أخيرا ان يستسلم ، فقصد الى صيدا حيث استقبل استقبالا رسميا ، وسمح له بالاقامة حيث يريد ماعدا فرنسا وسورية ومصر ، فاختار مالطة ثم قصد الى الاستانة حيث توفي بعد ذلك في (٢٩ كانون الثاني – يناير ١٨٥٠) (١) .

أما ابراهيم فقد سحب قواته من طرابلس واللاذقية وأمرها بالاستعداد للقتال ، واشراف أحد المهندسين الايطاليين على الدفاع ، وأشرف هذا فعلا على تجهيز قلعة عكا وتحصينها ، الا انه أعطى مخطط كل ذلك الى الحلفاء (والاعتماد على الاجنبي غالبا مايؤدي الى الفشل) وركز خصومه ضربات قاصمة على عكا حتى أصابوا مستودع البارود فيها ، فاهتزت الارض وامتلأ الفضاء بالنار والغبار ، وتحطمت الاسوار وانقلبت المدينة الى سعير ملتهب ، أجبر الحامية على الاستسلام ، فدخلتها جيوش الدول ، وما لبثت أن دخلت يافا ، واتمت الاستيلاء بذلك على المهم من الساحل .

ازاء كل ذلك ، لم يبق أمام محمد علي بعد أن اضاع حليفه بشيرا وخسر السواحل وقلت امواله وتعب جيشه الا ان يتفق مع الاميرال نابيير ويخضع لشروطه ، ففعل ، وهللت الدول لفعلته وأيدها بالمرستون رغم انه لم يفوض أميراله بعمل سياسي ، ورغم معارضة السفير الانكليزي في استامبول ، فقد أوجس الجميع خيفة من الفشل بعد الفوز ، وها هو ابراهيم (والجميع عرفوا حسن قيادته) يجمع في الداخل حوالي خمسين الف جندي لمحاربتهم ، وفرنسا تحتج وصحفها تطالب بالحرب ، بينما تطل بوادر الانقسام بين صفوف الحلفاء انفسهم ويميل الرأي العام الواعي في اوربا ، بل في انكلترا ذاتها ، الى محمد

(١) الخوري بولس قرآلي : الامير بشير الكبير . الجزء الثاني . ص (٩٦) .

علي ، فقبلت الدول باتفاق (٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر) وتعلل السلطان وتدلل حتى تقدم اليه حلفاؤه بمذكرة اعادت اليه الصواب ، فوافق ، وأصدر محمد علي أمره الى ابراهيم بالانسحاب ، وما كان أصعب من الانسحاب من ارض ملأتها دسائس العدو وفيالق الثوار •

سار ابراهيم بقسم من جيشه الى العقبة حيث ركب الى مصر ، وقصد سليمان باشا الفرنسوي الى وادي النيل عبر صحراء محرقة مجدبة حتى وصل الفريقان مع عددهما بعد خسارة الكثير من الجند ، ولا غصة بالخسارة الا حين تقترن بالخيبة ، ويصاحبها الفشل •

أما السوريون المجندون فقد أعيدوا الى بلادهم على دفعات ، وانتهت الادارة المصرية لبلاد الشام •

• • •

ولعل الباحث يخطيء في الحكم على الرجل اذا عزا فشله الى قصر نظره أو سوء تصرفه ، فقد حاول محمد علي في سورية الاصلاح ففشل ، وتجمع عليه الاعداء من كل حدب وصوب •

أخطأ محمد علي في محاولة احتكار الحرير واكثار الضرائب في سورية ، وأخطأ في محاولة جمع جيش من السوريين يحارب به السلطان ، ثم أخطأ في استفزازه الدروز واللبنانيين بعد ان وعد بصيانة استقلال لبنان والحفاظ عليه وأخطأ عندما حاول أن يطبق في سورية نفس ما طبقه في مصر دون حساب الفارق ، وكان غلطته الكبرى انه لم يتابع سيره الى القسطنطينية عندما كان جيشه على بعد يسير منها ، ولو فعل لأضفى على المسألة الشرقية طابعا ينحل

دونه كل اتفاق اوربي ، الا انه تريث وتراجع ، وأفسح بذلك لاعدائه المجال للدس والتآمر .

على ان فشله يعود في قسم كبير منه الى اعتماده على فرنسا ، وثقته بها الى حد أودى بامبراطوريته الواسعة الفتية . والواقع ان كلا من الصديقين أخطأ في الحكم على الآخر ، فقد أثارت أعجاب فرنسا الانتصارات الكبرى التي تمت على يد ابراهيم ضـد قوات تتفوق على جيشه بنسب كبيرة في العدد ، في حين كانت تلك الانتصارات تعود الى فقدان النظام في الجيش العثماني وضعف قيادته من ناحية ، والى قوة الجيش المصري وقدرة ابراهيم العسكرية من ناحية ثانية ، وقد أخذ الفرنسيون بالاعتبار الثاني وأهملوا الاعتبار الاول ، وحسبوا ان قليلا من المساعدة يكفي المصريين لرد أية قوة اوربية تحاول الاعتداء عليهم ، فجاء حسابهم خاطئا أدى الى هذه النتيجة .

أما محمد علي وابراهيم فقد كانا يعرفان قوتهما حق المعرفة ، خصوصا بعد كارثة (تقارين) ، الا انهما وثقا بفرنسا ، وجرأهما تأييدها الدبلوماسي على توقع تأييدها العسكري ، رغم الفارق الكبير بين الاثنين ، فتصلب الاب ، وقاوم الابن ، فاذا بالمعونة الفرنسية خطب ضافية في مجلس النواب ، ومقالات مطولة في الصحف لاتسمن ولا تغني من جوع .

كل ما أدته فرنسا الى محمد علي ، انها أحقدت عليـه بريطانيا فتعذر تفاهمه معها ، وأثارت حفيظة روسيا فتنازلت عن معاهدتها مع السلطان ليسهل اتفاقها مع اصدقائه ، وتسببت في انضمام بروسيا الى هؤلاء الاصدقاء نكاية بفرنسا وحطاً من نفوذها في الشرق ، فاذا بأربع دول كبرى تعقد الخناصر على استئصال اسباب الحكم المصري لبلاد الشام ، والقضاء على محمد علي ، وحماية السلطان .

وهكذا وقع المقدر ، وكان الفشل .

• • •

على ان هذا الفشل العسكري لم يمح من سورية الآثار الناجمة عن تلك السنوات التسعة (١٨٣٢ ــ ١٨٤٠) ، فقد اعتاد المسيحيون تلك المساواة التي عوملوا بها ، وشعر السوريون بذلك البون الشاسع بين الحاكم والمحكوم يتضاءل عندما ألفت مجالس الشورى لتمثيل الشعب بعد ان كانت الاحكام استبدادية مطلقة ، وعندما تولى المناصب بعض أبناء البلاد ، ومنهم المسيحيون (مثل حنا البحري مدير الماليـــة) وأدى كل ذلك الى اجبار السلطان على اعلان (خط كلخانة) قرر فيه المساواة بين رعاياه ، كما وضع ابراهيم في الشام جذور النهضة العلمية التي رفعت رأس الشام عاليا فيما بعد ، وأصبح المتنورون من الرجال ، الذين اختارهم القائد المصري لمساعدته في الحكم ، والشبان الذين ارسلهم لدراسة الطب في مصر ، نواة طيبة لاتمام الرسالة التي بدأ بها ، وحال الاعداء بينه وبين اكمالها .

وكانت نتيجة ذلك أن السوريين أدركوا جيدا الفرق بين الحكمين ، وان دينهم الذي كان يحملهم على الانصياع لمظالم الاتراك يمكن أن يتيح لهم حكما أفضل الف مرة من تعسف الباب العالي وقسوة عماله ، فكان ذلك أساس المقاومة العنيدة التي تصدت للاتراك في الشام ، وكانت من اسباب خيبتهم فيما بعد في الحرب العالمية الاولى وتخليهم ، أو بالاحرى اجلائهم عن هذه البلاد التي ثقل على اهليها عبؤهم ، وثقل عليهم عبؤها طيلة أربعة قرون ونيف .

كل ما أساءت به فترة هذه السنوات التي قضاها المصريون في الشام

تلك العداوة بين الموارنة والدروز ، التي أيقظت ما خبا منها ، ونفخت في نارها مساعدة الموارنة لابراهيم عندما كان يحارب الدروز ، والتي سيكون من نتائجها الخطيرة مذابح فاجعة وشر مستطير .

. . .

هكذا انطوت هذه الصفحة من تاريخ الشام والعرب الحديث . على انه لابد قبل اختتام هذه الفترة من التعرض لما كتبه احد المؤرخين الفرنسيين عن حركة محمد علي ، قائلا ان نزاعه مع السلطان لم يكن الا وجها من وجوه النزاع بين الاتراك والعرب الذين ارادوا طرح نير الاتراك عنهم ، فكان محمد علي أول من أدرك ذلك وسعى الى تحقيقه (١) .

. والواقع .. ان الوثائق التي خلفها العصر الذي عاش فيه محمد علي تنفي ما ذهب اليه الكاتب الفرنسي ، لان الدين آنئذ كان مسيطرا الى حد جعل المسلمين يضعونه في الدرجة الاولى قبل اللغة والعرق ، وكانت الثقافة آنئذ تشجع هذا الاعتقاد وتمضي فيه ، مقتصرة على بث التعاليم الدينية وقراءة القرآن ، والصلاة وتلقين طلابها بأن هناك دينا اسلاميا يجب اتقان أحكامه ، وخليفة للمسلمين في (اسلامبول) يجب الخضوع لاوامره والدعاء بنصره .

أما الثقافة العامة فبسيطة ان لم تقل معدومة ، حتى ان المصريين — كما يحدثنا كلوت بك — لم يكونوا يعرفون عن الاهرام الا انها ظواهر طبيعية سبحان من رفعها بهذا الشكل المنتظم ، حتى اذا جاء الفرنسيون وأبدوا من

(1) Lucien Davesies de Pontes : études sur l'Orient et l'Egypte, (Paris 1869).

الاهتمام ما أبدوه تهامس الناس بان السر قد كشف ، وان هـذه الابنية الضخمة من صنـع بعض الاقدمين الذين يمتون الى الفرنسيين بصلة من الصلات !...

ولم يكن هناك ما يسهل تناول الآراء أو يوثق الصلات بين العرب في مختلف أقطارهم ، فوسائل النقل بسيطة لاتعدو ظهور الحيوانات ، لان العربات لم تكن قد استعملت بعد ، كما ان آلات الطباعة لم تكن قد انتشرت على نطاق واسع ، وبالتالي لم توجد هناك صحف توجه الرأي العام وتنير أمامه السبيل ، أما الوقائع المصرية التي كانت لمدة طويلة الجريدة الوحيدة في الشرق العربي ، فكانت ذات صفة رسمية بحتة ، ولم تظهر جريدة (مرآة الاهوال) في بيروت الا سنة (١٨٥٥) ، أي بعد خروج محمد علي من بلاد الشام بنحو خمس عشرة سنة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن السلطان ليشجع على خلق شعور موحد بين أبناء العروبة من رعاياه ، بل كان يبث بينهم بذور التفرقة ويوغر صدور بعضهم على بعض ، حتى أصبح التنافس والتحاسد هدف كل وال وكل حاكم بالاضافة الى جمع الاموال وتكديس الثروات ، ولا تزال مخلفات ذلك العصر في نفوس بعض الافراد ، من التنافس والتحاسد والدس والنميمة .

والوقائع التاريخية تثبت هذا الرأي ، لان الكثيرين من شبان المصريين كانوا يعمدون الى مختلف الاساليب للتخلص من الخدمة العسكرية ، كما هجر عدد كبير منهم وطنهم الى سورية للغرض ذاته ، فاذا أضيف الى ذلك ان محمد علي حرم على المصريين ذكر الشام على الاطلاق أثناء حصار عكا ، وان الكثيرين من المصريين كانوا يعارضونه معارضة شديدة ، تبين ان هذا التصرف من شعب وادي النيل لايدل على ثورته على الحكم التركي أو حقده

على حكامه الاتراك ، والا سارع أفراده الى التطوع كما حدث عندما تدخلت القوات الاجنبية في سورية ، وهرع سكان القاهرة ومصر بشكل عام يشكلون الفرق العسكرية ويضعون أنفسهم في خدمة الوالي الحائر .

ثم ان محمد علي نفسه كان عثمانيا في طرقه واساليبه ، شرقيا في نهضته ، مهر في حبك الدسائس ، وآمن بأثر المال في نفوس سياسيي ذلك الحين ، كما انه كان يمتلك الاراضي الواسعة ويحتكر موارد الثروة التي درت عليه أغزر الاموال ، فلم يستفد العامل ولا الفلاح ولا الجندي من اثراء الوالي وكثرة أمواله ، بل بقي كل منهم كما كان ، مع اطمئنانه الى ماله وعياله . ثم انه لم تكن هناك دقة في وضع الحسابات والميزانيات ، وتدوين الصادرات والواردات الا بعد فترة من الزمن بتأثير وزيره بوغوص ، ومعاونة الخبير الفرنسي جومار . أما نظام الاحتكار الذي أخذ به وطبقه على أوسع نطاق ، فقد عرفه حكام فارس والهند قبل محمد علي وفي عصره بالذات ، فبرهن كل ذلك على عقلية عثمانيـة مستجدة تحاول الاصلاح ، اصلاح مصر والعالم العثماني ليقف أمام جشع الاوربيين ومطامعهم .

كيف نفسر اذن حركة محمد علي الاستقلالية العربية ؟

كان عاهل مصر يدرك في قرارة نفسه البؤرة السحيقة التي أوشكت ان تتردى فيها الدولة وباشواتها الفاسدون ، فأراد الاطمئنان على مركزه وولايته باعداد المال وتجهيز القوات التي تكفل له الصمود للسلطان اذا ما حاول اقصاءه ، ولم تلبث هذه الفكرة ان تبلورت الى ارادة في الاستقلال ، وتوريث الولاية للاولاد والاحفاد ، فأنشأ يعد الجيوش ، ويدعم الادارة ، ويحتكر المرافق الاقتصادية .

وهنا حدث ما أدهش الوالي ، فقد أخصبت أرض مصر وأعطته من كنوزها ما لم يحلم به ، واذا بالمال الوفير ، والقوة الجبارة تدفعان بآماله خطوة أخرى الامام ، فيرنو ببصره الى البـلاد المجاورة لمصر معتمدا على قوته ومركزه وتشجيع السياسة الاوربية وخصوصا الفرنسية التي كانت تبارك خطواته بينما كان رجال الدولة يجاهرون بعداوته ، ويفسدون عليه زلفاه وحظوته لدى السلطان .

وكانت الثورة الوهابية قد انطلقت من عقالها نحو الشمال ، عندما كانت الفكرة تداعب مخيلته وتتماثل الى الكمال في نفسه ، فأرسل الجيوش ، وقضى على الثوار بعد ان احتل مواطنهم ، ونتج عن ذلك اتجاه الانظار اليه بعد أن أصبح احدى القوات الكبرى في الاسلام وحامي أقدس حرمين فيه ، وأشار ابراهيم من طرف خفي الى مركز ابيه الجديد ، مستحثا اياه على اغتنام هذه الرياح المواتية ، فعمد الوالي الى السودان يحتله ويكمل به سيادته على البحر الاحمر ، ومن ثم يتبنى فكرة خطيرة : فكرة النهضة بالعالم الاسلامي وتطهيره من الادران التي تنهك جسمه الكبير ، وانقاذه من أعدائه في الداخل وأعدائه في الخارج .

واشتعلت الثورة في بلاد اليونان ، وزحفت قوات السلطنة لاخضاعها ، حتى اذا أنست بعض العجز ، عمـد السلطان الى الاستغاثة بمحمد علي ، فأنجده لانقاذه من محنته وليعرف أولا مـدى امكان التعاون بين القاهرة واستامبول في النهضة التي كان يعدها جملة وتفصيلا ، وليرى ثانيا موقف الدول منه ومن السلطان ، وليضم ثالثا جزيرة كريت الى ملكه فيشتد بها ساعده وتكون له قاعدة بحرية لها أهميتها .

وكانت الحملة المصرية التي قضت على آمال ثوار اليونان ، وكان تدخل

الدول الذي دمر اسطول محمد علي في نافارين ، والسلطان مكابر أو معاند يقسم ويؤكد انه سيهدم اليونان فوق رؤوس أهلها وثوارها ، فأصدر محمد علي الامر الى ابنه بالانسحاب بعد ان عجز عن التفاهم مع السلطان ، وأدرك أن الدولة تريد ان تستغله الى أقصى حدود الاستغلال ، وان هذا التعاون بين استامبول والقاهرة شائك عويص ، يزيده صعوبة وتعقيدا وجود هذه الحفنة من أعداء والي مصر حول السلطان يجسمون له الامور ، ويوحون اليه بأسخف التدابير ، ارضاء لغايات شخصية ، ومطامع خاصة .

ثم حدثت الازمة الجزائرية ، وحاولتَ فرنسا اقناع محمد علي بالعمل في الجزائر لحسابها (١) ، فسارعت انكلترا الى افساد المشروع من الاساس ، وتبلجت لمحمد علي الحقيقة الناصعة : ان انكلترا تريد سكون هذا الجزء من العالم ، وان الدولة العثمانية في طريقها الى الزوال : ثورات عليها في كل مكان ، وتوسع روسي على حسابها باستمرار ، ومشاريع تضعها فرنسا لاقتسام تراثها المغري الثمين .

ههنا شعر محمد علي باليأس من اعادة الحياة الى جسم الدولة الضعيف المتوهن ، وكان لا بد له من ضمانات يجابه بها هذه الاخطار المحدقة ، ففكر في دولة جديدة تضم أقطار الشرق العربي بما في ذلك مصر والسودان والجزيرة العربية والعراق ان استطاع اليه سبيلا ، وكان يعلم ان انكلترا لن ترضى عن تحقيق هذا المشروع ، وانها تستطيع أن تستعدي عليه الدول ، وتوحد صفوفها لمجابهته كما حدث في (نافارين) فكتب الى ساستها يحاول اقناعهم بان غايته الاولى هي القضاء على نفوذ روسيا في تركيا وبلاد فارس ،

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : المراسلات السياسية . مصر (١) مذكرة دروفتي المؤرخة في (٢٤ ايلول – سبتمبر ١٨٢٩) .

ويلوح لهم بالتحالف لوقف الزحف الروسي باتجاه المستعمرات البريطانية ، ومضى يضرب على هذا الوتر بحذاقة السياسي الذي يعرف ما يريد ، فلم تنطل حججه وبراهينه على ساسة الانكليز ، وفشل في خطب ودهم والحصول على ثقتهم ، ويئس نهائيا من السلطان الذي استعدى عليه الروس ، وأعلم بريطانيا بمساعي محمد علي لمقاومة تمركزها على الفرات ، فرأى العاهل المصري ضرورة خطب ود البلاد العربية التي فتحها : مصر والسودان والحجاز والشام ، وان يتنازل عن عثمانيته وينصاع لآراء ابنه العربية ، فيكون من هذه البلاد دولة اسلامية عربية ، وقد أجابته النمسا على مذكرة (٣ ايلول — سبتمبر ١٨٣٤) بأن تأسيس دولة عربية كبرى واتخاذ موقف مستقل يناقض في حد ذاته وجود الامبراطورية العثمانية ويعرض السلم الاوربي للخطر(١) ، وتألبت مع بقية الدول ضده ، وتلبدت سماء السياسة بالغيوم ، حتى أمطرت ابراهيم بجيوش وأساطيل جعلت والده يأمره بالانسحاب ، وبذلك تخلت مصر عن مشروعها في الوحدة العربية .

هكذا تطورت أفكار محمد علي مع الاحداث وهكذا فشلت مشاريعه الكبرى واحدا اثر واحد . لم يحدث الرجل انقلابا تاما في حياة مصر وسورية ، بل أبقى الطابع الشرقي على هذين البلدين ، الا انه أوجد فكرة جديدة بالنسبة لعصره ، وهي توظيف جميع امكانيات البلاد وتجنيد جميع ثرواتها ورجالها لخدمة الدولة ، فزود الشبان الذين يحتاج اليهم بالثقافة الكافية وشجع التعليم لتوفير ذلك العدد من المثقفين الذين كان في أشد الحاجة اليهم ، لتستفيد الدولة من خدماتهم ، فهم موظفون لديها ، وهي تنفق

(1) E. de Cadalvène et E. Barrault : Deux années de l'histoire de l'Orient, 1839 - 1840. T. 1. P. 342.

عليهم وتحميهم ، وكان يؤمن كل الايمان بنظرية الاستقلال الاقتصادي ، وهما أمران يعيدان الى الذاكرة نظريتي انصهار مصالح الفرد في الدولة ، والاكتفاء الذاتي اللتين أخذت بهما النازية في المانيا بعد حوالي تسعين سنة من وفاة محمد علي .

أما ابنه (أو متبناه) ابراهيم ، فقد كان أكثر عروبة من أبيه ، نزاعا الى فكرة ايجاد دولة عربية حرة يدخل في كنفها كل ناطق بالضاد ، وقد قال في رسالته الى ابيه (في ٢٢ حزيران ــ يونيو ١٨٣٢) ان هذه الحرب مع الاتراك انما هي (حرب القومية والعنصرية) (١) كما كتب له في (٢٦ آب ــ اغسطس ١٨٣٢) يقول انه يشكر الله ان الاماني في الاستقلال والحرية قد أخذت تتحقق (٢) . ولما استسلم عبد الله الجزار ، وأقبل الناس لتهنئة ابراهيم بنصره العظيم ، أعلن في حشد غفير أنه (سيذهب في فتوحاته الى حيث تنتهي البلاد التي يتكلم أهلها بالعربية) (٣) .

* * *

(١) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . (جزء ٢ ص ٥٢) .
(٢) الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية . (جزء ٢ ص ٨٦) .
(٣) داوود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه للشام . القاهرة : ١٩٣٤ ص (١٨) .

الفصل التاسع

النزاع الطائفي في ١٨٤٠ – ١٨٦٠

.. والقصة تبدأ في الظهور بعد الامير بشير الشهابي الثاني ، لان أمراء لبنان من آل معن وشهاب وتنوخ كانوا قبل ذلك يجمعون سكان الجبل على صعيد واحد دون ان يفرقوا بين درزي وماروني ، أو مسلم ومسيحي ، وكان الدروز يخضعون لسادة النصارى كما كان النصارى يتقبلون أحكام مشايخ الدروز عن طيبة خاطر ، فلما استتب الامر لبشير الثاني ، افتتح اعماله بمحاولة جريئة ، محاولة كسر القيود التي فرضت على النصارى بموافقة الحكومة التركية والاعتماد عليهم في كثير من الامور .

وكان الامير بشير على قسط كبير من الذكاء ، فكر في بسط سيطرته على الجبل بأكمله ، واقتضى الامر ، في سبيل تحقيق هذه الامنية الغالية ان يكون مسيحيا مع المسيحيين ودرزيا مع الدروز . الا ان تطور الامور أجبره على اتخاذ اتجاه معين ، فقد حاول القضاء على زعماء العصبيات ، واصطدمت مصالحه بمصالح الدروز ، الامر الذي أدى الى خنق شيخهم بشير جنبلاط ، فحقد عليه الدروز ، في نفس الوقت الذي رأى فيه استعداد الموارنة للتعاون معه ، فاعتمد على هؤلاء ، وأوغر ذلك صدر أولئك .

وليت الامر اقتصر على هذا ، اذن لأمكن تلافيه ، ولكن بشيرا وضع يده في يد ابراهيم ، وسلح بعض المسيحيين لقمع الثورة الدرزية بناء على

طلب ابراهيم (١) ، فأذكى نار العداوة التي تمخضت عن المذابح الدامية فيما بعد .

ثم اتفق الموارنة والدروز على الحكم المصري ، وثاروا ثوراتهم التي ساعدت على اخراج ابراهيم وجيوش ابراهيم من بلاد الشام ، وكان تدخل الدول ، وكان انسحاب المصريين الذي ترك وراءه آثارا بارزة ، ترك العداوة بين الدروز والموارنة . وازداد حقد الدروز على مواطنيهم وتوطدت وحدتهم مع الاحداث وازداد احترامهم وطاعتهم لرؤسائهم وتضاعفت رغبتهم في السيطرة على الجبل ، بينما شعر المسيحيون بالدور الهام الذي لعبوه في ازالة ظل المصريين عن الشام ، ورغبوا في المحافظة مقابل ذلك على سيادتهم في هذا الجبل نفسه نظرا لكثرة عددهم ووفرة أموالهم ، فكان في ذلك بذور العداوة التي تعهدها الزمان ، ولم يكن الزمان طويلا بين طفولتها ونضوجها الكامل الخطير .

وكانت الحملة المصرية قد أثارت في الفلاحين الشعور ضد الارستقراطية، وضرورة التخلص من ربقة الرق التي أصبحت مدعاة لتذمرهم ، فانتشر الاضطراب ، واستغله البطريرك ورجال الدين ووجهوه وجهة دينية بحتة لحماية أملاكهم ، ولتتم لهم السيادة على الجبل الذي كانوا يحكمونه أيام بشير الكبير ، فغذوا العداوة الكامنة ، وأظهروها الى حيز الواقع ، فاذا بالامور تخرج من ايديهم فتستفحل ، وينتقل الحديث عنها الى لندن وباريس واستامبول .

وزاد الاتراك هذه العداوة عندما بالغوا في الاساءة الى المسيحيين انتقاما

---

(١) الاب بولس قرآلي : الامير بشير الكبير . لبنان ١٩٣٣ (جزء٢ ص٨٩) .

منهم ، واضعافا لمركزهم ، فحاولوا في الشام اعادتهم الى القيود القديمة ، بينما كانت الدول الاوربية الكبرى تتدخل لمصلحة الرعايا المسيحيين في كافة الولايات العثمانية .

ثم بدأ البحث في شكل الحكم بلبنان ، فأصرت الدولة العثمانية على أن يكون الجبل تحت ادارتها المباشـرة ، وأصرت الدول على اعـادة الامراء الشهابيين ، ورضخت الدولة أخيرا وعينت الامير بشير قاسم شهاب ابن اخي بشير الثاني الكبير (١) ، الا انها اتخذت سياسة معينة لازالته بعد قليل ، فزادت الهوة اتساعا بين سكان ذلك البلد الآمن ، وانقاد الامير الجديد اليها ، فقسا على مشايخ الدروز ، وعاملهم بغلظة وصلت الى حد الشتم والاهانة ، فغلت مراجلهم ، وابتدأوا يتشاورون في موقف الدولة منهم ، فاذا بهـذه تعدهم وتمنيهم ، بينما كانت تشجع الامير الشهابي وتطلب منه جباية الاموال الطائلة ، وتأمر حكامها في الشام ولبنان على السواء بكتابة التقارير الكاذبة ومهرها بأختام السكان بشتى الطرق لتصور هدوء الحالة أمام قناصل الدول ، وحرصها على راحة الاهلين وخصوصا النصارى منهم (٢) .

أما فرنسا فقد التزمت جانب الموارنة خدمة لمصالحها السياسية ، وتردد قناصلها على بطريركهم يمدونه بالمال الغزير ، ويؤيدونه بالمعسول من الكلام (ولطالما استعملت الدول اسلوب الحماية الدينية للسيطرة السياسية والتدخل غير المشروع) حتى استولى عليه الغرور الذي زاده خضوع الامير الشهابي له ، ومساعدته على بسط نفوذه ونفوذ فرنسا معا ، وسكر المسيحيون بجرأة بطريركهم ، فجاهروا بالعداوة ، وتحدثوا عن ضرورة سحق الدروز ، ثم

---

(١) انظر الوثيقة رقم (١٤) . الباب الثاني من هذا الكتاب .
(٢) انظر الوثيقة رقم (١٨) . الباب الثاني من هذا الكتاب .

أغروا الامير بشيرا بقفل المدارس الانكليزية والاميركية في الجبل ، ولما ذهب أحد كبار الدروز يحتج على ذلك ويفهم البطريرك ان هذه المدارس ـ وهي مسيحية اصلا ـ انما جعلت لفائدة الطرفين ، أجابه مطران بيروت ـ وكان عند البطريرك ـ (انه سيبطش بكل درزي ويخضع الهراطقة عن قريب لارادته) (١) ، فعاد الشيخ يروي ما رآه غاضبا ، كما اعلن الموارنة في نفس الوقت أنهم لن يدفعوا الاموال المفروضة عليهم للدولة ، والا حق للسلطان في جمع المال منهم .

ههنا بلغ التحدي مداه ، شعر به الدروز أول من شعر ، فأرسلوا يعلمون اخوانهم ويطلبون اليهم الاستعداد للحرب ، وأرسلوا الى الباب العالي يبدون طاعتهم ويطلبون تولية أحدهم أو أحد الاتراك على الجبل ، ورأى رجال الدولة عصيان الموارنة وموقف الدروز ، وكانت ذكريات بونابرت غير بعيدة وتدخلات فرنسا مستمرة دائمة ، فوقفوا يرقبون الموقف بحذر ؛ أما انكلترا فقد وقع اختيارها على الدروز لمقاومة السياسة الفرنسية ، بعد أن أبلغها ممثلوها أن الموارنة (مستسلمون لفرنسا جسما وروحا) (٢) .

ووقعت الواقعة في (١٤ ايلول ـ سبتمبر ١٨٤١) ، عندما تسلل بعض المسيحيين من شبان دير القمر الى ارض الشيخ ناصيف ابي النكد من أكابر الدروز ، فتصدى هؤلاء لهم ، وأوسعوهم ضربا ولكما ، وعاد المسيحيون يحدثون بني قومهم عما حدث لهم ، فغلت الدماء في العروق ، وسرت الانباء سريان النار في الهشيم ، وكمن النصارى للدروز في طول الجبل وعرضه

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام . ص (٧٧) .

(٢) الكتاب الازرق الانكليزي (١٨٤٣) . من تقرير الكولونيل روز الى الحكومة البريطانية في (١ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٨٤١) .

يقتلون من يصادفونه منهم ، حتى مضى على هذه الحال شهر كامل استكمل الدروز خلاله أهبتهم الكاملة للدفاع والحرب ، ثم اندفعوا في (١٣ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٨٤١) كالسيل يحيطون بدير القمر مقر الامير احاطة السوار بالمعصم ، ويحرقون المزارع والبيوت المجاورة له ، وعبثا جاء أيوب باشا والكولونيل روز الانكليزي يريدان التوسط ، وعبثا توسل المسيحيون الى الاتراك وتضرعوا ، فقد أصر الدروز ، واستمر الحصار حوالي ثلاثة اسابيع ، ثم طلب الدروز اسلحة المدينة ، فخاف سكانها وطلبوا من سليم بك حاكمها التركي ان يستقدم قوة لحمايتهم ، فرفض ، وانتهى الامر بتسليم الاهلين اسلحتهم ومغادرة الامير بشير قاسم المدينة فتعرض له الدروز ، وأهانوه ، وألقوا بعمته على الارض ، ثم دخلوا دير القمر ظافرين •

وسمع البطريرك فاندفع غاضبا يوزع المال ويجمع الرجال ، واشتعلت في في الجبل نيران حرب أهلية دينية لم تشهدها البلاد من قبل •

أغار الدروز على مزرعة بالشوف ، فانهزم رجالها تاركين مهاجميهم يحرقون المنازل ويأخذون ما على نسائهم من حلي دون مس الاعراض ، وجاءت جزين فرقة درزية كانت في حصار دير القمر تحت امرة الشيخ سعيد جنبلاط الذي ارسل الى الاهلين يطلب سلاحهم ، حتى اذا تم ذلك ـ والحرب خدعة ـ أمر بالهجوم ليلا على القرية ، وهكذا فعل وصحبه في بكاسين ودير مشمشة وبتدين القش ، وعين الجوزة وجرنايا وجرجوع وغيرها حتى خضعت القرى المسيحية في أقل من عشرة ايام •

أما الامير بشير قاسم فقد ارسل الى القرى النصرانية في السواحل يأمرها بارسال جيش من أبنائها ، ثم هام على وجهه قاصدا تلك القرى لقيادتها ،

الا ان الجيش المطلوب تجمع قبل وصوله ، واصطدم بالدروز فانكسر وتشتت ، فلما وصل الامير رأى ان الهزيمة قد نزلت برجاله ، وان الجنود الاتراك يرمون الفارين منهم بالرصاص ، ويقبضون على من التجأ اليهم من النساء فيستبيحون اعراضهن ويعذبون اطفالهن ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وطلب الى القائد التركي احترام شرف الناس وارواحهم اذا كانوا راغبين عن الوقوف في وجه المهاجمين ، فأظلم وجه القائد وأمره بمغادرة المكان فورا الى بيروت ، فاتجه اليها ، وهناك استنكر القناصل الاحداث الجارية على مرأى ومسمع من الجنود والضباط الاتراك ، فسارعوا الى الاتصال بالقائد العام سليم باشا الذي أظهر دهشته ، ورافقهم الى منطقة بعبدا حيث انحى اللائمة على الدروز وأمرهم بالكف عن كل ما يخل بالامن والنظام ، فنفذوا الامر في وجوده ، وانقسموا بعد رحيله الى قسمين ، ذهب أولهما الى المتن ، والثاني الى البقاع .

وكانت منطقة البقاع تابعة لوالي دمشق نجيب باشا ، فعين شبلي العريان بطل الثورة على ابراهيم حاكما على حاصبيا وراشيا ، وعمد هذا الى نزع السلاح من النصارى ، حتى اذا تم له ذلك اتجه بقوة كبيرة لمؤازرة جيش سعيد جنبلاط الزاحف من بعبدا ، وقصد الاثنان زحلة بعد أن انضمت اليهم فرقة من الجيش التركي النظامي . وأرسل الاتراك يؤمنون سكان مدينة البقاع الشديدي البأس على ارواحهم واموالهم واعراضهم شريطة أن يسلموا اسلحتهم ، فرفض الاهلون ذلك ، وصمدوا بعناد للهجوم الشديد الذي شن عليهم حتى ارتد المهاجمون عنهم ، لينقضوا على ما جاورهم من القرى فيدمرونها ويهزمون الارامل واليتامى الى السهول والجبال ، عل في الغابات والكهوف ما يجيرهن من شر الفتنة التي استثمرها الاتراك والاوربيون كل لصالحه .

وثارت ثائرة المسلمين في بلاد الشام عامة ، واستعد نجيب باشا للذهاب الى الحج تخلصا من المسؤولية اذا ما حدثت في غيابه الحوادث التي كان يتهيأ لها منذ زمن ، فتصدى له قناصل الدول ، وخصوصا (ريتشارد وود) قنصل انكلترا مع بعض عقلاء المسلمين ، ومنعوه من الذهاب ، فصرف النظر عن الرحلة ، ونادى بالامان ، فسكت الدروز ، وباتوا يرقبون تدابير الحكومة العثمانية •

تلخصت تلك التدابير في عزل الامير قاسم من ولاية الجبل وارساله الى الاستانة ، وتعيين عمر باشا النمساوي واليا على لبنان في (١٥ كانون الثاني — يناير ١٨٤٢) فاستدعى نصارى لبنان ، وطلب اليهم رفع المعلومات اللازمة اليه ليتوسط في معاقبة المذنبين ، وتعويضهم عن الاموال المفقودة ، فوضعوا تقريرا ضافيا مهروه بأختامهم وضمنوه أسماء بعض كبار الدروز الذين لعبوا دورا هاما في الفتنة ، فاطلع الاتراك الدروز على هذا التقرير ، توطيدا لسلطة الدولة على لبنان ، وزيادة في العداوة بين الطائفتين المتنافستين •

ثم عمد الوالي الجديد الى طريقة أخرى لاسكات الدول ونيل رضا الباب العالي عنه ، استكتب الاهلين عرائض تستهجن حكم الشهابيين وتبالغ في مديح الحكم التركي ، واستعمل كل الوسائل لحمل الاهلين على ختمها والموافقة عليها ، فأدخل في روع المسلمين أن المسيحيين هم أعداء الاسلام الذين يستعدون الدول الاوربية عليه ، وان الدولة هي السلطة الوحيدة التي تستطيع حماية الدين الحنيف ممن يريدون له الذل والهوان ، وأوهم المسيحيين أن المسلمين يتحفزون لاعادة الكرة ، وليس هنالك من يستطيع منعهم من ذلك سوى الدولة ، وختمت تلك العرائض فعلا وارسلت الى العاصمة ، ولكنها أورثت المسلمين الحقد على المسيحيين والتخوف منهم ، وأدخلت في قلوب

هؤلاء القلق والخوف الدائمين ، مما جعلهم يتجهون بأنظارهم فعلا الى الدول الاوربية .

الا ان الصعوبات ما لبثت أن اكتنفت عمرباشا من كل جانب ، لان الدروز وقد أخذتهم العزة بنصرهم الاول ، أبوا اطاعة اوامره وتذمروا منه في كل مناسبة ، حتى لقد جاهر شبلي العريان بان الاتراك قاسموه وطائفته في الاسلاب والغنائم حتى لم يبق هناك موظف تركي الا كان له نصيب كبير منها ، حتى الصدر الاعظم نفسه ، فاستنجد الوالي بالسر عسكر فأبى هذا عليه ذلك ، ونعى عليه انقلابه على الدروز أبناء دينه واتخاذه جانب المسيحيين ، الامر الذي اضطر عمر باشا الى اللجوء للدس والحيلة ، وذلك بان دعا خمسة من كبار مشايخ الدروز لتناول طعام العشاء في مقر ادراته ، ثم قبض عليهم وأرسلهم الى سجن صيدا ، فقامت قائمة الدروز ، وادعوا بأن تجرؤهم على النصارى كان بناء على أوامر من الدولة ، وهددوا بافشاء الاسرار ، الا ان الاتراك عمدوا الى تعيين مشايخ غير أولئك الذين سجنوا ، وتوزيع العطايا والالقاب ، ثم داروا بعرائض جديدة على المسلمين والمسيحيين يطلبون توقيعها بأي ثمن ، فامتنع البعض عن ذلك ، وطرد يوسف كرم رسل الباشا من بلدته .

عند ذلك بدأ الطرفان يدركان حقيقة مساعي الاتراك في تفريقهما ليبنوا مجدهم على جثث القتلى وأموال المصابين ، فاتصل الدروز بالموارنة لخلع طاعة الدولـة ، وأظهروا استعدادهم للرضوخ لاحكام الشهابيين ، الا انهم اشترطوا على الموارنة ان يبدأوا الحرب ضدها ، فلم يرض هؤلاء ، وانطوت صفحة التآلف ، لتبدأ صفحة جديدة في محاولة الدروز الثورة على الدولة ، وأحاطوا فعلا ببيت الدين مقر عمر باشا في (١٨٤٢) وقطعوا الماء عنه طالبين عزل الوالي واطلاق سراح زعمائهم وتسليمهم مقاليد الامور ، ولما أعيت الباشا الحيل ، استنجد بالقوة العثمانية ، فاتجه اليه من صيدا جيش مجهز ببعض

المدافع هاجم الدروز من الوراء بينما كر عليهم الباشا بجنوده ومن تطوع معه من فرسان المسيحيين وقضي على الحركة في المهد .

هنا أدرك رجال الدولة في عاصمة السلطان ان الامر لم يحن بعد للقضاء على استقلال لبنان النسبي وجعله مقاطعة عثمانية ، خصوصا وقد تحرك عليهم قناصل الدول وسفراؤها يطالبون بوضع حد لهذه الحوادث وحلها من الاساس ، وأسفر الامر عن اتفاقية تشرين الاول ـ تشرين الثاني (اكتوبر ـ نوفمبر) سنة ١٨٤٢ ، التي حاولت الفصل بين الدروز والموارنة ، وقسم لبنان الى قائمقاميتين تضم كل واحدة منهما أحد الفريقين وتتبعان بيروت أو صيدا ، وذلك رغم معارضة فرنسا واستياء الموارنة لان هـذا النظام لم يحقق لهم السيادة على الجبل ، وفي الاول من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٣ عين الامير حيدر ابو اللمع قائمقاما على النصارى والامير احمد ارسلان قائمقاما على الدروز .

وقد أبدى الدروز نية طيبة في معايشة جيرانهم على هذا الاساس ، الا ان الموارنة الذين أصبحوا تحت سيطرة القائمقام الدرزي ـ وكانت الطائفتان مختلطتين في بعض مناطق الجبل ـ أظهروا تذمرهم من الخضوع لامراء الدروز وتحدثوا عن العصيان ، قائلين انهم يفضلون الموت على ان يكونوا تحت امر الدروز ، بينما خضع المسيحيون من غير الموارنة دون تذمر وآثروا النظام الجديد على حكم الاكليروس .

ولما ابتدأت همسات الموارنة ترتفع وتذمرهم يصل الى مسامع قناصل الدول (١) ، ورد الفعل لدى الدروز ينذر بأوخم العواقب ، بدأت محاولات

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٢١) .

التوفيق ، فاذا بالاتراك يعرقلون تلك المحاولات ، ويقترحون ما لا يمكن تنفيذه ، حتى صمم الطرفان على اللجوء مرة أخرى الى القتـــال ، وقال بطريرك الموارنة على مسمع من الناس (اما ان يسود الدروز علينا واما ان نسود عليهم ، فلنبدأ بالاستعداد لان الذي يضرب الضربة الاولى يصبح أقرب الى الفوز من خصمه) .

وانعقدت الآمال على دير القمر لبسالة أهلها وتجرئهم على الدروز بشكل سافر ، ثم وصلت كمية كبيرة من الاموال الى البطريرك الماروني للتعويض عمن نكبوا في الحوادث ، فحجبها البطريرك عن اصحاب الحق الشرعي فيها ، ووزعها على بعض الاتباع للاستعداد للحرب المقبلة ، وقام هؤلاء بحملة دينية واسعة ، أقنعوا فيها الناس بان الواجب يستصرخ كل مسيحي لمحاربة الدروز وطردهم نهائيا من جبل لبنان .

كل ذلك والدروز صابرون مترقبون ، يفدون الى المختارة ليحلوا ضيوفا على سعيد جنبلاط ، ويرسلون العرائض الى الحكومة العثمانية طالبين ارسال القوات الكافية لحمايتهم نظرا لقلة عددهم بالنسبة للمسيحيين ، حتى كان اليوم الثاني عشر من نيسان ١٨٤٥ ، واذا بجموع مسيحية هائلة تهاجم كافة القرى الدرزية ماعدا المختارة ، فتدمر اربعة عشر قرية في الشوف وتنهبها بقيادة المطران الذي كان يسير في الطليعة ، وتعالت أصوات المصابين بالانين ، والنساء بالنواح والعويل ، تزيد في حماسة المهاجمين وتوقد في قلوبهم حب الانتقام فيبالغون في الفظائع ويزدادون صياحا وانشادا ، حتى اذا أثملهم الظفر وأسكرتهم رائحة الدماء ، توجهت جموعهم الى المختارة حيث اجتمعت وفود الدروز وربضت الفرق التركية التي جاءت لمساعدتهم على صد هذا التيار الهائج .

وفي المختارة اصطدم المهاجمون بمدافع العثمانيين وبنادق الدروز ، فارتدوا عنها ، وانحدر الدروز الى عبية حيث جرت معركة قتل فيها الكثير من المسيحيين ، وكاد الامر يستفحل لولا تدخل (الكولونيل روز) باسم الحكومة البريطانية ، وتعقل مشايخ الدروز وأمرائهم ، فأخبر سعيد جنبلاط زملاءه واخوانه بالكف عن القتال ، وانتظر الجميع الاوامر الشاهانية الجديدة. وسرعان ما وصلت أوامر الباب العالي مع مبعوث خاص ، بعد ان تداول مع سفراء الدول وهي تقضي بابقاء الجبل مقسما الى قائمقاميتين ، ولكنها تضع الى جانب كل قائمقام مجلسا اداريا يضم وجوه المنطقة لمساعدته . أما في القرى المختلطة فقد عين وكيل للنصارى من طائفتهم يساعد الشيخ الدرزي في الحكم . وقد سمي هذا النظام باسم شكيب افندي الذي وضعه في أواخر سنة (١٨٤٥) وطبق في الجبل ماعدا دير القمر التي كانت وسط المنطقة الدرزية ، لان سكانها طلبوا حاكما تركيا عليهم بدلا من الحاكم الدرزي ، فأجيبوا الى طلبهم ، وسكنت النار تحت الرماد .

ومرت الايام ، والنار تزداد اضطراما في القلوب ، وسلطة سادة الدروز تزداد بازدياد الاحقاد والضغائن ، حتى لم يبق لمعاون الامير في القرى المختلطة من رأي ولا أمر ، وكثر الاعتداء على الاراضي وكثرت رشوة الحكام والولاة لاقرار هذا الاعتداء واكسابه صفة شرعية تعيد مراجعي المسيحيين من بيروت الى بيوتهم بخفي حنين ، ونمت المدن وازداد عدد السكان فأصبح عدد سكان زحلة (١٢٠٠٠) نسمة سيطروا على البقاع ، وبلغ عدد سكان حاصبيا (٦٠٠٠) نسمة أكثرهم من الروم الارثذوكس وبينهم حوالي (١٥٠٠) درزي ، ولم تخل تلك الايام من حوادث توقد العداوة في النفوس ، فقد حاول الشيخ بشير أبو النكد مثلا تشييد دار له

قرب دير القمر ، فوقف النصارى في وجهه ، ومنعوه من ذلك .

. وقام اهل حلب سنة (١٨٥٠) وخصوصا سكان باب النيرب وقارلق وبانقوسا بمهاجمة احياء النصارى ينهبون بيوتهم ويقتلون حوالي (١٥) مسيحيا فتدخلت قوات الوالي وأعادت الهدوء الى المدينة بعد ان قتل حوالي (٥٠٠) من السكان ، وردت الى النصارى أكثر الامتعة التي سلبت منهم .

ثم جد في الافق الدولي حدث جديد ، انبعثت شرارته من الشام وأطفئت نيرانه في القرم ، فقد اختلفت الطوائف المسيحية في بيت المقدس ، وكانت خلافاتها كثيرة يزيدها تدخل الدول الاوربيـــة ، حتى كان الحرس التركي يحفظ النظام والامن في القبر المقدس طوال ايام عيد الفصح (١) ، نتيجـة لاختفاء نجمة مرصعة بالفضة من كنيسة المهد في بيت لحم . ثم عاد الخلاف مرة أخرى حول مفاتيح الكنيسة المذكورة ، ولم يكن هناك نظام أو عرف مكتوب لحل أمثال هذه الخلافات ، فقضى الباب العالي باعطاء اللاتين مفاتيح ثلاثة من الابواب الهامة والممرات تحت الارض ، وأبقى مفتاح الباب الرئيسي في حوزة الارتذوكس ، وانتهى هذا الخلاف بقيام الحرب التي عرفت بحرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية وانحازت فرنسا وانجلترا الى جانب الدولة وانتهت الحرب بعقد معاهدة باريس في آذار ــ مايس سنة (١٨٥٦) التي ضمنت سلامة الامبراطورية العثمانية .

ولكي تضمن الدول اجتناب مثل هذه الحوادث في الشام ، أجبرت السلطان على اصدار (خط همايون) يحفظ حقوق النصارى في الولايات

---

(١) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية . الترجمة العربية . الجزء الرابع . ص (٤١) .

العثمانية ففتحت لهم أبواب الانتساب الى المعاهد العلمية الرسمية وأبطل أمر الاساءة اليهم في خطب الجمعة وشملتهم الجندية الاجبارية ، ومثلت طوائفهم في مختلف المجالس الادارية •

الا ان هذه الاصلاحات أثارت مخاوف المسلمين الى حد كبير لانها حرمتهم بعض الامتيازات التي كانوا يعدونها خاصة بهم ولانهم تحسسوا الى أي حد بلغ تدخل الدول الاوربية في شؤون الامبراطورية ، وزاد هذا الشعور تدخلات قنصل فرنسا وبعض تصرفاته وتأييده للموارنة ، فازداد القلق وتألفت جمعيات خاصة تستحيف على المجد السالف وتذهب في تذمرها الى حد المطالبة بازالة الحكم التركي اذا كان يساير الاجنبي الى هذا الحد •

وتوفي قائمقام النصارى سنة (١٨٥٧) فعين الامير بشير أبو اللمع مكانه ، وكذلك مات بطريرك الموارنة فخلفه من كان أشد تعصبا منه ، استثار قومه ضد الدروز والبروتستانت والارتذوكس على السواء فانفجرت في الكسروان ثورة ضد الخازنيين سنة (١٨٥٧) أجبرتهم على ترك أملاكهم واللجوء الى بيروت واغتصبت كنائس الاتذوكس وخربت مدارس البروتستانت ، وشجع القائمقام المسيحي الجديد هذا النوع من الاعتداء حتى شعر الدروز بالخطر من جديد فتجمعوا حول أسيادهم ومشايخهم ، واستعدوا لمجابهة الطواريء التي لم يكن منها بد •

وهكذا تهيأت أسباب الحوادث المشؤومة : تحدي مستمر من قبل الموارنة ، وسياسة تركية تشجع الخلاف ، وتدخل أوربي يثير أعمق جذور التعصب في النفوس •

• • •

تجمع الدروز من بيت مري والقرى المجاورة بأعداد كبيرة وهاجموا بيت مري بقوة ، فردهم أهلوها ، وتحولت الفتنة الى القرى المجاورة التي احترقت وسلبت ، وكثر العـدوان حتى قدم خورشيد باشا والي بيروت فأوقف النزاع دون أن يعاقب أحدا من الطرفين لئلا تزداد الاحقاد ، ثم عاد ، وكان فصل الشتاء قد أقبل ببرده وثلجه فسكنت العاصفة ، وابتدأ عقلاء الطرفين يفكرون في المستقبل القريب .

أما الدروز فقد رأوا من جيرانهم تصرفا لم يرق لهم ، وبدت منهم في بيت مري مقاومة لم يتوقعوها ، وكانت تهديدات البطريرك وأنباء تصرفات القنصل الفرنسي ترد اليهم من كل صوب ، فعقدوا الاجتماعات المتتالية ، ثم انحدروا الى بيروت حيث صارحوا خورشيد بقلقهم ومخاوفهم ، فاذا بالوالي التركي يشاركهم شعورهم ، ويخشى من تغلغل النفوذ الفرنسي على أيدي هؤلاء الرعايا الذين جاهروا في كل آن بحبهم لفرنسا وتعلقهم بها ، واذا بالعاصمة تشاطر ممثلها والدروز من رعاياها آراءهم ، وتصـدر في نيسان سنة (١٨٦٠) أوامر سرية الى خورشيد أرسل هذا على أثرها الرسل الى سعيد جنبلاط ، وقصد المختارة بعد ذلك عـدد كبير من الدروز على أفواج متتالية .

وأما النصارى فقـد تشجعوا بالنصر الذي أحرزوه في بيت مـري ، وتهامسوا بأن زحلة ودير القمر في منعة من كل هجوم اذا كانت بيت مري على صغرها وحقارة شأنها قد استطاعت صد الدروز ، وان قناصل الدول لن يتركوا مجالا ولن يسمحوا بأي حال من الاحوال بالاعتداء عليهم ، وربما آزروهم في كل عمل يقومون به ومن ثم تجمع حوالي ثلاثة آلاف مسيحي

في زحلة ، وزحفوا الى (عين دارا) احدى القرى الدرزية القريبة منهم ، فقابلهم ستمائة من سكانها ، وصدوهم عنها .

وهنا تحققت مخاوف الدروز ، ورأى زعماؤهم الخطر ماثلا يهدد بافنائهم وطردهم من الجبل ، خطر الموارنة الذين يفوقونهم عددا ، خلا تأييد فرنسا لهم ، وكانت فكرة اجلاء الدروز الى حوران تشكل الحلم الجميل للموارنة منذ سنة (١٨٤٠) (١) ، فأرسل سعيد جنبلاط الى زعيم دروز حوران (اسماعيل الاطرش) يشرح له الموقف الخطير ، ويطلب اليه النجدة بسرعة ، وأحرق الكتاب من أطرافه الاربعة اشارة للخطر الشديد ، وشدد على الرسول بضرورة افهام الزعيم الدرزي موقف الدروز في لبنان وما يتعرضون له ، وما عتم أن أثمر الكتاب ، وتوجه حوالي ثلاثة آلاف درزي من حوران الى وادي التيم وقد أخذ الحماس منهم كل مأخذ .

وكانت المدينة الهامة في وادي التيم آنئذ حاصبيا ، الواقعة على نحو (٤٦) ميلا شرقي دمشق ، بلغ عدد سكانها سنة (١٨٦٠) حوالي ستة آلاف نسمة أكثرهم من الروم الارتذوكس ، سبقت زحف الدروز اليها أنباء استفزت سكانها وجيرانهم من الدروز على السواء ، واقترن كل ذلك بحوادث كانت الغلبة فيها للدروز ، فابتدأ نصارى القرى المجاورة يفدون اليها بأسرهم ومتاعهم استعدادا للقتال ، على حين تمركز الدروز في (شويا) وانضم اليهم فيها ما يزيد عن الف مقاتل من دروز مجدل شمس واقليم البلان وراشيا ، حين وصلت أنباء دروز حوران ومسيرهم للنجدة .

وفي صباح السبت (١٩ ايار — مايو ١٨٦٠) توجهت طلائع كشافة من

(1) Souvenirs de Syrie, Expédition Française de 1860 (par : un temoin ocuaire). Paris 1903. P. 26.

الدروز الى المدينة ، ثم عادت تنبيء قومها باستعداد النصارى للقتال ، لتخرج اليها كتائب درزية منظمة في اليوم التالي (الاحد ٢٠ ايار ــ مايو) فتهاجم حاصبيا وتدخلها رغم المقاومة الشديدة ، وتجبر سكانها على الالتجاء الى دار الحكومة الحصينة ، حيث منع القائد التركي عثمان بك النساء من ادخال الطعام اليهم ، ثم عمل على استلام أسلحة اللاجئين ، وقدمها للدروز الذين كانوا يزدادون باستمرار ، الى ان كان يوم الاثنين الرابع من حزيران ــ يونيو حين توفي كنج ابو صالح شيخ قرية مجدل شمس متأثرا بجراحه ، وشيع جثمانه في جو محموم غلبت عليه نزعة الثأر وحب الانتقام ، فخرجت أفواج كبيرة انضمت الى الطوق الذي ضرب حول السراي ، وبلغ التوتر حدا لم يعد يحتمل .

ثم بدأ الهجوم ، وتدفق الدروز الى داخل دار الحكومة دون ان يحاول الجند المنظم منعهم من ذلك ، فاصطفوا في باحتها أمام جمهرة المسيحيين الذين تجمعوا خائفين في القسم الشرقي من الساحة ينتظرون قضاء الله دون أن يكون لديهم أية وسيلة من وسائل الدفاع . وما كاد علي حمادة يعطي قومه الايعاز حتى انقض الدروز على اعدائهم ، حتى اذا تم قتل الرجال في الساحة ، صعد المهاجمون الى الاعلى يكملون ما بدأوه ، ويستأصلون الخصوم أينما وجدوا ، حتى سمع القوم نداء السيدة نائفة اخت سعيد جنبلاط ــ وكانت قادمة لتوها من منزلها ــ بالكف عن القتال ، فتوقفوا عنه ، وقادت السيدة الدرزية من بقي من الرجال وكافة النساء ــ ولم يتعرض لهن الدروز بأي سوء ــ الى بيتها الذي كان لهم ملجأ أمينا مكثوا فيه حتى جاء أمر سعيد جنبلاط الى اخته في (١٣ حزيران ــ يونيو) بالقدوم مع هؤلاء اللاجئين ، على أن تكون مسؤولة عنهم ، فقادتهم الى المختارة ، ومن هناك

ذهبوا متفرقين الى السواحل يطلبون الرزق ويقصون على اخوانهم نتائج التعصب في حاصبيا والحرب الاهلية فيها •

وقد تواردت أنباء حاصبيا منذ يومها الاول الى راشيا ، وهي بلدة تقع وسط وادي التيم ، فعم القلق ، وهـال الاهلين عدم اكتراث الحكومـة العثمانية وموقفها الحيادي من تلك الحوادث الهامة ، واجتمع عقلاء النصارى يتداولون في الامر ، ويقررون الاتصال بشيوخ الدروز ، وافتداء أرواحهم بأي ثمن ، فقابلهم هؤلاء ببشاشة وحفاوة في (٢١ ايار ــ مايو ١٨٦٠) ، ووعدوهم ببذل كل ما في وسعهم لرد الاذى عنهم ، وعاد الرسل والبشر طافح على وجوههم يذكرون وعود ضباط الحامية العثمانية ويتحدثون الى مرسليهم بابتعاد الشر وزوال الفتنة •

الا ان الليل لم يكد يرخي سدوله ، حتى هب السكان مذعورين على صوت طلقات نارية قرب بلدتهم ، وجنح الرجال الى أسلحتهم للدفاع فاذا بالدفاع فاشل ، واذا بفرق الدروز تتدفق على منازلهم وأحيائهم وتجبرهم على اللجوء الى القلعة حيث استقبلهم الضابط التركي بوجه بشوش ، بعد أن أخذ سلاحهم، وهناك قضى المسيحيون ثمانية أيام قاسية كان شبح الموت فيها ماثلا أمام الجميع ، حتى اذا حل يوم الثلاثاء (٢٩) ايار واكتملت جموع الدروز امام القلعة ، فتح لهم الجنود الباب ، فدخلوها وفتكوا بخصومهم •

ولما انتهت حوادث حاصبيا وراشيا توجه الدروز الى دير القمر ، وهي بلدة مسيحية تقع الى الجنوب الشرقي من بيروت بلغ عـدد سكانها سنة (١٨٦٠) حوالي ثمانية آلاف نسمة ، حاول أهلوها جهدهم الاتفاق مع الدروز ، ولم يظهر لهم هؤلاء شيئا من العداء حتى يوم الجمعة الاول من

حزيران ـ يونية ، حين رأى السكان حوالي ألفي درزي يطوقون البلدة ، فاستنجدوا بالحامية العثمانيـة ، فاذا بجواب ضباطها جاف لا يبعث على الاطمئنان (ليس لدينا أوامر بالدفاع عنكم) فعمدوا الى الدفاع عن أنفسهم ، وصدوا الهجوم الشديد الذي شنه الدروز عليهم طيلة ذلك النهار ، فلما اختفت الشمس وحل الظلام الموحش محل النهار الواضح المعالم ، طرق المسيحيون دار الحكومة ، واذا بالباب موصد ، فبذلوا الاموال للجنود ، ففتحت لهم الابواب ، وحلوا على الرحب والسعة !..

وتجدد القتال في اليوم الثاني ، وأثمرت جهود العقلاء بعقد جلسة بين الطرفين صدرت على أثرها أوامر سعيد جنبلاط الى قومه بالرجوع ، فانكفأوا عن البلدة يوما واحدا ، ليعودوا بعده الى حصارها يوم الاحد (١٥ حزيران ـ يونيو) فأصدرت الحكومـة تعليماتها بحظر الخروج على الاهلين خارج البلدة ، وجرت اتصالات بينها وبين سليم وشاهين ابي النكد ، ثم وصل طاهر باشا قائد حامية بيروت فأخذ على النصـارى تعهدا خطيا باخلادهـم الى السكينة وأرسل اليهم المدد العسكري وأمر بمدهم بالمؤن التـي يحتاجون اليها ، الا انه لم يكد يغادرهم حتى عاد الدروز الى تطويقهم من جديد ، وحجز المؤن التي كانت في طريقها اليهم حتى يوم الاربعاء (٢٠ حزيران ـ يونيو ١٨٦٠) حين بدأ الهجوم العنيف الذي دخلوا على أثره المدينة ، فلجأ قسم كبير من المسيحيين الى دار الحكومة ، وحاصرهم الدروز فيـها حتى اذا اكتملت جموعهم ، تقدم أحد الجنود وفتح الباب بعد أن جرد اللاجئون من سلاحهم ، فانقض عليهم المحاصرون تحت سمع جند الدولة العلية وبصرهم دون أن يمسوا النساء بأذى ، وكان الدروز يحترمون حياتهن وشرفهن على

السواء ، الامر الذي اعترف به أكثر مؤلفي ذلك العصر تعصبا من الفرنسيين(١) ، كما اعترف به الموارنة أنفسهم (٢) .

ثم توجهت فرقة من الدروز الى بيت الدين لتعيد المأساة بين أهلها واللاجئين اليها ، وطوقت فرقة اخرى بيت الجاويش ، أحد المنازل الحصينة في دير القمر التي لجأ اليها بعض الاهلين ، بينما دخل آخرون منهم الدير ، حتى اذا انتهوا منهما ، كان والي بيروت قد وصل بعد الحاح من القناصل وأمر بتأمين الاهلين على أموالهم ، فانطلق رجاله ينادون بالامان ، وانتشر الجند لحفظ النظام .

أما في المتن فقد بدأت الحوادث بأن تجمع في (٢٩ ايار ــ مايو ١٨٦٠) حوالي اربعمائة مسيحي من كسروان وعبروا نهر الكلب باتجاه مواطن الدروز ، وهاجموا بعض القرى ، فاجتمع الدروز لمقاومتهم وتدخل خورشيد باشا بالاتفاق مع قناصل الدول ، واحتل الحازمية واستدعى اليه وجوه الطرفين يعرض عليهم الصلح ويحاول ازالة أسباب الخلاف ، فلم ينسحب المسيحيون كما طلب الوالي منهم واشترطوا لذلك أن يضع الدروز أسلحتهم ، بينما رفض هؤلاء أن يتفرقوا الا بعد رجوع المسيحيين الى ديارهم ، وهكذا فشل خورشيد في تهدئة الحال ، ووقع القتال الذي تغلب فيه الدروز بمساعدة الجنود الاتراك الذين استفزتهم بعض الاعمال العدوانية ، وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهيب تحرق القرى وتدمر المنازل ، واختلطت أصوات النساء والاطفال بأنين الجرحى من المصابين ، وبالغ الاتراك في الاعتداء على الرجال والنساء

(1) Un temoin oculaire : Souvenirs de Syrie (Expédition Française de 1860). Paris 1903. P. 62.

(٢) انظر الوثيقة رقم ٢٦ .

على السواء ، فكانوا ينتزعون الطفل من يد أمه ويقتلونه ثم يعيدونه اليها قائلين (لقد أسكتناه لك) • وعمت المجازر المتن بأكمله الا بلاد الشوف حيث نجح محمد ارسلان في اخماد كل جذوة للفتنة اتقدت داخل حدودها أو ألقيت فيها من الخارج •

ولم تخل صيدا ومنطقتها من اضطراب وثورة ، فقد قامت قيامة المسيحيين في اقليم التفاح المجاور لصيدا واجتمعوا تحت امرة احد شجعانهم المدعو يوسف المبيض بينما تكتل الدروز تحت قيادة قاسم يوسف ، ودار القتال بين الطرفين بشدة ، فانهزم يوسف المبيض ورجاله الذين قصدوا جزين للاحتماء بأهليها ، الا ان هؤلاء أيضا كانوا عرضة لهجوم شديد شتتهم وأجبرهم على الفرار من هذا الضيق الذي وقعوا به ، فقصد بعضهم صيدا حيث تلقفهم الاهلون على الطريق بالسيوف والنيران ، ولجأ بعضهم الى غاب قريب أحاط به الدروز وأشعلوا النار فيه ، فالتهمتهم النيران مع الغاب الذي ألجأهم ، وتمكن بعضهم الآخر من الدخـول الى المدينة والالتجاء الى خان الفرنجة الذي كانت فيه القنصلية الفرنسية تخلصا من قراهم التي كانت تحرق تباعا •

وشهدت صيدا في ذلك اليوم منظرا تعيسا ، عندما بدت لها قرى الجبل المختلفة وقد تعالت منها ألسنة اللهيب تضيء ما حولها وتلتهم كل شيء ، وارتفع الدخان الاسود القاتم في سمائها يحجب ضوء القمر وبريق النجوم بينما ظهرت مياه النهر الممتزجة بدماء الضحايا بألوان فضية حمراء تحت أضواء النيران وأشعة القمر • وكانت نتيجة ذلك أن عم الهياج في المدينة وكاد أهلوها يهاجمون نصارى مدينتهم وخـان الافرنج لولا أن وصلت بعض الاساطيل الاوربية ، فخاف الثوار العاقبة وأخلدوا الى الهدوء • وقد منع بكوات آل علي الصغير حدوث المجازر في بلاد بشارة كما استطاع شيخ

عرب الهنادي الحيلولة دون ذلك في كل من عكا وصفد وطبريا والناصرة .

أما زحلة التي اشتهرت بشدة رجالها وشجاعتهم ، فقد اجتمع لقتالها حوالي خمسة عشر الف مقاتل من دروز حوران والجبل والمتاولة والعربان ، ثم انضم اليهم جيش تركي ، فقاتلهم الاهلون بشجاعة أدخلت اليأس الى قلوبهم وأشعرتهم بضرورة اللجوء الى الحيلة ، فحملت فرقة منهم الصلبان وقصدت الجبل ثم انحدرت منه الى زحلة وهي تنادي بحياة يوسف كرم وطاعته ، فظن الاهلون أنها نجدة مسيحية قادمة لعونهم وخرجوا لاستقبالها فاذا بجموع غفيرة من المهاجمين تحيط بهم وتعمل في أجسادهم الاسلحة الماضيـة ، ثم تدخل مدينتهم الخاوية فتسلب ما فيها ، ويرتكب الاتراك كل شائن من اعتداء على الاعراض والاموال والارواح على السواء . وقد امتدت الحوادث الى البقاع وبعلبك وأحرق كثير من القرى كما تلبدت الغيوم في سماء بيروت وهاجر البعض منها ونقل البنك العثماني محتوياته الى انكلترا ، الا انه لم يحدث في المدينة كما حدث في الجبل والبقاع .

. . .

وأما دمشق فقد اختلفت حوادثها من حيث السبب والصبـغة ، نجمت حوادث الجبل في قسم منها عن صبغته الاقطاعية ، في حين كانت حوادث دمشق من النتائج البعيدة لحرب القرم واصلاحات السلطان التي حاول بها أن يساوي المسلمين بالمسيحيين فنقم المسلمون على تدابير أفقدتهم الكثير من امتيازاتهم ، وتوتر الجو حين تدخـل القناصل طالبين للمسيحيين المزيد من الامتيازات وبات الجميع في جو مشحون بالاحقاد والضغائن ، حتى وصلت أنباء المجازر في لبنان ، وبينما انهمك القناصل في المناقشة والتداول لايجاد

الحل الذي يجنب البلاد الكوارث التي قد تؤدي الى أزمة دولية أو حرب ضروس ، راح والي دمشق أحمد باشا يبث اشاعات تستفز شعور المسلمين وتثير منهم الخواطر ، أشاع مثلا أن النصارى ينوون الهجوم ليلا على الاحياء الاسلامية لذبح سكانها ، ثم أصبح يحيط نفسه بثلة كثيفة من الجند كلما قدم الى الجامع الاموي للصلاة (خوفا من مهاجمة النصارى له) ونقل أسرته الى القلعة ، وكان بعض لاجئي حاصبيا قد وصلوا يقصون على الناس روايات أحدثت مشاعر مختلفة في نفوس المسلمين ، وزادت في غم النصارى وخوفهم الى أقصى الحدود .

ثم كان اليوم المشؤوم ، حين عمد بعض صبيان المسلمين الى رسم الصليب على الأرض ، ومر بعض الشمامسة فزجروهم وحاولوا اجبارهم ، في ذلك الجو المحموم ، على ازالـة ما رسمت أيديهم ، فطارت الشائعات في أنحاء المدينة ، وشحنت خطبة الجمعة في ذلك اليوم بالتحريض والتهويل ، وخرج المسلمون منها الى الحي المسيحي ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور ، ثم انقضوا على مواطنيهم الذين عاشوا معهم منذ الفتح الاسلامي بصفاء ووفاء ، يفتكون برجالهم ، ويسلبونهم أموالهم ومتاعهم .

وتراكض سكان الحي هاربين ، هرب بعضهم الى منزل الامير عبد القادر الجزائري — وكان قد لجأ الى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠ — ففتح لهم الامير أبواب بيته ، وقدم لهم الغذاء والكساء ، ثم الطعام والشراب ، فتكاثر المسيحيون عليه وجد هو في طلبهم من أحيائهم ومنازل قناصل الدول ، حتى غصت داره بهم ، واجتمع لديه حوالي اثني عشر الف نفس ، فرجا الوالي أن يجير الفائض منهم في القلعة ، فلبى الوالي رجاءه ، وقبل اللاجئين الجدد ، بل لقد حشد الامير الجزائري رجاله المغاربة حول

الدار ، وهـدد الجماهير الثائرة بالموت الزؤام اذا حاولت اجتياح المنزل والاساءة الى لاجئيه .

هذه خلاصة حوادث سنة (١٨٦٠) التي وقعت أكثرها في شهر حزيران — يونيو وقدر عدد ضحاياها في بلاد الشام بـ (١٢٠٠٠) قتيل ، وتشرد مايزيد على (١٥٠,٠٠٠) شخص ، وزاد أراملها وأيتامها على عشرين الف نسمة وأحرق فيها أكثر من سبعة آلاف بيت (١) .

. . .

ماذا كان موقف الدول من هذه الاحداث ، وخصوصا الدولة العثمانية ؟

لقد شعر الباب العالي ان الامر قد خرج عن الحدود الموضوعة له ، وان الدول لن تسكت على تصرف ولاته وجنوده ، فبادر الى ارسال برقية لنابليون الثالث يعده فيها باتخاذ كل ما يلزم لمعاقبة المذنبين وايصال كل ذي حق الى حقه (٢) ، كما كتب الى الملكة فكتوريا رسالة بهذا المعنى ، ثم أوفد فؤاد باشا للتحقيق في الحوادث واتخاذ مايراه من التدابير ، بعد اعطائه صلاحيات مطلقة في التصرف كنائب عن السلطان ومبعوث فوق العادة له (٣) ، فكان أول تدبير اتخذه سجن خورشيد باشا وكاتم سره وبعض مؤيديه ، ثم قصد دمشق فوصلها في (٢٩ تموز — يوليو ١٨٦٠) ، وبدأ هناك باعدام واليها أحمد باشا ، ثم أتبعه بمائة وسبعة وستين من المسلمين بما فيهم قائد حامية حاصبيا وقائد حامية راشيا أيام الحوادث ، وحكم على (١٤٥) بالنفي وعلى (١٨٦) بالاشغال الشاقة ، ثم أمر باخـلاء بعض المناطق لايواء النصارى

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام . ص (٢٣٥) .
(٢) انظر ملحق الوثيقة رقم (٢٧) .
(٣) انظر الوثيقة رقم (٢٧) .

المشردين ، وعاد الى بيروت في (١٢ ايلول ـ سبتمبر ١٨٦٠) حيث حكم على سبعة من مشايخ الدروز بالاعـدام ، وعلى خورشيد وبعض أعـوانه بالسجن المؤبد .

وكانت الاخبارتتوارد عن نقمة الرأي العام الاوربي علىالدروز والاتراك على السواء ، فعمد فؤاد باشا الى انتخاب ممثلين عن المسيحيين طلب اليهم قائمة بأسماء المسؤولين من الدروز عن الحوادث واعدا اياهم بايصالهم الى حقوقهم كاملة ، فوضع المسيحيون تقريرهم الذي احتوى على أسماء اربعة آلاف وستمائة درزي عدا المتاولة طالبين معاقبتهم ، فأخذ فؤاد هذا التقرير السري ، ونشر فحواه مدعيا بأن المسيحيين طلبوا منه اعدام هذا العدد من المسلمين ، فانقلب الرأي العام على الموارنة ، وعادت انكلترا تساند الدروز وتدعمهم . ولما تم لمندوب السلطان ذلك أنزل بعض العقوبات الصارمة بالدروز فحكم بالاعدام على بعضهم ونفى حوالي (٢٠٠) منهم الى طرابلس الغرب ، ثم استدار ليواجه مطاليب الفرنسيين والجيش الفرنسي الذي وصل الى بيروت منذ النصف الثاني من شهر آب .

وكانت أخبار المذابح قد وردت الى فرنسا عن طريق المهاجرين ، ومراسلي الصحف ، وقناصل الدول ، فهولت الصحافة الامر وقالت ان القوات العثمانية تشجع مثل هذه الاعمال ، وان فرنسا اذا لم تتدخل فستصبح بلاد الشام مسرحا للحرائق ولمجازر لانهاية لها ، وان حوادث سورية جزء من مؤامرة اسلامية كبرى على المسيحية ، ثم أهابت بالدول أن تولي الموضوع أكبر قسط من العناية ، وقد أجمعت الصحافة الفرنسية على ضرورة التدخل ، وعلى أن فرنسا قادرة وحدها على التدخل ، مستندة في ذلك الى تقاليدها في الشام .

أما الحكومة الفرنسية فقد ترددت بادىء ذي بدء ، حتى وصل المزيد من الاخبار المفجعة ، وازدادت حملة الصحافة ، فقرر نابليون الثالث التدخل لدعم نفوذ فرنسا السياسي في الشرق وحماية مصالحها التجارية فيه وخصوصا بعد البدء في حفر قناة السويس ، ولمصالحة حزب الكنيسة في فرنسا الذي كان ناقما على تصرفات الامبراطور في ايطاليا .

ولكن كيف يتم هذا التدخل ؟

لقد نصت المادة لتاسعة من معاهدة باريس المعقودة سنة (١٨٥٦) على عدم جواز تدخل أية دولة بين السلطان ورعاياه ، الامر الذي يوجب على الامبراطور قبل اتخاذ أية خطوة أخذ موافقة الدول أولا ، ورضاء الباب العالي ثانيا . الا ان تتابع الحوادث حمل الامبراطور على اتخاذ قرار بارسال حملة فرنسية الى سورية تجري أثناء اعدادها الاتصالات اللازمة مع الدول الاوربية والباب العالي . ولكن بريطانيا عارضت في ارسال الحملة الفرنسية فتوترت العلاقات بين الدولتين وشحنت الصحف الفرنسية بمقالات ضافية تتهم بريطانيا بأنها سبب هذه الحوادث لانها كانت العامل الاساسي في اخراج محمد علي من سورية سنة (١٨٤٠) ، واعادة الشام الى الاتراك ، وانها تحتكر التجارة مع الدولة العثمانية وتنعتها بالانانية والاثرة . وكانت النتيجة أن انعقد مؤتمر في باريس حضره ممثلون عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا ، اتخذ فيه قراران أولهما يقضي بارسال جيش الى سورية لاتخاذ مايلزم هناك ، والثاني يتضمن تعهد الدول بألا تعمل أية واحدة منها على نوال أي كسب سياسي أو اقتصادي من الدولة العثمانية أثناء هذا التدخل ؛ ثم فوضت الدول فرنسا بارسال قوة عنها الى سورية واتفق على أن يذهب لذلك جيش فرنسي صغير يتألف من (١٢٠٠٠) جندي يساعد

السلطان في نشر الاستقرار في سورية على ألا تطول اقامته هناك أكثر من ستة أشهر ، وأبحرت الحملة بالفعل ووصلت الى الساحل السوري في (١٦ آب ـ اغسطس ١٨٦٠) •

وأسرع فؤاد باشا الى لقاء الفرنسيين في بيروت ، وأقنع الجنرال (بوفور) قائدهم العام ، بألا ضرورة لزحفه الى دمشق لانه قام هناك بما يجب اتخاذه من التدابير ، ثم اتفق الاثنان على ان يسير الفرنسيون بحذاء الشاطيء ثم يتجهون الى الشرق ليلتقوا بالاتراك الذين يطوقون الجبل خلال ذلك من الشرق ، وبذلك ينحصر الدروز بين الجيشين • وقد نفذت الخطة بالفعل ، وسار الفرنسيون بين هتاف المسيحيين الذين أخذهم الحماس فجعلهم يعتدون على بعض الدروز نساء ورجالا وأطفالا (١) ، حتى التقى الجيشان في جب جنين في البقاع ، والتقى القائدان ، ولكن ليعلن مندوب السلطان لقائد جيش الامبراطور بأن المذنبين من الدروز قد استطاعوا الفرار الى حوران قبل ان يتمكن الجيش التركي من اللحاق بهم •

ولم يفد اعتراض الجنرال ، ولم ينفع الاحتجاج ، فقد أفلت العصفور من الفخ ، وانتشر الجنود الفرنسيون يخففون عن المسيحيين آلامهم ويساعدونهم في ترميم بيوتهم الخربة ، بينما راح الضباط يوجهون أقسى كلمات النقد الى قائدهم لانه لم يستطع أن يفرض شخصيته على فؤاد باشا ولم ينجح في زيادة النفوذ الفرنسي في سورية ، وقد اكتفى القائد الفرنسي بتوزيع فقرات من كتاب الامبراطور نابليون الثالث بأن الجيش الفرنسي قد

---

(١) الكتاب الازرق الانكليزي عن ١٨٦٠ ـ ١٨٦١ . عدد ٣٠٦ ملحق (٦) •

نجح في حماية شعب كبير من الاعتداء ، وانه مقدر اخلاص جنوده (١) .

والواقع .. ان موقف الجنرال بوفور كان في غاية الحرج ، فقد كان عليه ان يؤدي مهمته بشكل كامل دون ان يغضب انكلترا ويسيء الى مبعوث السلطان ، بل لقد صدرت اليه الاوامر بأن يستمع لنصح هذا المبعوث اذا التبس عليه أمر ما ، بينما كان فؤاد باشا يحاول الاستغناء عن الفرنسيين في جميع تدابيره ليبرهن لاوربا أن السلطان قادر على اقرار الامن ، يسانده في ذلك مبعوث انكلترا اللورد دوفرين ، فكان ذلك سببا رئيسيا في فشل الحملة الفرنسية .

ووصلت هـذه الانباء الى فرنسا ، فعلقت عليـها الصحف بأن القوات الفرنسية قد ذهبت الى لبنان لاقرار الامن فيه ، فانسحب الدروز الى حوران والصحراء ، وبدأوا يستعدون ليعيدوا الكرة من جديد حالما تنسحب القوات الفرنسية ، بينما وقف الاتراك عاجزين عـن السيطرة على الموقف . وكل الملابسات تهيب بالفرنسيين أن يمددوا اقامتهم في لبنان ، فرسائل المارونيين تطلب اليهم ذلك بالحاح ، والاستقرار غير مضمون ، والمذنبون قد نجوا من العقاب ، كما ان النظام الجديد لجبل لبنان قيدالدرس ، ويجب ان يدعمه الاحتلال الفرنسي في بدئه . وراحت بعض الصحف تضع المشاريع لاقتسام الامبراطورية العثمانية ، فاقترح أحدالكتاب انشاءامبراطوريةعربية ، واقترح آخر تشكيل دولة يهودية لمنع اتساع الامبراطورية العربيـة أكثر مما يجب واشغال العرب بمقاومة الخطر اليهودي في بلادهم .

---

(١) الكتاب الاصفر الفرنسي عن حوادث ١٨٦٠ – ١٨٦١ . مـن منشور الجنرال دوبوفور الى جيشه في ١٨٦١/١/٨ .

وقد أثرت الحملات الصحفية في موقف الحكومة الفرنسية ، فطلبت رسميا تمديد مدة الاحتلال لتبرهن للعالم الكاثوليكي انها لن تترك قضية الموارنة في لبنان ، ولن تتخلى عن نفوذها وتقاليدها (التاريخية) في الشام ، ونجحت فعلا في تمديد أجل الاحتلال حتى (٥ حزيران ـ يونية ١٨٦١) ، وتشكلت لجنة في باريس للاشراف على التدابير المتخذة بشأن سورية طالبت في أول اجتماع لها بتمديد أجل الاحتلال أيضا لان يوم الخامس من حزيران ـ يونية المحدد للجلاء سيصادف عيد الاضحى عند المسلمين ، فعارضت الحكومة في ذلك وأيدها مجلس الشيوخ .

أما انكلترا فقد كانت في نزاع مرير مع فرنسا في البحر الابيض المتوسط ، لذلك كانت معارضتها للمشاريع الفرنسية في مؤتمر باريس متوقعة ، خصوصا بعد قضيتي نيس وسافوا واستقرار الفرنسيين قرب الطريقين البرية والبحرية للشرق الاقصى ، الامر الذي مكن فرنسا من عرقلة التجارة البريطانية والاقلال من نفوذها في البحر المتوسط بشكل خاص ، واستمرت هذه المعارضة تزداد مع الايام ، حتى وصلت أنباء حوادث دمشق ، فقبلت بارسال الحملة الفرنسية وعقد مؤتمر للتداول في التدابير الواجب اتخاذها للحيلولة دون تكرر الكارثة مرة أخرى .

الا ان القوات الفرنسية ماكادت تصل الى لبنان حتى عاد القلق يساور ساسة الانكليز ، وابتدأوا يفاوضون الفرنسيين بالانسحاب تؤيدهم صحفهم التي حملت المقالات الضافية لتبرهن على أن وجود القوات الفرنسية في سورية لا معنى له لان السلطان أثبت أنه قادر على اقرار الامن والسلام في البلاد ، مسهبة في تعداد المساويء التي تنتج من بقاء الفرنسيين هناك ، وخصوصا اتخاذ وجود تلك القوات في سورية ذريعة لاحتلال بلغاريا

والبوسنة الخ ... ممايؤدي الى تقسيم الامبراطورية العثمانية (١) ، هذا بينما كان اللورد دوفرين مندوب الحكومة البريطانية يتعاون مع فؤاد باشا على عرقلة المشاريع الفرنسية والروسية في مؤتمر بيروت الذي عقد في (٥ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٨٦٠) خصوصا لحل ازمة النزاع الطائفي واقرار التعويضات ومعاقبة المذنبين واتخاذ مايلزم من التدابير لمنع تكراره واقرار نظام جديد للبنان ، ولما تعللت فرنسا بضرورة بقاء قواتها لحماية المسيحيين ، عارضتها انكلترا بقوة ، واقترحت لتأمين هذه الحماية ، وجود بوارج حربية فرنسية وانكليزية لحماية المسيحيين واعانتهم (٢) ، وانتهى الامر بانسحاب القوات الفرنسية بعد ايجاد التسوية التي اتفق عليها بنتيجة مؤتمر بيروت المذكور .

. . .

وقصة هذا المؤتمر طريفة ، ابرزت للملأ مطامع الدول الاوربية في هذه البقعة الهامة من الشرق ، واختلافها على الحل مهما كانت النتائج بصرف النظر عن المسيحيين ومصالح المسيحيين ، مما أفسح المجال أمام فؤاد باشا رئيسه ومثل السلطان فيه ، وكان على جانب عظيم من اللباقة والدهاء ، لعرقلة أعمال المؤتمر ، وربط تنفيذ المقررات بالسلطان ، فكان يتناقش مع الاعضاء بسماحة ، حتى اذا وصل الامر الى التنفيذ ، أعطى لنفسه ملء الحرية في ذلك باعتباره موفدا فوق العادة من قبل السلطان .

---

(1) De Testa : recueil des traités de la Porte Ottomane avec les puissances étrangères. T. 4. P. 292.

(٢) الكتاب الازرق الانكليزي : (عدد ٢٦٨ ـ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢) . من كتاب اللورد (رسل) الى اللورد (كولي) في (٣٠ كانون الثاني ـ يناير ١٨٦١) .

وقد ابتدأت الاجتماعات بالفعل في الخامس من تشرين الاول ـ اكتوبر ١٨٦٠ لمعالجة المشكلة على الاسس التالية :

١ — مناقشة أسباب الحوادث وتحديد المسؤولية فيها .

٢ — اقرار التعويضات الملائمة للمتضررين من الحوادث .

٣ — اعادة تنظيم لبنان من الناحية الادارية بشكل يكفل عدم تكرر المأساة في المستقبل (١) .

أما التحقيقات ، فقد حاول فؤاد باشا نزعها من جدول أعمال المؤتمر وربطها مباشرة بممثلي السلطان ، فلما عارضه مندوبو الدول ، اذعن ، الا انه صمم على عرقلة أعمال المؤتمرين ، وأنصت الى وكيل فرنسا وهو يطلب شنق وجهاء الدروز ومندوب انكلترا يعارضه ، والى ممثل النمسا يقترح استبعاد أحكام الاعدام ومندوب روسيا يرى غير ذلك ، ويستمهل الاعضاء الايام تلو الايام للسفر الى دمشق او لاستكمال التحقيق معرقلا بذلك أعمال اللجنة باعتباره رئيسا لها ، حتى اذا نقم عليه ممثلو الدول وحذروه من مغبة تصرفه هذا ، جمع مندوبين عن النصارى كما تقدم وطلب اليهم تنظيم لائحة بأسماء المذنبين الذين يستحقون الاعدام ، فانقلب الرأي العام على المسيحيين وانضمت بعض الدول الى الرأي القائل بكفاية التدابير التي اتخذها فؤاد من اعدام وعزل ونفي لئلا تزداد الاحقاد ويصبح من المستحيل ازالة أسباب العداوة من قلوب الجانبين .

---

(١) الكتاب الازرق الانكليزي : (عدد ١٦٣ ـ ملحق رقم ٢ ـ ص ١٧٢ ـ ١٧٥) . محاضر الجلستين الاولى والثانية التي عقدتها اللجنة الدولية ببيروت في ١٨٦٠/١٠/٥ .

وأما قضية التعويضات فقد اتفق الاعضاء على ضرورتها ، واختلفوا على كميتها ، ثم قرروا مبلغا معينا يجبى أكثره من الاهلين في لبنان ودمشق ، وتساهم فيه الدولة العثمانية ، ثم يوزع على المنكوبين والمصابين ، فجبيت الاموال ولكنها ذهبت الى (الخزينة العامرة) وأصبح المستحقون دائنين لها ينتظرون حلول الموعد الذي تعينه الدولة لاستلام حصصهم منها وأعطت هذه بعض الاساقفة والوجهاء كمية من هذه الاموال مقابل وصول تشعر بقبضهم اياها ، وأخذ الموظفون مال من لم يجسر على المطالبة بحقه ، بينما استطاع من طالب بالحاح ان يحصل على عشر ما يستحق أو أكثر من ذلك بقليل .

بقيت مسألة نظام لبنان الجديد ، وهي أهم ما بحثه المؤتمر ، وأكثر ما اختلف بصدده الاعضاء ، فقال الاتراك بضرورة اعتبار لبنان مقاطعة من مقاطعات الدولة العثمانية تدار من قبلها بشكل مباشر ، ونادى الفرنسيون بضرورة وحدة الجبل تحت رئاسة أحد أبناء البلاد ، واقترح الروس تقسيم لبنان الى قائمقاميات ثلاثة : مارونية ودرزية وارتذوكسية ، بينما رأى الانكليز ضرورة وضع نائب عن السلطان لادارة الجبل ، ورشحوا فؤاد باشا لذلك . وقد رفض المؤتمرون المشروع الروسي لانه يخلق مجالا للخلاف أوسع من الخلاف الذين يحاولون اجتنابه ، وردوا المشروع الفرنسي وخصوصا كون حاكم لبنان من أهل البلاد ، وعارض الاتراك المشروع الانكليزي ، كما رفض الممثلون بالاجماع المشروع التركي .

وطال الجدال ، حتى استبعدت أسباب الخلاف ، فانتقل المؤتمرون في العاشر من ايار — مايو ١٨٦١ الى الاستانة لكي يعرضوا نتائج مباحثاتهم على سفراء الدول وعلى الباب العالي ، وبعد اجتماعات لم تخل من جدل أقر نظام

لبنان الجديد في (٩ حزيران ـ يونية ١٨٦١) الذي يتلخص في هذه النقاط الاربعة :

١ ـ يعين السلطان لادارة جبل لبنان حاكما مسيحيا يتبع مباشرة لاستامبول ، يساعده موظفون محليون في الجبل ، ويعين القضاة ويتولى تنفيذ قراراتهم كما يترأس اجتماعات المجلس الكبير المؤلف من (١٢) عضوا يمثلون طوائف الجبل كله .

٢ ـ ينقسم الجبل الى سبعة أقضية وتقسم هذه الى نواح ، تشرف على القرى المحددة لها ، على ان يكون لكل قرية مختار ينتخبه سكانها ويوافق عليه حاكم الجبل ، وللمختار صلاحيات ادارية ، كما انه يبت في دعاوى الديون التي لا يتجاوز مقدارها المائتي قرش .

٣ ـ تلغى جميع امتيازات الاقطاعيين والحكام ، ويقر مبدأ المساواة بين الجميع وخضوعهم للقانون وقرارات المحاكم . وهذه المحاكم في الجبل على درجات ثلاث . ويعين مجلس قضاء أعلى في مركز ادارة الحكومة يتألف من ستة قضاة ينتخبهم المتصرف من الطوائف الستة ، على أن يكون القضاة بأجمعهم موظفين يعزلون عندما يثبت عليهم جرم الرشوة ، وان تكون المرافعات في المحاكم علنية ، وأن تقام الدعوى في منطقة وقوع الجرم .

٤ ـ يستعين الحاكم لتنفيذ أحكامه بفرقة من الاهلين يجمعون بنسبة سبعة عن كل الف ، ويخصص الاموال المجباة من الجبل لادارة شؤونه ويرسل مازاد الى الخزينة المركزية ، ويعمل على احصاء نفوس اهل الجبل ومسح اراضيه المزروعة وتنظيم مخطط مساحة لها . وقد منعت بشكل بات اجارة الاديرة وايواءها لمن تتعقبهم الحكومة لجرم أو تهمة تثبت عليه ، وحددت مدة

حاكم الجبل بثلاث سنوات ، وجعل مستقلا عن باشوات بيروت ودمشق يتخذ دير القمر مركزا لادارة مقاطعته .

وهكذا جردت الارستقراطيتان الدرزية والمارونية على السواء من امتيازاتهما وألغي النظام الاقطاعي ، وكان أول حاكم للبنان (داوود باشا) المدير العام للبريد في الامبراطورية ، الذي استطاع بمساعدة الامير ملحم رسلان ـ قائمقام الشوف ـ تحقيق مشروع شراء أراضي الدروز تباعا ، فرحل أكثرهم الى حوران ، ووزع داوود باشا الاراضي المشتراة منهم على المسيحيين تعويضا لهم عن نكباتهم السابقة ، واتخذ منذ ذلك الحين هذا الطابع المسيحي الذي أبعد أسباب العداوة بين الفريقين ، وبقي هذا النظام سائدا في الجبل بعد ذلك مدة (٥٣) سنة حتى سنة (١٩١٤) أي حتى قيام الحرب العالمية الاولى .

. . .

أسفر النزاع الطائفي وذيوله عن نتائج هامة أولها زوال الملكية الواسعة من الجبل وثانيها أن الدول الاوربية بدأت سلسلة من التدخلات الجدية في الامبراطورية العثمانية بحجة حماية المسيحيين ، فكانت فرنسا تدعي حماية الموارنة ، وروسيا حماية الارتذوكس ، وأصبحت قضية الاقليات مع الزمن صعبة زادتها الدول تعقيدا لتستثمرها في صيانة مصالحها السياسية والاقتصادية على أوسع نطاق .

واعتقد الساذجون من مسيحيي الشام باخلاص فرنسا لهم ، فتعلقوا بها ، تكلموا لغتها واتخذوا عاداتها ، ونتج عن ذلك بشكل طبيعي ازدياد سخط

الدولة العثمانية عليهم واعتبارهم واسطة للتدخل الاجنبي ، الذي دخل في طور فعلي خطر بوصول الحملة الفرنسية عقب المذابح ، وكانت آخر النتائج التي ترتبت على الحوادث توجه أنظار الاوربيين الى سورية ، وتوجه السوريين الى الغرب ، وفتح باب الاقتباس عنه على نطاق واسع ظهرت نتائجه في أوائل القرن العشرين .

• • •

أما مسؤولية هذه المذابح الرهيبة فتقع في قسم منها على كبار الملاكين في الجبل ، لان فلاحي الجبل من كلا الطرفين كانوا يحيون حياة قاسية ، ترهقهم الواجبات المفروضة عليهم تجاه سيدهم الاقطاعي كحراثة الارض ، وتأدية السخرات ، واعطائه الوجيبة السنوية ، فعمدوا الى الثورة وبدأت الفتن في المتن وكسروان حيث كانت الاقطاعية أقوى منها في الجنوب وشجع رجال الدين من الموارنة هذه الحركة في المنطقة الدرزية ، فشجعوا الفلاحين على المعارضة ، وأثاروا فيهم النعرة الدينية ضد رؤسائهم الدروز ، فاستعد هؤلاء منذ سنة (١٨٤٦) لاحباط هذه المساعي بينما استعمل الموارنة العامل الديني لاثارة تابعيهم طمعا في أن يصفو لهم حكم الجبل بكامله ، وهكذا تحولت الثورة من حركة اجتماعية الى نزاع ديني ، وانتقلت المسؤولية الى رجال الدين من الموارنة الذين هددوا بالاوربيين من جهة ، وحضوا مواطنيهم على القتال من جهة ثانية .

ولكن المسؤولية الاساسية في هذه الحوادث الدامية تقع على الدولة العثمانية ، اذ شعر السلطان برد الفعل السيء الذي أحدثه موقفه ازاء الدول الاوربية بعد حرب القرم ، فأراد تحويل الاهلين عنه الى المسيحيين الذين كانت

تبدر منهم تصرفات توغر صدور رجال الدولة عليهم ، فعزمت على تحطيمهم ، وأرسلت قبل المذابح بأشهر عددا من رجالها لتهيئة الجو ، ولعلها فكرت في انها اذ توقع بين الدروز والموارنة تأمن شر الطرفين معا ، وتعيد حكم الجبل اليها بعد أن يتبين للملأ نتيجة استقلاله وتجبر الدروز على الطاعة وتزيل أسباب تدخل الدول الاوربية وتتجنب حروبا صعبة كحرب القرم في المستقبل. وقد عثر على كتاب رسمي من نجيب باشا الى سليم باشا يقول فيه (لا تتعبوا سركم في القلاقل الحاصلة في بلاد الشام ، لانهـا انما تجري بأمر الباب العالي) (١) وأكثر مراسلات الاتراك وتصرفات ولاتهم قبل الحوادث وأثناءها ، بل وبعدها تدل بوضوح على أنهم كانوا سببا أساسيا في ايقاظ الفتنة .

والواقع .. ان فرنسا تحمل قسطا من المسؤولية لانها كانت توغر صدور الاتراك على المسيحيين بشكل غير مباشر ، بضغطها على ولاة الدولة ورجالها حفظا لمصالحها السياسية ، حتى أن القنصل الفرنسي في بيروت كان يجبر المسلمين على الوقوف احتراما له عندما يمر بعربته ، فاذا لم يفعلوا ترجل من عربته ، وألهب أجسادهم بسوطه (٢) ، وكان الموارنة أنفسهم يفخرون بتأييد فرنسا لهم ، ويملأون الجبل زينات وزغاريد عندما يزوره أحد قناصل هذه الدولة ، ويتقدمون اليه أثناء الزيارة بقضاياهم ليحلها بدلا من رجال الدولة وحكامها ، واستغل الفرنسيون ذلك دائما لاهـداف سياسية واقتصاديـة وعسكرية تحت ستار من الحماية الدينية .

أما الدول الاخرى فتحمل شيئا من المسؤوليـة ؛ كانت الروسيا تؤيد

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام . ص (٩٦) .

(٢) حسر اللثام عن نكبات الشام . ص (١٢٨) .

الارتذوكس كما تؤيد فرنسا الموارنة ، وانكلترا تساند الدروز ، وكل طائفة كانت تؤمن بقوة الدولة التي تحميها ، فلما استفحلت المنافسة الدولية ، انعكس أثرها في سورية ، وكانت سببا غير مباشر في تسطير هذه الصفحة المؤسفة من تاريخ الشام •

• • •

وهكذا تكون الحوادث نتيجة لتصرفات الاوربيين والاتراك والموارنة والدروز على السواء ، وليست جزءا من (مؤامرة الاسلام الكبرى على المسيحية) كما ادعت بعض الصحف الفرنسية • ورغم أن فرنسا كانت تؤكد في كل مناسبة ، في صحفها وعلى لسان مندوبها في مؤتمر بيروت بأن الدروز كانوا البادئين بالاعتداء ورغم تأييد المندوب الروسي لذلك (١) ، الا أن الوقائع تثبت ان كل ما فعله الدروز هو انهم تكتلوا للدفاع عن انفسهم بما عرف عنهم من التعاون والنظام ، ثم انتقلوا من الدفاع الى الهجوم ، فانتصروا لاسباب عديدة منها تفرق النصارى واختلافهم ، ومنها مفاجأة الدروز لهم في بعض الاحيان عندما انتقل زمام المبادهة الى أيديهم ، ومنها ان بعض النصارى الارتذوكس كانوا يناصرون الدروز • وكان هؤلاء يفوقون النصارى في شؤون الحرب ويخضعون لرئيس واحد يقودهم بنظام بينما كان النصارى أهل تجارة ورجال دين ، يكاد كل واحد منهم يطمع في رئاسة أو زعامة ، فخسروا المعركة ، ولو انتصروا لنكلوا بالدروز كما فعل هؤلاء بهم ، بل ربما

---

(١) الكتاب الازرق الانكليزي : (عدد ٣٧٥ – ملحق رقم ٢ – ص ٤٨٨ – ٥٠١) • محضر الجلسة الثانية والعشرين لمؤتمر بيروت في (٢٧ شباط – فبراير ١٨٦١) •

كانواتعدوهم في ذلك الى النساء اللواتي لم يتعرض لاعراضهن الدروز بسوء.

ان حوادث سنة ١٨٦٠ لتعلم كل عـربي أن الدول الكبرى انما تحاول ايقاع التفرقة دائما في صفوف المواطنين لتتدخل بعدذلك تحت ستار من حماية بعضهم ضد بعضهم الآخر ، ثم تستقر كما فعلت انكلترا في مصر ، أو تنسحب مكرهة كما فعلت فرنسا في سورية اثر حوادث تلك السنة السوداء .

فلتكن لنا من دروس التاريخ عبرة وعظة .

* * *

الفصل العاشر

عهد السلطان عبد الحميد واليقظة العربية

، وقع كل ذلك في عهد السلطان عبد المجيد ، ثم خلفه على أريكة الحكم السلطان عبد العزيز ، الذي حاول استجماع الاموال حسابا للايام ، وكأنه أحس أن الاقدار كانت تخبيء له أمرا خطيرا ، الا ان استعداداته له تحل دون تسلسل الحوادث ، فما كاد يتصل بقيصر روسيا طالبا منه الحماية ويطلع الوزراء على الامر ، حتى تدارسوا الموقف من جميع الوجوه بحضور مدحت باشا الذي دعي فيما بعد بأبي الدستور ، وقرروا خلعه على حين غرة ، دون ان يسمح له بالاستفادة من أمواله التي جمعها لمثل هذه الساعة الرهيبة ، وبذلك لم يجد السلطان لانقاذ كرامته المهدورة بدا من الانتحار والتخلص من متاعب هذه الدنيا وآلامها .

وهكذا خلع السلطان عبد العزيز في (٣٠ ايار ــ مايو ١٨٧٦) بفتوى من شيخ الاسلام وتشجيع من السفير البريطاني في القسطنطينية الذي أرهبته نتائج تقارب السلطان والقيصر الروسي ، فتولى بعده مراد الخامس ولي العهد الذي كان مثقلا بالديون ، مغرقا في تصرفات أدت به الى نوع من الجنون ، لم يسع المسؤولين حياله الا ان ينحوه عن منصة الحكم (١) ، ويضعوا مكانه

(١) انظر الوثيقة رقم (٣٤) في الباب الثاني من هذا الكتاب .

داهية الشرق في القرن التاسع عشر السلطان عبدالحميد الثاني في (٣١ آب — اغسطس ١٨٧٦) •

وكانت الدولة العثمانية قد ابتـدأت ، تحت مختلف أسباب الضغط ، بسلسلة من الاصلاحات ، صدرت أولاها سـنة ١٨٣٩ وعرفت (بمنشور كلخانة) — وذلك عدا التنظيمات العسكرية التي ابتدأت في عهـد مصطفى الثالث من ١٧٥٧ حتى ١٧٧٤ — أي في بداية عهد السلطان عبد المجيد وفي أعقاب معركة نصيبين الساحقة • أما المحاولة الثانية الهامة للاصلاح فقد كانت سنة (١٨٥٦) اثر حرب القرم ، في (منشور التنظيمات الخيرية) الذي أضاف الى سابقه مبدأ مساواة الرعايا العثمانيين أمام القانون ، وكان الناس يفرقون قبل ذلك بين (التبعة) أي المسلمين ، و (الرعايا) أي غير المسلمين الذين كان يفرض عليهم لباس خاص ولا تقبل شهادتهم ولا يسمح لهم ببناء منازل مرتفعة كمنازل المسلمين الخ ••• وهكذا أحدثت المحاكم المدنية الى جانب المحاكم الشرعية ؛ وصدرت مجلة الاحكام العدلية التي تتضمن أحكام الشريعة الاسلامية ، ووضعت النصوص اللازمـة لتنظيم الشؤون الماليـة والادارية والعدلية والثقافية ، بعد ان اقتنع رجـال الحكم العثمانيون بألا سبيل الى النهوض بدولتهم الا عن طريق الاصلاح الذي كان — بالاضافة الى ذلك — سبيلا لارضاء الدول الاوربيـة التي كانت تضغط عليهم باستمرار لتحسين أحوال المسيحيين اسميا ، ولتحاول كل دولة بعـد ذلك فعليا أن تمن عليهم وتتخذهم واسطة للتدخل في الشؤون العثمانية والشرقية •

الا ان (منشور التنظيمات الخيرية) لم يطبق بشكل كامل ، لان الجندية ظلت وقفا على المسلمين دون اخوانهم المسيحيين ، وكذلك الوظائف العامة ،

التي ادخل فيها بعض المسيحيين انقاذا للظواهر • كل ما أفادته الدولة من هذه التنظيمات ، انها كانت سابقة حسنة للتطور والاصلاح ، ومحاولة لايصال الدولة العثمانية الى مصاف الدول العظمى •

وقد طبقت النصوص الجديدة في الدرجة الاولى في ولايات دمشق وحلب وبيروت ، ثم في بغداد والبصرة في الدرجة الثانية ، ونتج عنها تطبيق المركزية الشديدة التي أضعفت الجهاز الحكومي في الولايات العربية وعرقلت أعمالها • ونتج عنها ثانيا ، ازدياد الروابط بين المسيحيين بعد وضع الانظمة الخاصة بالبطركيات والاسقفيات ، فشكلوا الجمعيات التي كان لها أكبر الاثر في اعتياد المسيحيين التعاون والتآزر ، وما تبعه من المشاريع الخيرية المفيدة •

أما في نطاق التعليم : فقد استفادت الدول الاوربية من التنظيمات آنفة الذكر ، لتتنافس في فتح المدارس الاجنبية في حلب والموصل وبيروت والقدس ، مما سهل تعلم لغاتها من جهة ، وشجع احياء اللغة العربية والادب العربي من جهة أخرى ، واذا بالمسيحيين أقوى حجة وأكثر بيانا في اللغة العربية من المسلمين آنئذ ، الذين اعتادوا ارسال أولادهم للتعلم في (المكاتب السلطانية) والمدارس الحكومية حيث كانت التركية لغة التعليم والمخاطبة •

هكذا كان واقع الدولة عندما تبوأ عبد الحميد الثاني أريكة الحكم فيها ، وفي عهده تفتحت فيما بعد ، براعم الوعي القومي ، واستفاقت الكرامة العربية على قبسات النهضة الادبية العربية الدافئة التي كانت تنبعث من مصر والشام وتضيء ظلام الاستبداد الرهيب •

• • •

كان السلطان الجديد من طراز خاص ، لم يسرف في اللهو بشكل سافر كبقية الامراء الفتيان ، ولم ينزلق به طيش الشباب ، بل فتح عينيه وأذنيه جيدا ، فسمع ورأى الحوادث التي أودت بسلفيه ، وعاصر المؤامرات السياسية وتفهمها ، فتكونت نفسيته الخاصة التي قادت الامبراطورية بعد ذلك أكثر من ثلاثين سنة من الزمان ، غرست التجارب في عبد الحميد الحسد والغيرة ، وعلمته الحيطة والحذر ، فاحتال لاحتجاز خصومه ، وبذر الشقاق بين أصدقائه ومقربيه ليكون بعضهم عيونا له على بعض ، وأحب التزلف والمراوغة فقرب اليه المداهنين والمتملقين ، الذين ساعدوه على اصطناع الجد والتظاهر بالنبل والشرف ، بينما كان في السر يتقلب في أحضان الحسان ، ويملأ خزانته الخاصة وجيوب من حوله بالاموال والجواهر .

واشرأبت الاعناق الى الخليفة الجديد متفائلة مستفسرة ، والتقت على ابوابه وفود الاحرار تشجعهم أفكاره الحرة أيام كان حدثا وأميرا من كبار الامراء ، فأخنى العاهل رأسه أمام هذه الارادة الملحة في الاصلاح ، وخفف من نفقات المطبخ السلطاني وجرد والدة السلطان من الامتيازات التي كانت تثقل كاهل الخزينة والقصر ، ثم تولى بنفسه تسيير الامور ، ودرس القانون الاساسي (الدستور) الذي قدمه اليه مدحت باشا للحد من السلطة التي كان يتمتع بها السلطان منذ عشرات السنين ، واقرار المساواة بين أفراد الرعية على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فعدله وأضاف اليه ثم أصدره ارادة سنية تشيد بالحرية الفردية وتسمح بتشكيل (مجلس المبعوثان) وتضع العراقيل أمام جموح السلطان وأهوائه على كل حال ، وهو ما سمي بالمشروطية الاولى .

ووقف عبد الحميد يرقب مفعول هذه الترضية الموقتة لتهدئة النفوس

الطامحة حتى تعلق به الشعب ، واقتنعت الدول بعزمه على الاصلاح ، ثم اغتنم فرصة حرب الامبراطورية مع روسيا سنة (١٨٧٧) لايقاف الدستور وراح يحكم البلاد حكما مطلقا بعد أن حل المجلس ونفى نوابه البارزين .

نظم السلطان شبكة محكمة من الجاسوسية سمى رجالها (بالخفيّة) الذين أحصوا على الناس أنفاسهم واندسوا بينهم على مختلف المستويات الاجتماعية ، ثم قبعوا يكتبون (جرنالاتهم) أي تقاريرهم ، واستعان بعدد من الاتباع استتروا بثياب الوعظ والارشاد لنشر الشقاق وتغذية الحسد والغيرة في نفوس سكان الامبراطورية ، وحاول حذف بعض الكلمات التي كان يخشى مفعولها حتى من النصوص الدينية نفسها ككلمة (ونخلع ونترك من يفجرك) كما حرم استخدام ألفاظ العدل والمساواة والجمهورية في الكتب والمراجع ومنع الصحف من ذكر كلمة (اغتيال) عندما اغتيل ملك الصرب في بلغراد ، حتى استتب له الامر ، وعمد أكثر عماله الى امداده بالاخبار التي تهمه ، وراحت الصحافة تطنب في مديحه والثناء عليه .

ثم لجأ الى العنف كلما فشلت اساليبه السياسية ، وتساهل في حوادث الاغتيال التي كانت توافق اهدافه ، واستدعى من يخشاه من العلماء والوجهاء الى الاستانة لمراقبتهم بدقة كما فعل بالحسين بن علي الذي بقي في العاصمة اكثر من خمسة عشر عاما ، وأصبحت الرتب تشترى بالاموال ، حتى ان لقب (باشا) كان يبتاعه بمبلغ زهيد بعض من لم يكن لهم من اسم اسرتهم فقط ما يعتزون به أمام الناس .

وعرف عن عبد الحميد تمسكه بالمال وحبه له بعد ان اغتصب ثروة أخيه مراد ووجه قسما كبيرا من أموال الدولة الى حسابه الخاص حتى

رواتب الموظفين الذين كانوا يأخذون في السنة شيئا محدودا ، ويستعيضون عما نقص من رواتبهم بالرشوة والاختلاس ، هـذا عدا عن نزوله فعليا الى السوق التجارية فأصبح له مكان في البورصة ولما اشتدت حاجته للمـال رهن بعض الموارد الهامة في الـدولة لقاء قروض حصل عليها من الدول الاجنبية لينفق على تقوية الجيش ودعم سياسته الاسلامية الجديدة .

وقد قاوم النهضة الادبية ، فراقب الصحف والنشرات مراقبة شديدة قبل الطبع وبعده ، واستدعى العلمـاء والادباء الى العاصمة للقضـاء على نشاطهم (رغم انه كان قد عين بعض كبـار العرب في مناصب كبيرة) كما لجأ الى الرشوة لشراء الضمائر ، وخصوصا السفراء الذين اغرتهم امـوال السلطان فيما عدا السفير البريطاني الذي كان يقابل هدايا السلطان بمثلها .

أما سياسة الامبراطورية فقـد اتجهت الى الاستفادة من الدين لدعم سلطته الزمنية ، بصفته خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين من جهة ، والتقرب الى العنصر العربي في الامبراطورية من جهة ثانية ، وقد استعان لتنفيذ سياسته الاسلامية بشريف مكة الذي كان ينشر الفكرة بين الحجاج ليعودوا الى بلادهم وقد حمل كل منهم في نفسه عاطفة خاصة للسلطان يعبر عنها ويدعو اليها ، كما أخذ يبدي اهتماما بالغا بالمدارس الدينية وبمساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ، فيرممها ويعتني بزخرفتها وتزيينها لتبدوا لائقة بمكانتها السامية . أما سياسته العربية فقد جند لتنفيذها عددا من العرب الذين استخدمهم في أمور القصر الملكي حتى أصبحوا قبلة الانظار ، كمـا استعان بعزت باشا العابد وهو من بلاد الشام خدم الخليفة حوالي (١٣) سنة حتى اصبح مستشار الشؤون العربية لديه ، وكانت له اليد الطولى

في مشروع الخط الحديدي بين دمشق والمدينة الذي قصد به ظاهريا تسهيل الحج بينما كان الهدف الاساسي منه سرعة نقل الجيوش الى شبه الجزيرة العربية وتوطيد نفوذ السلطان فيها .

وكان من الطبيعي وقد فسدت ادارة الحكم وخيم شبح الارهاب المخيف على كل شيء ان يظهر رد الفعل بسرعة ، فشكل مصطفى كمال في دمشق جمعية (وطن) ومنها انتشرت الحركة الى القدس ويافا ، وكان اعضاؤها ضباط الجيش الخامس الذي كان يشكل حامية المنطقة ، ثم وجد الاعضاء المؤسسون للجمعية من الضباط ان بلاد الشام ليست هي المكان الملائم لحركة من هذا النوع ، فانتقلوا الى سلانيك حيث قامت جمعية (وطن وحريت) (١) وكانت جمعية الحريةالعثمانية هيالجمعيةالسرية التي دعيت بعد ذلك (بجمعية الاتحاد والترقي) التي شكلها افراد من مختلف انحاء الامبراطورية مع عدد كبير من العسكريين لاقامة حكم صالح يقضي على الاستبداد وانصاره ، واضطر عبد الحميد في ٢٤ (تموز ــ يوليو) ١٩٠٨ الى اعادة دستور مدحت باشا نفسه الى شعبه بعد ان انفجرت الثورة العسكرية (وهو مادعي بالمشروطية الثانية) فاستقبله الناس بالافراح والتهاني حتى اذا ظن السلطان ان الموجة قد انقضت ، عمل من وراء ستار على تحريض الدراويش وحامية القسطنطينية ، فأعلنت في ١٣ (نيسان ــ ابريل) ١٩٠٩ الثورة على الوضع الدستوري ، مما جعل محمود شوكت باشا يزحف من سلانيك الى العاصمة ، وفي ٢٧ (نيسان ــ ابريل) ١٩٠٩ قرر

---

(١) ارنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ . ترجمة الدكتور صالح احمد العلي . بيروت ١٩٦٠ . ص (١٣) .

مجلس الاعيان والمبعوثين خلع عبد الحميد وتنصيب اخيه الامير رشاد الذي دعي باسم محمد الخامس ، والذي افسح المجال لتدخل جمعية الاتحاد والترقي في كل شيء ، حتى أصبحت صاحبة الكلمة العليا ، وابتدأ عهد من الحكم المطلق يشبه عهد السلطان عبد الحميد ، مع الفارق في الوسيلة والاهداف .

. . .

. ولم تخل سورية في خلال كل ذلك من الفتن والثورات وخاصة من قبل العصبيات المحلية أو العنصرية كرد فعل لمحاولات الدولة العثمانية تقوية قبضتها على هذه العصبيات تمهيدا لاذابتها في جسم الدولة ، فقد التأم شمل الدروز في حوران تحت قيادة آل الاطرش بعد مغادرة أكثرهم لبنان ، وحاولوا السيطرة هناك ، فتألب الحورانيون عليهم ، واضطرت الحكومة الى ارسال جيش لتهدئة الحال . الا ان سوء ادارتها دفعهم الى الهجوم على قريتي الكرك وأم ولد ، فأرسلت اليهم الدولة جيشا آخر بقيادة المشير حسين فوزي باشا أجبرهم على دفع الدية ، وقبول التدابير الادارية التي قضت بجعل جبل الدروز قائمقامية ذات نواح ثمانية على ان يعين منهم مديرو النواحي والقائمقامون ، الا انهم لم يرضخوا لاحكام الدولة وتوالت حوادثهم بعد ذلك ، فحاولوا الاستيلاء على قرى اللجاة وحاربوا جند الدولة في واقعة العيون ، وهاجموا بعض القرى الحورانية واغتنموا كل فرصة لطرح نير الاتراك عنهم والتمتع بنوع من الاستقلال في شؤونهم المحلية .

وظهرت بوادر الثورة في بلاد النصيرية والعلويين سنة (١٨٧٠) فأرسلت الدولة جيشا كبيرا ظفر بالثوار في الكلبية ، ونكل بزعمائهم الذين قتل منهم

من قتل وسجن من سجن عدا المشردين والمنفيين ، ثم رأى السلطان عبدالحميد أن يغير سياسة العنف معهم ، فأرسل ضيا باشا أحد دهاته واليا عليهم ، ودأب هذا على رفع الحيف عنهم والنهي عن احتقارهم ونشر العلم بينهم ووضع بعض مشايخهم في مراكز حكومية هامة بمنطقتهم ، فخفف من غلوائهم وأشعرهم بشيء من الكرامة ، ولكن آثار هذه التدابير الحكيمة زالت بتنحية ضيا باشا عن الاضطلاع بمهام جبلهم الوعر ، وعاد الحقد يتكون في نفوسهم من جديد .

ثم حدث اصطدام ديني آخر ، بين المسلمين والارمن هذه المرة ، فقد ثار هؤلاء في جبل الزيتون (منطقة مرعش) ونكلوا بأسر الموظفين ، مما أثار حمية المسلمين الذين هبوا في مرعش وعنتاب والبيرة وأورفة وفتكوا بالارمن حتى تدخلت الدولة بايعاز من الدول ، فأوقفت الفتنة ، وعفت عن المشاغبين ، وعمد السلطان الى رشوة السفراء والصحف الاجنبية لتسكت عن المجازر التي بلغ عدد ضحاياها فى أورفة والبيرة فقط الالفين ، فلم يتعد الامر النطاق الدبلوماسي ، وانقضت الحوادث بسلام . على ان الحركة الدينية التي كان لها أكبر الاثر فيما بعد انما تجلت في المشكلة الفلسطينية ، فقد قامت الصهيونية تدعو الى استعادة فلسطين لليهود وتطلب الى السلطان عبد الحميد أن يوافق على ذلك ، وألفت لذلك الجمعيات كجمعية احياء فلسطين وجمعية معاونة فلاحي اليهود وجمعيات الاتحاد الاسرائيلي ، الخ ...

وعقد في آب سنة (١٨٩٧) مؤتمر يهودي في مدينة بال بسويسرا حضره (هرتسل) الذي قام على زعامة الحركة الصهيونية ، ومن ثم صمم المؤتمرون على جعل فلسطين ـ ارض الميعاد ـ وطنا قوميا لليهود بأي شكل ، والتوسل

الى ذلك بما ورد في التوراة ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض الاستجابة لمطاليبهم ، فاشتروا الاراضي والاطيان ، واستعانوا ببنك (انكلو ـ فلسطين) واحتالوا على الصعوبات التي وضعها السلطان في وجه مهاجريهم فسجلوا أنفسهم عثمانيين واحتفظوا بجوازات السفر التي كانت تضفي عليهم الحماية الاجنبية ، واتخذوا لهم راية خاصة زرقاء اللون ، في وسطها شارة خاتم سليمان كتب عليها كلمة (صهيون) وعلموا أبناءهم الرياضة وحمل السلاح بالاضافة الى المعلومات العلمية ومباديء القومية اليهودية ، حتى غدو على قدم الاستعداد عند اعلان الحرب العالمية الاولى .

ولعله من الواجب قبل اختتام هذه الفقرة الاشارة الى تلك الفترة من القرن التاسع عشر التي حكم فيها مدحت باشا بلاد الشام (١٨٧٩ ـ ١٨٨٠) فقدشجع أبوالدستور الصناعةوالزراعة وكافحالرشوة وفتح الطرق كما شجع العلم والعلماء ، وغرس في نفوس السكان مباديء الحرية والوطنية ، ولعله كان من دعائم نهضة العرب في سورية وتمردهم على جور الاتراك وتعسفهم . ورغم ان مدحت باشا يتنصل من فكرة الاستقلال ببلاد الشام ، ويقول انه قام بهذه الاصلاحات لان روح الاصلاح مغروسة في دمه(١) الا ان السلطان عبد الحميد شك في نوايا والي الشام المصلح وفي تقريبه أبناء الاسر تمهيدا لاعلان نفسه خديويا كخديو مصر ، بالاتفاق مع المشير احمد ايوب باشا ، فعزل الاثنين معا ، وأعاد سورية الى خط سيرها الاول .

. . .

وكان العرب قد أخذوا بأسباب نهضة عظيمة في القرن التاسع عشر

---

(١) مذكرات مدحت باشا . ترجمة يوسف كمال حتاته . ص (٣٦) .

وأوائل القرن العشرين ، تجلت في مظاهر جعلت السلطان عبد الحميد يضاعف عدد جواسيسه ومراقبيه .

والواقع .. ان نابليون هز بحملته على مصر وسورية العالمين الشرقي والغربي على السواء ، وأجبر العرب على فرك عيونهم المغمضة ، والنظر الى مظاهر المدنية الجديدة التي أحاطت بهم ، فاستهجنها البعض ، ورحب بها البعض الآخر ، حتى ظهر محمد علي على مسرح التاريخ ، فنهض بالتعليم وأرسل البعثات العلمية وأصلح الادارة ، ورغم ان معارضة بالمرستون من جهة وانعدام الشعور بضرورة التضامن القومي عند العرب من جهة أخرى أحبطا مساعيه ، الا ان الشعور العربي كان قد تنبه الى مساوىء الحكم التركي ، الامر الذي أدى فيما بعد الى اقتلاع الشجرة العثمانية من جذورها في بلاد العرب ، والقائها في آسيا الصغرى حيث عاشت التركية وتجمع الاتراك.

فتح ابراهيم باشا أمام البعثات الاجنبية مجالا واسعا عن اصلاحاته العديدة ، فافتتح الآباء العازاريون كلية (عين تورة) للذكور في سنة (١٨٣٤) ونقلت مطبعة البعثة الاميركية من مالطة الى بيروت ، كما افتتحت مدرسة للاناث ، بالاضافة الى تعميم المدارس الابتدائية في مختلف أنحاء البلاد ، وافتتاح المدارس الثانوية في المدن الرئيسية ، وأخذت المدارس تنتشر وعادت اللغة العربية تستعيد بلاغتها وقوتها بعد أن أدخل عليها الاهمال لهجات عامية خاصة وألفاظا أجنبية ركيكة ، واستمرت الحركة في ازدياد بعد انسحاب المصريين فأسست الكلية السورية البروتستانتية في بيروت عام (١٨٦٦) وتبنت البعثات الكاثوليكية أمر ايجاد مدارس خاصة في دمشق عام (١٨٧٢) وحلب عام (١٨٧٣) بالاضافة الى المدارس التي أسست في بيروت قبل ذلك ، فاذا

أضيفت الى هذه الحركة التعليمية المباركة ظواهر النهضة الاخرى التي صاحبتها كالصحافة والتأليف والجمعيات واستجلاب المطابع واحداث المكاتب وجهود المستشرقين ، وظهور التمثيل ، تجلى سر هذه اليقظة السريعة ، ونضوج الوعي العلمي في أرض خصبة كبلاد الشام ، ذلك النضوج الذي سرعان ما أنتج وعيا قوميا شرع في مقاومة الاستبداد .

ظهرت الصحافة في مصر الحديثة بعد نزول الفرنسيين هناك سنة (١٧٩٨) بالصحيفتين الفرنسيتين اللتين أصدروهما ، وقد وضعوا مشروعا لاصدار صحيفة باللغة العربية ثم صدرت فعلا جريدة (الوقائع المصرية) وكانت تحرر باللغة التركية أيضا ، أسست عام (١٨٢٨) واحتوت على قرارات الدولة ولوائحها كما نشرت بعض المقالات ، أما في الشام فقد ظهرت أول صحيفة سنة (١٨٥١) باسم (مجموع فوائد) وكانت ذات صبغة دينية ، شجعت الآباء اليسوعيين على اصدار صحيفة كاثوليكية تحت اسم (مجمع الفاتيكان) ثم (البشير) بعد ان انقطعت الاولى عن الظهور . وظهرت (حديقة الاخبار) سنة (١٨٥٨) وكان يديرها ويوجهها وجهة وطنية خليل الخوري اللبناني الذي بث فيها آراءه الخاصة عن ضرورة تخصص المواطنين وانشاء المدارس وتشجيع الزراعة ، حتى توفي ، وانقطعت جريدته بذلك عن الظهور . وبرزت جريدة بطرس البستاني سنة (١٨٦٠) المسماة (نفير سورية) التي نادت باتفاق الطوائف ونبذ الاحقاد ، ثم أنشأ مجلة سياسية أدبية في بيروت سنة (١٨٧٠) سماها (الجنان) وأعقبها بصحيفة (الجنة) سنة (١٨٧٠) أيضا . وكان رزق الله حسون الحلبي قد أصدر جريدة (مرآة الاحوال) سنة (١٨٥٥) لنفس الاهداف السابقة .

ورغم ما يشوب هذه الصحف من شوائب ، فقد كانت ذات فائدة في

الارتفاع بالمستوى الثقافي ووصل الناس بالحضارة الغربية وايقافهم على ما يجري في بلادهم وفي العالم الخارجي ، وكانت سورية مرتعا خصبا لمثل هذه النهضة الصحفية حتى اضطر عبد الحميد الثاني الى استعمال مختلف أساليب الضغط والارهاب للقضاء عليها واخماد أصواتها الخطرة ، فهاجر قسم كبير من المفكرين الى مصر وامريكا واوستراليا ، وتابعوا هناك جهودهم العلمية ، وظهر أثرهم واضحا في تأسيس الصحف الوطنية المصرية كالاهرام والمقطم وغيرها وساهموا في كثير من الصحف التي عارضت الاحتلال البريطاني وحملت على طرقه وأساليبه .

وصاحب هذه الحركة الصحفية صدور مؤلفات قيمة ، منها لغوية ومنها سياسية ساعدت على بعث اللغة العربية والنهوض بها من الدرك الذي وصلت اليه ، ولعل أول من يجب ذكره في هذا المضمار الشيخ ناصيف اليازجي المولود في كفر شيما (١٨٠٠ — ١٨٧١) الذي أصدر عدة مؤلفات تلقفها طلاب المدارس لمطالعتها بشغف كفصل الخطاب في الصرف والنحو وعقد الجمان في علم البيان وكتب أخرى عديدة غلب على أسلوبها الادب ودلت على سعة مداركه وبعد نظره . ومن مؤلفي التاريخ طنوس بن يوسف الشدياق صاحب (أخبار الاعيان في جبل لبنان) الذي كتب تاريخا للبيوتات والعصبيات في الجبل ، ونوفل نوفل الطرابلسي صاحب (زبدة الصحائف في أصول المعارف) و (كشف اللثام عن محيا الحكومة والاحكام في اقليمي مصر والشام) . وممن يذكر في هذا المضمار (نقولا الترك) الذي استطاع أن يعطي صورة مفيدة عن عصر الجزار وأحوال الشام في الفترة الواقعة بين سنتي (١٧٧١ — ١٨١٠) .

أما الدور الاساسي في نهضة سورية الفكرية فقد لعبته الجمعيات ،

وكانت أولاها (الجمعية السورية) التي أنشئت في بيروت سنة (١٨٤٧) وضمت مجموعة قوية من كتاب ذلك العصر أمثال اليازجي وبطرس البستاني والدكتور ميخائيل مشاقة ، وسنت لنفسها أنظمة مطبوعة أشرف على طباعتها بطرس البستاني سنة (١٨٥٢) ، وقد عقدت الجمعية اجتماعات كثيرة وألقى أعضاؤها عددا من المحاضرات القيمة مثل (تعليم النساء) و (علوم العرب) و (لذة العلم وفوائده) وغيرها . وما كادت هذه الجمعية تنحل ، حتى شكلت الجمعية العلمية السورية سنة (١٨٦٨) متبعة نفس الروح التي كانت تميز سابقتها ، وعضدها كبار أدباء بيروت ودمشق وحمص . وتبع كل ذلك أن استيقظت الروح العلمية في نفوس السوريين ، فتشكلت جمعية (زهرة الآداب) سنة (١٨٧٣) في بيروت وتأسست جمعية المقاصد الخيرية في بيروت سنة (١٨٨٠) وظهر المجمع العلمي الشرقي لشؤون العلم والصناعة سنة (١٨٨٢) فسارعت الحكومة العثمانية الى حلها جميعا بايعاز من السلطان عبد الحميد ، ووضع حاجز في طريق غيرها من المشاريع لئلا يتنبه الرأي العام الى مساويء الحكم التركي ، ويتحرر من ربقة التعصب الديني الذي يربطه به ، الا ان القافلة كانت قد بدأت بالمسير ، وكثر المتعلمون وتكاثرت معهم مشاريع الاصلاح بمختلف الاساليب ، فظهرت جمعيات طائفية وغير طائفية ، كجمعية (أسس البر لترقية الفتيات المسيحيات الارتذوكسيات) ، وجمعية (تهذيب الشبيبة السورية) ، بصرف النظر عن المذاهب والاديان ، وشكل طلاب الجامعة الاميركية (الجمعية العلمية) ، وسارت البلاد حثيثا في سبيل تقوية الرابطة العربية بين السكان والدعوة الى النظام النيابي وبث روح التعاون بين الافراد والجماعات ، عدا الجمعيات السرية والسياسية التي سيأتي ذكرها فيما بعد .

وقد ساعد على تشجيع الصحافة والتأليف والدراسة على السواء وجود الطباعة في الشرق ، التي وصلت اليه مع حملة نابليون العسكرية على مصر ، ثم امتدت الى سورية على يد الارساليات الدينية التي نقلت الى بيروت سنة (١٨٣٤) المطبعة الاميركية من مالطة ثم أنشأت سنة (١٨٤٤) المطبعة الكاثوليكية ، وتبع ذلك انشاء المطبعة الادبية سنة (١٨٦٨) والمطبعة الاهلية القبطية والمطبعة الوطنية السورية وغيرها من المطابع التي نشرت العلم والمعرفة وسهلت التأليف والصحافة وجعلت المعلومات العلميـــة في حرز حريز من الاخطار التي كانت سابقا تتهددهـــا بالاندثار ، كحريق المكاتب وضيـــاع المخطوطات أو التحريف الناتج عن نسخ المخطوطات واعادة كتابتها والدس على المؤلفين أو استبدال أسمائهم .

ومهد كل ذلك السبيل لايجاد مكاتب قيمة على نطاق واسع ، فأسست المكتبة الظاهرية بدمشق بتشجيع من مدحت باشا ، وأنشأ اليسوعيون المكتبة الشرقية سنة (١٨٨٠) وبرزت مكتبة الجامعة الاميركية بين المكاتب الكثيرة التي اتبعت الطريقة الاوربية في التنظيم وترتيب الفهارس ، وساهمت الجمعيات الوطنية والمستشرقون في اغنائها وتشجيعها .

ولعله يجمل التنويه بجهود المستشرقين في الكتابـــة عن الادب العربي وتاريخ العرب ، فقد اهتم هؤلاء الغربيون بالشرق ، فوقفوا على محفوظاته من المكاتب الخاصة ، ودرسوها ثم نشروها للملأ كتبا منظمة مذيلة بالفهارس والشروح ــ وان لم تخل أكثرها من تعصب أو خطأ ــ وترجموها الى لغاتهم ليعلم اخوانهم في الغرب مدى مدنية هذه البلاد وحضارتها ، عدا المؤلفات التي وضعوها عن الشرق وتاريخه وآدابه ، حتى غدا أبناؤه يؤمون الغرب لدراسة الادب العربي نفسه ؛ هذا مع الاشارة الى أن بعض المستشرقين كانوا

مغرضين متعصبين ، درسوا تاريخ العرب للاساءة اليه ، كما انهم لم يفهموا الاسلام على حقيقته .

أما التمثيل فقد كان له بعض الاثر في توجيه الرأي العام ، ولكن بأسلوب آخر عملي ساعد على النقد الاجتماعي والتوجيه الشعبي ، اقتبسه الشرقيون عن الغرب واستعانوا بلغاته ورواياته ، فمثل مارون النقاش رواية (البخيل) التي ألفها هو بنفسه سنة (١٨٤٨) وما عتم أن أنشأ مسرحا ببيروت انقلب بعده الى كنيسة ، وعرّب الشيخ نجيب الحداد كثيرا من الروايات الاوربية ووضع عددا من القصص مثلت جميعا ، الا ان هذا الفن لم يكتب له الازدهار في القرن التاسع عشر بالشام لضيق الافق وحرص الساسة وخوفهم ، فظل أثره محدودا .

. . .

هكذا نبتت البذور الاولى للوعي الفكري العربي وترعرعت ، ثم خرجت عن النطاق العلمي الى الافق السياسي لاول مرة بعد خروج المصريين في قصيدة نظمها ابراهيم بن ناصيف اليازجي ، ثم قرأها بحماس بالغ على أعضاء الجمعية العلمية السورية داعيا الى فكرة وطنية عميقة وخلع طاعة الاتراك ، فانتشرت انتشار النار في الهشيم ، وتناقلتها الافواه ، وأصغت الآذان المتعطشة الى مثل هذه الدعوة ، فبرهنت على اتقاد النار تحت الرماد ، خصوصا بعد أن أدرك الكثيرون من الناس ، على أثر مذابح (١٨٦٠) ان التعصب الديني هو منشأ هذه الصعوبات التي يعانون مرارتها ، وان الحكمة تقضي بتوحيد الجهود للنهوض ، وطرح التنابذ الديني والطائفي ، وهو عبء ثقيل اضطلع به تلاميذ البستاني واليازجي ، ووحدوا التيارات المتنازعة في حركة واسعة وطنية اتجهت ضد الاتراك والمستتركين .

وقد استطاع خمسة من الشبان الذين أتموا دراستهم في الكلية السورية الانجيلية في بيروت سنة (١٨٧٥) أن يشكلوا جمعية سرية لم تلبث أن ضمت حوالي (٢٢) عضوا من مختلف الطوائف ، وتفاهموا مع المحفل الماسوني الذي كان قد دخل البلاد منذ عهد قريب ، ثم أنشأت لها فروعا في دمشق وطرابلس الشام وصيدا ، ولكن أعمالها اقتصرت على الاجتماعات السرية ونشر الدعوة بشكل شفهي ، حتى اذا انقضت الاعوام ، وتمكنت مبادئها من النفوس ، عمد أعضاؤها الى الصاق المنشورات على الجدران ليقرأها كل عابر سبيل ، فتنبه لها الناس ، وكثر لغطهم ما بين مؤيد ومعارض ، وانزعج السلطان وأعوان السلطان ، وأرسلوا المحققين والعيون ، واعتقلوا وهددوا وتوعدوا ثم عزلوا مدحت باشا ولكن دون جدوى ، فقد تتابعت النشرات بصيغ مختلفة وأساليب تغيرت مع الايام ، وتدرجت من الدعوة العامة الى شبه البرامج المنظمة الواضحة .

احتوت النشرة الاولى على تأنيب لاذع لأهل الشام لخضوعهم وتفرقهم بعضهم ضد بعض ، وعلى توجيههم نحو الاتحاد لوضع حد للاطماع الاجنبية وايقاف استبداد الاتراك الذي استفحل ، وهاجمت النشرة الثانية الحكم التركي بشكل سافر ونعت عليه تهاونه في تنفيذ الاصلاحات التي طالما وعد بها السلطان وأيدتها حاشيته ثم طالبت بالحكم الذاتي للبلاد ، أما الثالثة فقد احتوت لاول مرة على الخطوط الرئيسية لمستقبل تصور كاتبوها أن سورية ستسعد في ظله ، وتتلخص في الاعتراف بسورية ولبنان معا كوحدة مستقلة تسود فيها اللغة العربية وازالة كل مايمنع حرية الرأي والاقتصار على استخدام المجندين من السوريين ضمن حدود بلادهم ، وكانت النشرات تنتهي عادة بأبيات حماسية من قصيدة ابراهيم ناصيف اليازجي .

ولعل في هذا البرنامج الذي تضمنته النشرة الثالثة ما يستوقف الباحث قليلا ، فقد هدف أولا الى وضع حد لانقسام سورية ولبنان ، وهدف البرنامج ثانيا الى تشجيع اللغة العربية وايقاظها بعد أن حاربها الاتراك الى حد جعلهم يدسون لغتهم حتى في الدوائر الرسمية باعتبار اللغة من العناصر الاساسية للقومية العربية التي كانت آنئذ في طريق اليقظة التامة ، أما الهدف الثالث فكان رد فعل للمراقبة الشديدة التي وضعها عبد الحميد على الرأي العام ، فكم الافواه ، وحارب الجمعيات ، وأغلق المكاتب ، وخنق التعليم ، وهو أمر مكمل لسابقه الذي نادى بايقاظ العربيـــة وجعلها لغة الدواوين والقضـــاء والتعليم • واذا كانت هذه النشرات لم تحدث رد فعل آني ، فقد وضعت بذور الثورة التي اتقدت فيما بعد على الاتراك ، كما اصبحت مبادئها برنامجا اتبعته العناصر الاساسية في النهضة العربية قبل الحرب العامة الاولى • ولم تلبث جمعية بيروت السرية أن انحلت من تلقاء نفسها بعد أن ذاعت مناهجها في البلاد العربية الاخرى فأذكت حركات الثورة فيـــها رغم تحفظ الافراد وحذرهم ، ورغم صعوبة الاتصال بين أجزاء هذه البلاد •

أما من الناحية الخارجية فان السلطان عبد الحميد عمد الى سياسة جديدة تدل على دهاء وبعد نظر ، سياســـة استنفار العالم الاسلامي ضد المطامع الاوربية المتزايدة كماسبق ، معتمدا على العنصر العربي ، وخصوصا السوريين منهم أمثال ابي الهدى الصيادي وعزت باشا العابد ، وانتقى من هؤلاء العرب حرسه الخاص وبدا بمظهر السلطان الذي يحاول اصلاح ما أفسده الدهر ، فسمح لكليات الاستانة بقبول الطلاب على اختلاف أجناسهم تحت الرابطة القوية التي تجمعهم ، رابطة الاسلام الذي تحميه الدولة العثمانية ، وأقبل على فكرة الخط الحديدي الحجازي بقوة وحماس لتسهيل الحج ، وسرعة نقل الجيوش عند الحاجة •

ورغم أنه استطاع بهذه السياسة اكتساب بعض قلوب العرب ، الا ان الحركة العربية القومية كانت قد بدأت تشق طريقها الى الخلاص ، مستعينة بمختلف الظروف الدولية آنئذ .

وهذه الظروف الدولية تعقدت أيام السلطان عبد الحميد الى درجة سهلت الى حد كبير عمل العرب الاحرار ، فاشتركوا في مؤتمر ڤيينا الذي عقده الارمن بتأييد من روسيا سنة (١٨٩٠) ضد الدولة العثمانية ، وتجهمت كل من فرنسا وانكلترا للصداقة العثمانية الالمانية ، فأخذتا تفسحان المجال لهؤلاء الاحرار بالعمل في اراضيهما ، وهكذا رأينا نجيب عازوري يصدر جريدة (الاستقلال العربي) وخليل غانم جريدة (البصير) وكلاهما في باريس ، ولويس صابونجي يؤسس مجلة (الاتحاد العربي) في لندن . ليس هذا فحسب ، بل لقد تعرض العرب لمبدأ الخلافة وحق العرب فيها دون العثمانيين ، وأنشأ لويس صابونجي المذكور جريدة (الخلافة) في لندن لدعم وجهة نظر العرب واثبات حقهم التاريخي في ذلك .

على أن الباحث يبالغ اذا استرسل في تعداد نتائج هذه الحركة الطيبة ، وخصوصا في الداخل ، فقد وقفت في طريقها أولا سياسة عبد الحميد الاستبدادية التي ظهرت في بلاد الشام أكثر من غيرها من بلاد العرب لانها كانت مصدر هذه الافكار النيرة ، ولانها كانت مفتاح الشرق والغرب وجارة تركيا التي كانت ترسف هي أيضا في أغلال الطغيان ، كما كانت المدارس الاجنبية عاملا من عوامل التفرقة في البلاد باشاعتها ألوانا من الثقافات الاجنبية المختلفة ، الا انها علمت السوريين اللغات الاجنبية بشكل سمح لهم أن يسمعوا الغرب أصواتهم وظلاماتهم ، حتى أصبحت فرنسا بالاضافة الى

مصر مركزا لحركات عربية ، ومقرا لمؤتمرات هامة بعيدة عن سلطة الاتراك ومنطقة نفوذهم .

ولا بد قبل الانتهاء من هذه المرحلة التي طواها التاريخ من ذكر عبد الرحمن الكواكبي بشكل خاص ، أحد رواد الفكر السياسي العربي الحديث الذي ولد في حلب سنة (١٨٤٩) وعمل في الصحافة والقضاء وبعض وظائف الدولة الاخرى ثم رحل الى مصر بعد خروجه من السجن لينشر آراءه ومناهجه الشيقة ، وألف كتابين هامين أولهما (أم القرى) وثانيهما (طبائع الاستبداد) أرسل بعض نسخهما الى الشام ، وكان لهما دوي في الاوساط السياسية .

نادى الكواكبي بضرورة وضع حد للتعصب الديني ، وأهاب بالعرب ان ينهضوا ليستعيدوا مركزهم التاريخي كقادة الاسلام ، ودعا الى نزع الخلافة عن آل عثمان وتقليدها لعربي يمت الى قريش بنسب وثيق ، ثم عبر عن رأيه في ضرورة المساواة بين الاديان ونبذ الاحقاد الطائفية وقد ضرب على وتر حساس مزدوج : القومية العربية والعقيدة الدينية التي كانت لها أهميتها في ذلك الحين .

. . .

تلك كانت حال الامبراطورية العثمانية والسوريين عند قيام ثورة الاتحاد والترقي سنة (١٩٠٨) التي وضعت حدا لحكم السلاطين الفعلي ، هذه الثورة التي ابتدأت العرب باظهار الود والصداقة ، وانتهت باراقة دمائهم والقسوة عليهم ، فكانت عاملا هاما من عوامل الهاب الشعور العربي ، وانتفاضة العرب التي أدت الى المراحل التالية من تاريخ الشام الحافل بضحايا الحرية ، وشهداء الاستقلال .

الباب الثاني

وثائق تاريخية

الوثيقة رقم ١

بين صلاح الدين الايوبي وريشار قلب الاسد (١١٩١)

من ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز ، الى صلاح الدين الايوبي ملك العرب •

أيها المولى : حامل خطابي هذا ، بطل باسل صنديد ، لاقى أبطالكم في ميادين الوغى ، وأبلى في القتال البلاء الحسن • وقد وقعت اخته أسيرة ، فساقها رجالكم الى قصركم وغيروا اسمها • فقد كانت تدعى ماري فأطلق عليها اسم ثريا •

وان لملك الانكليز رجاء يتقدم به الى ملك العرب ، وهو اما أن تعيدوا الى الاخ اخته ، واما أن تحتفظوا به أسيرا معها ، لا تفرقوا بينهما ، ولا تحكموا على عصفور بأن يعيش بعيدا عن أليفه •

وفيما أنا بانتظار قراركم بهذا الشأن ، أذكركم بقول الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد سمعته من صديقي الامير حارث اللبناني ، وهو « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » •

• • •

جواب صلاح الدين :

من ملك العرب صلاح الدين ، الى ريكاردوس ملك الانكليز •

أيها المولى : صافحت البطل الباسل الذي أوفدتموه رسولا الي ، فليحمل اليكم المصافحة ممن عرف قدركم في ميادين الكفاح .

واني لأحب أن تعلموا ، بأنني لن أحتفظ بالاخ أسيرا مع أخته ، لاننا لا نبقي في بيوتنا ، الا أسلاب المعارك . لقد أعدنا للاخ أخته . واذا ماعمل صلاح الدين بقول عمر بن الخطاب ، فلكي يعمل ريكاردوس بقول عيسى : « اعطوا مالقيصر لقيصر ، وما لله لله » . فرد أيها المولى الارض التي اغتصبتها الى أصحابها ، عملا بوصية السيد المسيح عليه السلام .

* * *

الوثيقة رقم ٢

فرمان ٢٦ شوال ١١٥٠ (١٧ كانون الثاني ١٧٣٨)
يتعلق بجباية الاموال المطلوبة للخزينة بمعرفة
المباشر المعين وطلب الاهتمام بذلك(١)

الخلاصة : طلب تحصيل الاموال وبدلات الجباية كما هو مبين بالنسبة المعينة والاهتمام بارسالها وتسليمها للخزينة بموجب جداول مختومة والتحصيل من أصحابها غير الموجودين وأخذها من الملتزمين بسرعة وبأي حال بسبب احتياج الدولة لها وخاصة لهذه السنة المباركة وتأمين العساكر الموفورة وتجهيزها للجهاد على أعداء الدين في موسكو وفي الممالك المحروسة .

. . .

في ١١ ذي الحجة ١١٥٠

دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصايب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى حلب واليسي وزيوم باشا أدام الله تعالى اجلاله وأقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين

---

(١) عن مديرية الوثائق التاريخية . الوحدة رقم (١) (القسم العثماني) الخزانة رقم (٣) المجموعة رقم (١) الصفحة (٣١٢) الوثيقة رقم (٤٧٨) .

معدن الفضل واليقين رافع اعلام الشريعة والدين وارث علوم الانبياءوالمرسلين
المختص بمزيد عناية الملك المعين المختص بمزيد عنـاية الملك مولانا حلب
قاضيسي زيدت فضايله ومفاخر القضاة والحكام معادن الفضايل والكلام
حلب ايالتنده واقـع اولان قضالرل قاضيلري زيد فضلهم وقدوة الاماجد
والاعيان حلب محصلي اولان ـ زيد مجده توقيـع رفيع همايون واصل
اوليجق معلوم اولاكه اشبو سنه مباركه ده‌مسقو وبجه‌طه قلرينه عساكر
موفوره ترتيب وتجهيز اولنمغلي مصارف عساكره اعانت لازمه حال مسلمين
وجمله نكرا وزرلرينه رتبه مفروضه ده اولديفنه بناء جها واعداي دينـه
ماموري كرفصرثفرين مصارفيجون ممالك محروسه وه‌مالكانه اولان مقاطعات
ومقطوعات وقراومزارعك هربوبيك غروش‌معجله لوندن اوجرنفروهرنفرندن
اللـي غروش حسابنجـه جبه‌لوبدلبه‌سي اولمق اوزره اقتصاايدث اقجه‌نك
تحصيلي مطلوب همايونجـه اولمغله شرقيافتـه صدور اولان خط همايون
شوكتموو نم وجبنجه تحصيل اولنوب أو اسنده مخالفت ايلتي نلرك مالكانه
لري رفع وطالب اخرينه فروضت اولنمق بابعامره فرمان عاليشاي صـادر
اولديغله بناء طلب يالتندن مالكانه‌مقاطعات ومقطوعات‌وقراومزارعدن‌اصحابي
بديله استقامه سعادنده طزينه عامره‌مه تسليم اولنان بعض مقاطعات‌ومقطوعات
وقرا ومزارعك‌جبه لوبدليه سندن ماعدا ارسال اولنان ممهور وممضي‌صورت
دفترده تحرير اولنان مقاطعات ومقطوعات وقرا ومزارعك معجلاتندن اول
حساب اوزن بكري ابكربيكرايكيوز اوتوز طقوز بجق غروش جبه لوبدلولبه
لربن لازم كلمكله مبلغ مزبورك تحصيلي ايجون درسعاتمدن زيد مجده
مباشر تعيين وارسال اولنمقين ان شاء الله تعالى واردقده ارسال اولنان ممهور
وممضي صورت دفتر موجبنجه او لمقدارجبه لوبدليه لري مباشر مومى اليه
معرفتيله اصحابي محلفده اولنلري اصحابندت اولمبانلري ملتزملرندن بـاي

حال سويكاوي اجلا تحصيل ومباشر مومى اليه ايله بركون اول ارسال وتسليم خزينة عامره وم ابتدر مكره بغايت تقيمد واهتمام اولنمق بابنده فرمان عاليشانم هالرر اولمشدر بيوزمكي حكم شريفم واروفده بوبابده وجه مشروح اوزره شرفيافته صدور اولان استيوامر شريف جليل الشاه واجب الاتباع ولازم الامتثال مضمون اطاعتمو ونيله عامل اولوب طلاميله وضع وركندن بغايت احتراز واجتناب ايليه شرشويله بيله شرعك مزشريص علماء سز تحريرا في اليوم السادس عشرين شوال سنة خمسين ومايه والف .

في ١١ ذي الحجة ١١٥٠

* * *

الوثيقة رقم ٣

رسالة البابا بولس الخامس الى فخر الدين(١)

الى فخر الدين أمير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفنيقية .

سلام أيها الرجل الشريف . وليحل عليك نور النعمة الالهية .

عرفنا الاخ المحترم سركيس ، رئيس أساقفة دمشق الماروني ، الذي أم رومية لزيارة ضريحي الرسولين القديسين ، عطفك العظيم على أولادنا المسيحيين ، وخاصة الموارنة ، فبتنا مدينين لك كثيرا ، لان ماتفعله نحو أولادنا تفعله نحونا . ولما كان رئيس الاساقفة المذكور عائدا الى اخوته ، رأينا أن نكتب اليك هذه الرسالة دليلا على محبتنا لك . وأوعزنا اليه أن يبلغك انتظارنا بكل الجوارح الفرصة التي تتيح لنا أن نثبت لك عظم هذه المحبة ، وشدة ارتياحنا الى حسناتك نحو اولادنا المسيحيين . وقد أمرنا رئيس الاساقفة المذكور أن يسلمك بعض التحف ، آملا في أن تحوز لديك قبولا ، وان كانت صغيرة ، لانها دليل على ميلنا الخاص اليك . ونحثك ثانيا وثالثا أن تواصل رعايتك لاولادنا ، خاصة الموارنة ، وأن تشمل بحمايتك حامل هذه الرسالة وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك على الاتراك

---

(١) عن الاب قرآلي . فخر الدين المعني الثاني . حريصا (لبنان) ص ١٧٤ . الجزء الثاني .

الظلمة ، أعداء الطرفين • حتى اذا توسعت في تخليص هذه الاماكن من نيرهم القاسي ، عاد سكانها الى الدين القويم ، مجدا لله وخلاصا للنفوس • ليضيء الاله قلبك برحمته ويسدد في طريق الحق خطواتك •

أعطي في رومية بقرب ماربطرس في (١٦ كانون الثـاني ١٦٠٩) وهي السنة الرابعة لحبريتنا •

* * *

الوثيقـة رقم ٤

وثيقة اقامة الامير فخر الدين في ايطاليا(١)

الامير المكرم فخر الدين اشتهى يقعد في بلدان الامير المعظم (الغراندوق) وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجواريها والذين صغار يخدموا الباب ستة أم سبعة من خدامـه . والحاج كيوان مع باقي ارفاقـه الاوخار (٢) الموجودين معه الآن يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله أنه جالس في بلاد النصارى ليسعى بواسطة (الغراندوق) الامير المعظم بعونه وقوة البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة قوية ، ولذلك طلب من حضرة الامير المعظم أن ينعم عليه بمهما يعتازه بذلك .

أما الامير المعظم (الغراندوق) اذ فهم خاطر الامير المكرم المذكور أراد أن يكمل طيبة خاطره معه انه بكل الاشياء الممكنة يقنعه . ورضي بذلك وسهل أحواله في كل بلدانه ويريد يعطيه مساكن لايقة في مدينة فلورنسا وعربة لخدمته وخيل من خيله ومونة وعلوفة من شانه وشان جماعته الفين

---

(١) قرر فخر الدين السفر ثم عدل عنه ، فنقله الغراندوق (قوزما الثاني) الى أحد قصوره في فلورنسا عاصمته ، وبعث اليه بوثيقة عربية طلب اليه أن يوقعها ، فوقعها فخر الدين وختمها بخاتمه .

(٢) أي الآخرين .

غرش فلورنسة كل عام ولايمان هذا العهد ثبت ذلك بخط يده وختمه بمهره وعلمه بخط ياحجيه (١) ٠

نهار ١٢ ايار سنة ١٦١٤ مسيحية في مدينة پيزا

الخاتم (بيضوي الشكل) الامير

مفخر آل معن فخر الدين فخر الدين بن معن

١٠١١

* * *

(١) كتابه أو كتبته ٠

الوثيقـــة رقم ٥

رسالة نصوح باشا الصدر الاعظم الى أمير توسكانا

جوابا لطلب الامير الايطالي العفو عن فخر الدين

افتخار أمراء الملة المسيحية • مختار طايفة الامة العيسوية • مصلح مصالح جماهير الفرقة النصرانية • ساحب أذيال المجد والوقار • صاحب دلايل العز والاقتدار ، قزما غراندوق توسكانا • ختمت عواقبه بالخير •

جواب صديق مخلص •

ان وزيركم لورنسو اوزمباردي كتب الى ندوة الاماجد والاكارم ، جامع المحامد والمكارم ، محمد أغا دام مجده ، كتخدا الباب العالي سابقا ، وميراخور صاحب الدولة والسعادة والشوكة العظيمة والسلطان حالا ، أعز الله نصره ، كتابا نقلناه الى التركية • ولما طالعناه عرفنا انكم ، كغيركم من الامراء والملوك والاباطرة ، ترغبون في المصالحة والمعاهدة والصداقة مع مولانا السلطان • وهكذا أيضا رئيس الدروز الامير ابن معن • وبما انـــه عصي على مولانا السلطان فقد استولينا على بلاده بالقوة الامبراطورية فهرب ولجأ اليكم ، فآويتموه مثل العصفور الذي يلجأ الى الاحراش • ثم حاولتم أن تنالوا له العفو والرجوع الى بلاده • وكل ما جاء في كتابكم المذكور أصبح معلوما لدينـــا •

والآن اعلموا يا ضابط توسكانا ان صاحب السعادة السلطان حارس الدين قد اصطلح مع ملل مختلفة ، لا عن حاجة أو ضعف ، ولكن كما كتب خالق السماء وجميع الموجودات ، تعالى شأنه وعظم برهانه ، الى محمد رسوله العظيم ، صلى الله عليه وسلم ، الذي نشر فرقانه الكريم عظم الله جلاله ، (يعطى الصلح لسائله) • فامتثالا لهذه الوصية انطرحت على قدمي صاحب السعادة السلطان ، فرضي بهذا الصلح ، ورخص به ، شرط أن ترفعوا عن البحار الغلايين والمراكب والاغربة كلها فيستريح تجارنا وتجاركم ، وينصرفوا الى أعمالهم آمنين على اشخاصهم واموالهم • وبخصوص تجارتكم سنتفق على عدد المراكب التي يمكنكم ارسالها سنويا الى الاستانة والى الاسكندرية والى الاسكندرونة ، على ألا تدخل ثغرا او ترسو في جزيرة غير هذه الثغور الثلاثة • وأن تعيدوا الينا الاسرى ، لان وزيركم لورنسو اوزمباردي كتب لنا انه متى تم الصلح يصير الاتفاق على قضية الاسرى •

أما من جهة ابن معن ، فاعلموا انه اذا عاد الى بلاده لاتعود الينا الراحة ، نظرا لجماعته العصاة • ومولانا السلطان يأبى ارجاعه الى بلاده ، بل يأمر أن يأتي الى الاستانة ليقدم حسابا عن أموال البلاد التي ضمنها ويصلح حاله• وبما انكم قد تشفعتم به سنعفو عنه ونخوله الحكم على سنجقية كبيرة في بلاد اليونان فنكون قدمنا لكم الترضية وحافظنا على شرف كلمتكم له •

ولهذا أعيد اليكم جسبار الكرواتي ، تاجر الاسرى ، مزودا بشروط الصلح لتوقعوها ، وتوافقوا على ما تقدم شرحه بدون تأخير • وستجدونه سفيرا هماما مخلصا فترجعوه الينا بأقرب وقت •

ولا نخفي عليكم أن كثيرين كانوا يعارضون أمر هذا الصلح ويعرقلونه •

لكني بذلت الجهود والمساعي حتى فزت بما كتبته اليكم • فان شئتم أسرعوا الى انجازه لان (الخير لا يؤجل) بل يصار اليه حالا وينجز • ولم يعد لدي شيء آخر أقوله لا تعرفونه •

عن مدينة الاستانة المحروسة في (٢٧ ربيع الثاني ١٠٢٣)

أي (٦ حزيران ١٦١٤)

التوقيع

الخاتم نصوح باشا الوزير الاعظم

راجي لطف الهي نصوح

وعلى دائر الختم : أي باراخدا بحق هستي (الهي انت موجود حقا) شش جيز مرامدفرستي (لقد أوليتني ست نعم) علم وعمل وفراخ دستي ايمان وامان وتندرستي (العلم والعمل والكرم والايمان والامان والصحة)•

* * *

الوثيقة رقم ٦

الفرمان السلطاني بالعفو عن الشيخ ظاهر العمر وتوجيه ايالة صيدا اليه (١)

قدوة الاماجد والاعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره

نعرفك أنه بعد وصول امرنا هذا اليك فليكن معلوما أنك من قديم الزمان من المتنعمين بنعم الدولة العلية • وقد حقق صدق عبوديتك برهان الخدمات الصادقة • وكنت صاحب الشهرة والشأن • وبصدق النية واخلاص الطوية يشار اليك بالبنان • وكنت تؤدي الاموال السلطانية قبل كل انسان وما عرجت قط عن صدق الخدامة وطرق الاستقامة الا منذ أزمنة قريبة لحدوث بعض أسباب نفسانية أظهرت التردد والوحشة خمس سنوات • ولكن في هذا الوقت وصل الى سدتنا الملكية عرض حال بواسطة الدستور المكرم والمشير المفخم الصدر الاعظم علي الهمم وزيرنا عثمان باشا أدام الله اجلاله وضاعف بالتأييد اقباله • وكان ما فهم من عرض حالك انك اذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات غير المستحسنة وصرت منظورا اليه بعين الرحمة تضع قلادة الطاعة في عنق العبودية • فبناء على ظهور طاعتك وثبات عبوديتك واتباعا لقوله تعالى من عفا وأصلح فأجره على الله • واقتداء بقول الحديث النبوي من أقال نادما أقاله الله يوم القيامة ، قد عفونا عنك عن كل

---

(١) عن نيقولا الصباغ العكاوي : الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وصفد (٦ ــ ٧) •

ما قد سلف منك وحبذا هذا لانه من الشمم السلطانية والسجايا الملكية بشرط أن تسلك بعد الآن سلوك الطاعة والعبودية • ولا تنحرف عن منهج الاستقامة المرضية • ولو بأقل الامور وأصغرها • ولا تصرف وجهك عن نظام حال الرعية وتحصيل الاموال السلطانية سابقا ولاحقا ومن كل الوجوه واصرف سعيك في تحصيل رضانا الكائن عنه النمو والسعادة • وعلى هذه الشروط المذكورة قد اجرينا قلم مضى ما مضى على صفائح ذنوبك الى يومنا هذا وصفحنا عن كل ما صدر من رفاقك وأصحابك وتابعيك ولاحقيك وعشائرك وصاروا جميعهم مشمولين بالعفو السلطاني • فاشكروا نعمة الله ان كنتم تعبدون • وعدوا هذه الرحمة السلطانية من النعم العظيمة وقدموا شكرا الى يوم القيامة • وان دمت على طاعة الاحكام الجليلة السلطانية ، قائما بالخدمة المرضية ، مظهرا حسن الصداقة وخلوص الطوية ، فلا تشاهد من طرفنا السلطاني غير اللطف والعناية وكن أمين البال مطمئن الخاطر وأمرنا هذا اربطه على عضدك الايمن ، ولاظهار انعطافنا اليك أرسلنا لك هذا الخط الهمايوني صحبة افتخار الاماجد الكرام قبجي باش احمد هاشم دام مجده • وليكن معلوما عند الجميع ان سلطنتنا المخلدة البنيان المشيدة الاركان قائمة على اساس الرحمة والرضوان • فاذا صدر بحسب الضعف ذنب من أهل البيوت القديمة وأتبعوه بالتوبة والانابة ، وتعلقوا بأذيال المغفرة ، فالعفو عنهم من خصائص أجدادنا الكرام ، ونحن اقتداء بهم قد عفونا عن ذنوبك لكبر سنك وشيخوختك • وشفقة منا على الرعايا والبرايا • فعليك رأي الله وأمانة الرسول ورأينا السعيد • فاحفظ همايوننا هذا عقد جوهر في عنقك واعتمد عليه والحذر ثم الحذر من الخلاف •

حرر في شهر ذي القعدة سنة ١١٧٨هـ (١٧٧٤م)

* * *

الوثيقــة رقم ٧

رسالة عثمان باشا للامير يوسف بالعفو عن الشيخ ظاهر

افتخار الامراء الكرام • عين الاماجد ذوي الاحترام • جناب الاميريوسف الشهابي دام موفقا لما فيه السداد ورضى رب العباد •

غب اهداء ما يليق من التحية والتسليم بمزيدالاعزاز والتكريم ، والسؤال عن خاطركم السليم ، تنهي اليكم انه قد سبق في قضاء الله وقدره بهـذه السنين الماضية كثير من الخلل والتشويش في الاقطار العربية والبقاع الشامية بسبب الظلم الحادث من بعض ولاة الامور وظهور علي بك وفساده • فلما أراد الله رفع الفتن أمر به فكان • ولكن بقي آثار منه الى هذه المدة لان الحاجات مرهونة بالاوقات • فقلد جيدنا حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن حسم هذه الطائلة وحراسة الخاص والعام • فرأينا الشفقة على العباد من اسد السداد • واجتهدنا في حقن دماء المسلمين وصيانـة الاعراض • وأعرضنا عن تلفيق أصحاب الفتن والاغراض • وقـد انتهت الامور الى استكشاف مافي الصدور • وألهم الله كلا من ذوي العقول رشده وطلب نجاحه وسعده • فمن أجل من طلب النجاح ، وغرد طائر سـعده يحيى على الفلاح قدوة المشايخ الكرام وعين أعيان العقلاء الفخام صاحب المقام المعتبر أخونا الشيخ ظاهر العمر • وقد حرر الى نادينا الدستوري وسأل الدعـاء وتمسك بحبل العهود والوفاء وأعلن الطاعة لحضرة مولانا السلطان ظل الله

في ارضه نصره العزيز الرحمن على شروط وعهود معلومة واستعطف ان ينعم عليه بايالة صيداء على وجه الملكية • ويرسل البقايا الباقية عليه في ايالة صيدا خمسمائة الف غرش عاجلا • ويرسل كل سنة مائتين وخمسة وعشرين الف غرش من المال للسلطان ويؤدي خدمة حراسة ولوازم المحمل الشريف كجاري المعتاد • فلما رأينا رجوعه عن العناد واقباله على السداد أنعمنا له بذلك على ما عندنا من التحقيق بكوننا مرسلين لنظام الاقطار العربية ومدرجين في دفتر اعتماد الدولة العلية • واننا اذا أملنا من كرمها شيئا لايخيب الامل ولا يضيع العمل • لذلك قد أجبناه وأنعمنا عليه بما تمناه • وأشعنا في دمشق بنداء المنادي بين الخاص والعام • وعرضنا الامر الى الدولة العلية والاعتاب الملوكية بالتماس هذا الانعام • والآن وردت أوامر العفو والقبول واجابة المسؤول فحررنا من نادينا الدستوري مراسيم الى كل من بيـده مقاطعة من الايالة وابتدأنا بكم • لانكم ترغبون في هذه الحالة اذ أن جناب أخينا الشيخ ظاهر في مقام والدكم وعلى الخصوص انه من سبعين سنة موصوف بحماية البلاد وصيانة العباد • لانهم وديعة الله الملك الرحمن لحضرة مولانا السلطان • وهم من الظرف الخاقاني وديعة ولاة الاحكام فبوقوفكم على كتابنا هذا تتحققون نجاح القصد ونمو السعد • وتكونون على قدم الطاعة لولاة الامور عملا بقوله تعالى أطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم • واشتغلوا بمـداومة الدعاء لحضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن • واعلموا واعتقدوا بما حررناه والحذر من خلاف ما رسمناه والسلام •

حرر في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٧٨هـ — ١٧٧٤م

* * *

الوثيقة رقم ٨

تعليمات بونابرت الى (بوفوازين Beauvoisin)
حامل رسالته الى الجزار

المعسكر العام بالقاهرة في ٢٢ آب ـ اغسطس ١٧٩٨ (الموافق ١٠ ربيع اول سنة ١٢١٣) •

على المواطن الذهاب الى دمياط والابحار منها على سفينة تركية او يونانية الى يافا حاملا الكتاب المرفق طيه الى احمد باشا الجزار وليطلب مقابلته لافهامه بصراحة ان المسلمين ليس لهم أصدقاء اوفياء في اوربا مثلنا وانني قد علمت مع الاسف انهم يعتقدون في سورية انني اعتزم الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على الدين الاسلامي • فعليه ان يؤكد ان مثل هذا الظن بعيد عن رغباتنا ونوايانا • فليطمئن ولينعم بالا وقد سمعت عنه انه رجل كفء وذكي • وليؤكد له انه اذا أحسن التصرف معنا ولم يتعرض لنا بسوء فهو صديقنا • وان وجودنا في مصر لاينتقص من سطوته بل يزيدها قوة وتوطدا• وفي علمي ان المماليك الذين فرقت جموعهم كانوا أعداء له ويجب عليه ان يميزنا عن بقية الاوربيين لاننا لانسترق المسلمين بل على العكس من ذلك نفسح لهم طريق الحرية • والخلاصة ان على سفيرنا ان يشرح لأحمد باشا ما وقع في مصر ويستحسن ان يبعد عنه فكرة الاستعداد للحرب وان يقنعه بعدم التدخل في الحوادث المقبلة • واذا لم يكن احمد باشا في يافا فعلى المواطن (بوفوازين) التوجه الى عكا • ولكن يحسن به ان ينتهز فرصة وجوده في يافا لزيارة الاسر الاوربية وخصوصا وكيل القنصل الفرنسي ليقف على اخبار الاستانة ومجريات الامور في سورية •

(بونابرت)

* * *

الوثيقـــة رقم ٩

نص الخطاب الموجه الى احمد باشا الجزار (١)

الى احمد باشا حاكم صيدا وعكا

معسكر القاهرة في (٢٢ آب ١٧٩٧)

لم آت مصر محاربا المسلمين بل جئتها لمحاربة البكوات • وأعتقد اني بالقضاء عليهم قد قمت بعمل عادل يوافق مصالحك • لانهم كانوا أعداءك وانت تعلم حتما انني لما وضعت قدمي في مالطه كان اول عمل عملته أن أطلقت سراح الفين من اسرى الاتراك الذين قضوا عدة سنين في ذل الاسر والعبودية، وما وصلت الى مصر حتى طمأنت خواطر الاهالي وبالغت في احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين ولم يلق حجاج بيت الله مثل ما لاقوا من العناية والرعاية معي ولم يحتفل بمولد النبي بمثل ما احتفلت به من الابهة الكاملة والاحترام العظيم •

وقد بعثت بهذا الكتاب مع ضابط يستطيع ان يوقفك على ميولي ورغبتي في ان اكون معك على صفاء وسلام لتتعاون معنا على بحث المسائل التي تؤدي لنمو التجارة وخير البلدين وأؤكد انه لايوجد للمسلمين أصدقاء أخلص من الفرنسيين •••

(بونابرت)

* * *

(١) عن الوثائق الفرنسية : قسم مصر • رقم (٣٠٧٨) •

الوثيقة رقم ١٠

منشور الدولة العثمانية الى السوريين

لحثهم على الجهاد ضد نابليون

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين : أما بعد ان طايفة الفرانسة جعل الله ديارهم دارسة ، وأعلامهم ناكسة هم الكفرة الطغاة ، والفجرة البغاة لم يؤمنوا بوحدانية السموات والارض ولا برسالة الشفيع يوم العرض ، بل تركوا الاديان كلها ، وأنكروا الآخرة وشدتها وهولها ولم يعتقدون يوم الحشر والنشر ، ويقولون وما يهلكنا الا الدهر ؛ ما نحن الا ارحام تدفعنا ، وأرض تبلعنا ، فليس وراء ذلك بعث ولا حساب ولا عقاب ولا سؤال ولا جواب ، حتى أنهم نهبوا كنايسهم وتجملات صلبانهم ، وأغاروا على شمامستهم وقسسهم ورهبانهم وان الكتب التي جاء بها الانبياء كذب صحيح وافتراء وليس القرآن والتوراة والانجيل ، الا أقوال وأباطيل ، والذين يقولون نحن أنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس لهم مزية على احد ، وما جاء للدنيا نبي ولا رسول بل هم مفترون على الخلق جهول ، والناس كلهم متساوية في الانسانية مشاركون في البشرية مستقلون بأنفسهم ليس لأحد على أحد مزية وكل منهم في ذاته يدبر لنفسه أمر معاشه في حياته فعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأي الهازل بنوا قواعد جديدة ، وقوانين اكيدة وهدموا قواعد كل الاديان

وأحلوا ساير المحرمات ، وأباحوا ماتميل اليه النفوس الخبيثة ، من الشهوات ، وأضلوا أشقياءهم وفجراءهم من العوام ، الذين هم كالهوام ، ومن جملة قواعدهم الشيطانية جواز النفاق ، والقاء الفتن بين الملوك والدول وسائر الناس ، من أرباب الشقاوة والفساد ، وكل ذي حشم ، يقول بارسال الكتب المشحونة بالنزوات والاباطيل المزخرفات ، يخاطبون كل طايفة بأننا منكم وعلى دينكم وملتكم ، ويعدونهم بالمواعيد الباطلة ، ويحذرونهم بالتحذيرات الهابلة ، والحاصل انهم انهمكوا بالبغي والفجور ، مطية الغدر والغرور ، وخاضوا بحر الضلال والطغيان ، وتحشوا في رايات الشيطان ، تمكن البغي والفساد في أحشائهم ، وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ، لا حاكم يردعهم ولا دين ولا اعتقاد يجمعهم معدين النهب غنيمة والنميمة أكبر شيمة • فهجموا وقهروا ممن تبعهم في هذا الاعتقاد الباطل ، ومن الذاهب الدارية من طايفة الفرانسة ، فطفقت ساير طوايف الافرنج من شودرهم في هوج وموج وهرج ومرج ، وهؤلاء يهرون كالكلاب وينهشون نهش الذياب وحملوا على ذلك الطوايف والجماهير قاصدين تخريب بنيانهم وأديانهم وسبي نسايهم وصبيانهم ومن جملة خيانتهم وسوء قصدهم بالملة المحمدية والامة الاحمدية الكتاب الذي كتبه مدبر جمهورهم وهو رئيس عساكرهم المقهورين ، وقد وصلت صورة ذلك الكتاب الينا بواسطة بعض جواسيسنا وها هو منقول لكم بكلماته ، فاسمعوا لخرافاته المنهي اليكم ان أهل الاسلام قوي متين ذو صلابة في الدين• فاذا وصلتم الى ديارهم وظللتم في دارهم ينبغي لكم ان تعاملوهم بمقتضى صالحهم ، واستعدادهم وطرازهم ، فالضعيف تباشروه بالضرب والحرب والقتل والنهب والقوي تنصبوا له شرايك المكر والحيل لتغليطهم واغفالهم بعدم التعرض لدينهم وعرضهم واموالهم الى أن يقعوا في شرككم ثم كلهم لكم وينبغي أيضا بان تلقوا بين ساير الملل الاسلامية بمكايد خفية العداوة والشقاق

والفساد والنفاق بين خانات العجم وأهالي تلك الديار من الاشرار ، وبينهم وبين بني عثمان بأي وجه كان ، يقع النزاع والجدال والشرور والقتال ، يخرجون الناس من طاعة السلطان والرعايا من انقياد حكامهم ويفقدوا أبناءهم وأموالهم فتملك حينئذ على وجه رقابهم وديارهم وفي خلال اختلالهم وجلالهم ينبغي للفرانسة اعانة ضعفائهم على أقويائهم في خصومتهم ودعواهم لانه اذا اضمحل الاقوى باعانة الاضعاف فاضمحلال الضعفاء بعد ذلك أمر هين عليكم وأخف ولكن لما كان بين ملة الفرانسة والاسلام اختلاف تام لايمكنهم بمقتضى خلافهم في دينهم موافقتنا قطعا برفعة الاديان والشرائع جميعا فلا يجوز لنا الركون اليهم والاعتماد عليهم ، فبعد ظفرنا بهم بسبب الحيل التي تقدمت بهدم كعبتهم ومدينتهم وبيت مقدسهم وجميع جوامعهم ومساجدهم ومراقدهم ثم نقتلهم القتل العام سوى الصبيان والفتيان من النسوان ، ثم نقسم بيننا ديارهم وأملاكهم ونحول بقية الناس الى اصولنا وقواعدنا ولساننا فنمحي الاسلام وقواعده ويندرس رسومه وآثاره من وجه الارض قاطبة شرقها وغربها وجنوبها وشمالها ، ووعرها وعجمها . انتهت عباراتهم الخبيثة سطرا سطرا جعل الله دايرة السوء عليهم فلا يستطيعون ضربا ولا نصرا فهذه أحوال الفرانسة في الحادهم وكفرهم وحيلهم ومكرهم فكيف لايكون فرضا على كل أحد من مسلم وموحد في دفع هؤلاء الكفرة والملاحدة الفجرة ، فالآن يا حماة الاسلام ويا كماة المسلمين ويا عزة الموحدين ويا أبطال الحرب والضرب ويا رجال الغارة والنهب ويا اركان الشريعة المحمدية ويا ممهدي قواعد الملة الحنفية بل كلكم يا مسلمون يا مؤمنون يا مقرون بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله على زعمهم الباطل ان زمرة الموحدين كالكفرة التي جادلوهم وخادعوهم وحولوهم الى اعتقادهم الباطل وأطاعوهم ولم يعلموا لعنهم الله ان الاسلام مغروس في قلوبنا والاسلام والايمان ممزوج بلحومنا ودمنا ، أأكراه بعد ايمان ؟ أضلال

بعد هدى ؟ كلا ورب السماء والارض ، ربنا بعد اذ هديتنا ، وقال تعالى في كتابه المبين : لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فكونوا على حذر لا يخدعنكم كيدهم وتحذيراتهم ويخوفنكم سوادهم وتمويهاتهم لايبالي الاسد بجمع الثعالبة ، ولا البازي بهجوم الاغاربة وكونوا على قلب واحد بعضكم لبعض معاضد كما فعل نبيكم الصادق المصدق المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وادفعوا بينكم الشقاق وبدلوه بالحب في الله والرفاق ، وارفعوا من بينكم الاسرار والنميمة وأهل النفاق أينما كنتم وحيثما وجدتم قربا وبعدا ، ولايقولن أحد منكم اذا وقع فساد بغير بلدة من أشقيائها وأرذالها دفع هذا لايلزمنا لكونه في غير بلدنا وبعيد عنا ، بل كلكم سواء في الاسلام ، وأيضا دققوا وحققوا لعل طايفة الفرانسة خفيـة بقوة الدراهم وان يضلوا ويفسدوا بعض من هو دينه ضعيف وعقله خفيف وصيطه مجبولة على النفاق والشقاق فيعلمونهم أنواع الحيل والفساد ليلقوا بين العباد ، واللازم عليكم كلكم ان تباشروا من غير توان ولا تكاسل في دفعه ورفعه ... والحاصل فلتكن كلمتكم وحيدة متفقين في تقوية هذا الدين المبين وكونوا على حذر من حيل أولئك الكافرين لانه ظهر وتبين أن كل مفسدة وقعت في الاسلام في هذه الايام ، من أولئك الكفرة اللئام ، ولتكن سيوفكم بارقة وسهامكم راشقة وأسنتكم في الطعن متلاحقة ومدافعكم صاعقة ونبالكم الى افئدتهم مسابقة ودبابيسكم لقصم ظهورهم سابقة بفرسان يجولوا في حومة الميدان بكل حملة توصل الكافر الى درك النيران لان عون الله ان شاء الله داير معكم ، وعـين الله ناظرة اليكم مؤيدين بنصر الله محفوظين بروحانيـة رسول الله ، سيهزم الجمع ويولون الدابر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ، نحن في طرف السلطنة العلية ننشر الاوامر السنية بجمع العساكر والاجناد من أقطار البلاد وبحول الله وقدرته وباهر عظمته عما قليل يجتمع عساكر وفيرة ،

وجنود كثيرة مع سفاين كالجبال ، عسى بقدرة الله ذي الجلال والاكرام ومدافع كالرعد القاصف والبرق الخاطف وشجعان لايبالون بالموت لاعلاء كلمة الله وغزاة يقتحمون على النار محبة في دين الله ، فتتعقب أدبارهم ، لعله يرزقنا تدميرهم وادبارهم فنجعلهم ان شاء الله هباء منثورا كأن لم يكن شيئامذكورا ، شاهت الوجوه ، وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

* * *

الوثيقة رقم ١١

كتاب ابراهيم باشا الى الامير بشير في ١٧ صفر ١٢٤٨
الموافق ١٦ تموز ١٨٣٢

افتخار الامراء الكرام مراجع الكبرا الفخام حضرة اخينا الامير بشير الشهابي زيد مجد •

غب التحية والتسليم بمراسم الاعزاز والتكريم ، والسؤال عن خاطركم بكل خير • المنهي اليكم ان الباشوات الهاربة الذين كانوا بحمص في اثني تعبهم في الطريق صدر حضور حسين باشا السردار القادم من الاستانة لمعاونتهم بمن معه من العساكر وترافقوا بالرجوع سوية حتى أسرعوا بالدخول الى محروسة حلب وقصدوا يستنجدون بأهلها وطلبوا منهم بأن يعاونوهم على محاربتنا • فجاوبوهم بالواقع بأن مالهم اقتدار على مقابلة عسكرنا المنصور وهم رعية لمن غلب• وأما نحن بقينا لاحقينهم لكي نقطع دابرهم على الخصوص لما طرق مسامعنا قدوم السردار المذكور تزايد اشتداد عزمنا • ومن شدة خوفهم وجزعهم وأنواع المذلة التي استولت عليهم كانوا يسيرون الليل قبل النهار • ولذلك في مرورنا بالطريق كلما حل ركابنا في مرحلة نجد جانب من عسكرهم ويحضروا لدينا طالبين الامان ويحوزوا مرحمة بهم • ويوم

---

(١) عن تاريخ الامير حيدر الشهابي • ص (٣٩٣ ـ ٣٩٤) •

وصولنا الى مرحلة برقا وزيتا الذي هو يوم الاحد في ١٧ صفر كان بلغ الباشاوات المذكورين قدومنا فتزايد عليهم الوهم والخوف ولا امكنهم الثبات ولا ساعة واحـدة • وليلة اليوم المذكور تركوا جميع خيامهم وجبخاناتهم ومدافعهم وذخايرهم تحت جنح الظلام وولوا هاربين والى النجاة طالبين • وعنـدما طرق مسامعنا ذلك ركبنا بالعسكر الخيالة فقط وبحلول ركابنا بمحروسة حلب وجدنا من عسكرهم مقدار الف نفر ومسكناهم جميعا باليد• ثم علماء ووجوه الاعيان والاهالي حضروا لدينا مقدمين الاطاعة وبعد تأمينهم دخلت عساكرنا الظافرة واستولت على المدينـة وكافة موجودات الباشوات الهاربين • ونحن الآن أيضا لم نزل مصممي النيـة أن نقتفي أثرهم ونقطع دايرتهم عن آخرهم • وبحوله تعالى لابد من الحصول على ذلك لكي نجعلهم أحدوثة بين الامم • والآن لاجل تبشيركم بهذه الانتصارات اقتضى مرسومنا هذا ويلزم منكم اعلانه على كافة الرعايا ليكونوا مدمنين على التوسـلات الخيرية بدوام دولة سعادة والدنا دايم السعادة ولي مصر بالنصر المابد للابد •

تحريرا في ١٧ صفر سنة ١٢٤٨

ابراهيم والي جده وساري
عسكر عرب استان

* * *

الوثيقة رقم ١٢

نشرة ابراهيم باشا الى سكان لبنان في ٦ حزيران سنة ١٨٤٠
(٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥٦)

نصدر هذا المرسوم الى المسيحيين والدروز المتوطنين في جبل لبنان ليحيطوا به علما .

لقدتوالت علي منذ ايام واليوم عدةتقارير منبئة برفضكم تسليم أسلحتكم وقد كانت أبقيت معكم موقتا ، فدفعكم طلبها الى الخروج عن حد طاعة السلطة العليا ، فلم تخف كوامن ضمائركم واعلموا أجمعين بأني محيط علما بمقاصدكم وبالطريقة التي انتهجتموها في ثورتكم هذه الغير العادية ولها عندي سببان اثنان ليس لهما ثالث أو ان بعض ذوي الآراب المضلة أوهموكم بأنكم ستجندون وقد استندوا على سذاجتكم لخدع ابائكم وبسالتكم بهذا الايهام الكاذب أو انكم ركبتم ظهرالفتنة عفوا بدون سبب فاذا كان الاول أي اذا كانت أثيرت مخاوفكم من جراء الخدمة العسكرية في الجبل فلا تعيروا ذلك تصديق . فورأس أبي خديوي مصر ورأسي لقد كذب المبلغ وما كنا لنرمي قط الى اكراه الجبليين ولا غيرهم في سائر الاقطار السورية على التجند وأؤكد لكم اليوم عهدي هذا ولقدسبق لي أن نصحتكم بلزوم بيوتكم ناعمي البال لاتزعجكم هذه المخاوف فانزعوها من أفكاركم واحذروا خراب الجبل واراقة دمائكم . بيد أنه اذا ماكانت فتنتكم ناتجة عن خيانة اختيارية

وباطلة فلقد سقنا عليكم خمسة عشر لواء من المشاة ما عدا الفرسان والمدفعية لتبيدكم وتدمر بيوتكم فاذا ماوقفتم على مرسومنا ورجعتم الى الطاعة منقادين مقصين عنكم كل الغايات الملتوية فانكم تلجؤون الى حرز حريز من الطمأنينة وتغنموا النجاة والسرور بوقاية حياتكم ومقتنياتكم الا انه اذا ما أصررتم على عنادكم فان جيشنا المنصور الموجه بعناية الله اليكم يستأصلكم عقابا لكم فأطيلوا الفكرة واعملوا الرأي بما يوافق صالحكم وباختياركم الانقياد كونوا مطيعين أميركم ليتسنى له تنبيه قواد الجيش ألا يتوغلوا في البلاد وبهذا تأمنون نبال الخطر ونحن نرمي بهذه الاذاعة الى ايقافكم على الحقيقة ليتمهد لكم اختيار ما يؤاتيكم قطعا في الامر وحذار ان تعصوا فتندمون ولات ساعة مندم .

* * *

الوثيقـة رقم ١٣

عريضة أهالي لبنان وسورية الى السلطان عبد المجيد بتاريخ تموز سنة ١٨٤٠ (جمادى الاولى سنة ١٢٥٦)

نرفع بتمام الخضوع هذه العريضة الى أعتاب ديوان السلطان العظيم الرؤوف العادل ذى السلطة المحترمة والاسد الغضنفر صاحب السيف والقلم ظل الله على الارض سلطاننـا المعظم عبد المجيد خان أيـد الله أيام ملكه الزاهر آمين .

ان محمد علي الذي يدعي أنه أحد عبيد جلالتكم وقـد تجرأ على أن يسلك مع المرحوم والدكم المعظم الخالد الذكر مسلك الخيانة أنزل أنواع المظالم وضروب الاستبداد . وهذا ما ألجأنا الى أن نتطرح أمام عرشكم السلطاني المستنير بأشعة العدالة والرأفة باسطين أكف الضراعة الى حنـان جلالتكم الابوي لتتنازل الى رمقنا بنظرها السامي فتحمينا وتنقذنا لاتنانعرف عظم عدالة حكومة جلالتكم وبسطة رأفتها الغير محدودة . ان قلوبنا راغبة في الحصول على السعادة التي يتمتع بها جميع الذين يفاخرون بشرف انتمائهم الى رعيتكم . فماهو الذنب الذي اقترفناه فحول عنا أنظار جلالتكم واستهدفنا لنبال استبداد وجور لاتطاق آلامها في حين أن آباءنا وأجدادنا قد تمتعوا منذ اربعمائة سنة بالنعمة التي غنموها مدة قرون مما عاد بالفخر على سلالة آل عثمـان .

وعليه نلتمس ونسترحم من فيض حنانكم الابوي ورأفتكم الملوكية بألا تهملنا والا تسمح بأن يقال ان قد ضحى شعب كبير في سبيل تحقيق أطماع رجل واحد ظالم خال من كل عاطفة انسانية موصوف بالانانية والبخل فانه لم يكتف بجحد النعمة ونسيان مكارم جلالتكم نحوه بل تجرأ أيضا على شق عصا الطاعة وتسديد سلاحه بخيانة شخصكم المقدس • ولما رأينا ذواتنا في هذا الموقف السيىء المحزن المشرف بنا على هاوية الدمار والابادة قد نهضنا ونشرنا راية جلالتكم لحماية حقوق سيادتكم الشرعية التي سنحارب لاجلها متهالكين في سبيلها الى النفس الاخير واتكالا على العون الالهي ومساعدة جلالتكم نؤمل التغلب على عدو جلالتكم وهو عدونا وطرده من أراضي السلطنة •

ولهذا نكرر استرحامنا مستغيثين برأفة جلالتكم أن تلفت نظرها الشاهاني نحونا لمساعدتنا ومد يد العون الينا لا سيما وان العدو المذكور قد أحاط بنا من كل جانب ومنع وصول ذخائر الحرب الضرورية الينا • ولما كان ليس لنا اسطول لمقاومة اسطوله فنلتمس بلجاجة من جلالتكم ان تساعدنا على فتح طرق المواصلات وغيرها اذ بدونها نقع لاسمح الله في حالة حرجة منذرة بهلاكنا العاجل • ومعاذ الله ان يسمح حلم جلالتكم الابوي الشاهاني بوقوع هذا الشر •فنضرع الى الله القادر على كل شيء ان يحفظ شخصكم المقدس ويطيل أيام ملككم المجيد محفوفا بالسعد والنصر •

* * *

الوثيقـــة رقم ١٤

الفرمان السلطاني الى الامير بشير قاسم بتاريخ ٣ ايلول سنة ١٨٤٠

(٦ رجب سنة ١٢٥٦)

نوجه أمرنا هذا السلطاني الواجب القبول والاتباع في جميع البلدان البعيدة والقريبة الى نسيب الامير بشير الذي نعينه منـــذ الآن امير الجبل الدروزي اريد به الامير العظيم المكرم بشير قاسم زيد مجده والى مشايخ عشائر الدروز وعين اعيان الجبل زادهم الله طاعة •

لدى وصول أمرنا هذا ليكن معلوما • انه كان من المتوجب على الامير بشير أن يأتمر بالاوامر التي صدرت اليه ويظهر دائما بمظهر التابع المخلص خاضعا لجلالتنا الشاهانية المحسنة اليه ويطيع أوامرنا ويبذل جهده في عمل كل ما يطابق رغائبنا ويجتهد في حماية الاهالي والعشائر التي وكلنا اليه أمر رعايتها ويوجه كل عناية حكومته مستعملا كل الوسائل التي لديه لحمايتهم ووقايتهم من كل أذى ومظلمة وفقا لما توجبه عليه تابعيته • بيد أنه اتصل بنا ان الامير بشير لم يقم بهذه الشروط الاساسية وانه لايزال مصرا على اتباع مقاصد محمد علي باشا ومأموريه والجري وفقا لنصائحهم وتعليماتهم سالكا مسلكا مخالفا لما كنا ننتظره منه ، أما انت أيها الامير فباتتهاجك منهج الامانة وحسن الفطنة والدراية المفطور عليها قد برهنت على اخلاصك لذاتنا الشاهانية اخلاصا يستحق المكافأة وأثبت طاعتك وانت تعرف واجبات التابعية

ولذلك فان بابنا العالي على ثقة من انك اذا عينت اميرا للدروز فلا تحجم عن اتيان دلائل خضوع جديدة لاوامرنا وتزداد صفات الامانة والاخلاص والنشاط الغريزية فيك نماء ولهذا نعلمك خلعنا الامير بشيرا ونسميك مكانه اميرا لعشائر الدروز وعليه صدر امرنا السلطاني هذا من ديواننا الهمايوني فعليك فور وصول فرماننا العالي الشأن ان تتلوه على مستمع من يلزم ثم تقوم بواجبات منصبك هذا بامانيك المعتادة وتدير الشؤون التي من اختصاصك بحكمة وعدالة وفقا لرغائب جلالتنا السلطانية ومصالحها. وفي عداد الواجبات المفروضة عليك حماية الاهالي وعشائر الدروز الذين ما فتئنا نسهر عليهم بعين الرعاية ثم تحذيرهم من مقاومة تنفيذ حقوقنا على الامة والسلطنة ومن كل ما يناقض فروض الطاعة والاخلاص المتوجبة عليهم للباب العالي ومنعهم من ان يشايعوا محمد علي وأعوانه .

وقصارى القول يجب عليك ان تبذل كل ما في طاقتك وتسهر ليل نهار على اتمام ما ينتظره الباب العالي من فطنتك وامانتك بحيث تستحق مواصلة استمرار النعمة التي منحناك اياها . وانتم يا مشايخ الدروز متى علمتم اننا عينا الامير بشير قاسم اميرا للدروز يقتضي عليكم كما هو الواجب ان تتحدوا معه قلبا وروحا لاتمام ارادتنا وان تمتثلوا الى منطوق فرماننا هذا محافظين على حقوقنا الشرعية فاحترسوا من ان يشاهد منكم أدنى مخالفة لارادتنا السلطانية من شأنها الاجحاف بسلطتنا في ممالكنا الموروثة .

* * *

الوثيقـــة رقم ١٥

رسالة اللورد بالمرستون الى اللورد بونسونبي
بتاريخ ٢٧ تشرين الاول سنة ١٨٤٠

حضرة اللورد •

وصلني كتابك المؤرخ في (٧ تشرين الاول ١٨٤٠) وعرضته على جلالة الملكة ، فعليك اعلام الباب العالي ان الكونت واليفسكي ممثل فرنسا قد أراد بالكلمات التي جاءت في كتابك ، الارهاب واشاعة الذعر • وفي رأيي ان فرنسا لن تؤيد محمد علي بقوة السلاح لانها بذلك تتعرض لحرب ضروس مع الدول الاربعة مع ان قواتها البرية والبحرية لاتملك القوة على ذلك ، لان اسطولها بكامله لايضاهي قوة الاسطول الانكليزي وحده فما بالك اذا انضم اليه الاسطول الروسي ؟ أما القوات البرية ، فلا تملك منها الا جيشها الذي تحتفظ به عادة أيام السلم ، رغم الحشود التي تقوم بها في الآونة الاخيرة ، وعليها أن تحتفظ بستين الف مقاتل في الجزائر فوق ذلك • لذلك فليس لدى فرنسا ولن يكون لديها في وقت قريب القوة الكافية لمجابهة القوات الالمانية والروسية معا • هذا وقد ضمنت لاوربا استقالة المسيو تيير وزملائه الوزراء ان فرنسا لن تشعل الحرب لمؤازرة محمد علي •

* * *

الوثيقة رقم ١٦

كتاب المستر ريشار وود الى سليم باشا والي صيدا

بتاريخ ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٤١ و ١٣ رمضان سنة ١٢٥٧

يا حضرة صاحب الدولة

ان الثقة التي طالما برهنتم عليها في شؤون سورية تجرئني على توجيه هذا الكتاب اليكم ، المتعلق بالحرب الاهلية المستعرة بين الدروز والمسيحيين في جبل لبنان واعترف لك يا صاحب الدولة اني اعتبر هذه الحرب المشؤومة من أخطر أحداث الوقت الحاضر في سورية ، بل أهم من الحرب ضدالمصريين التي كانت غايتها اعادة هذه الولايات الى الباب العالي أما هذه فيخشى ان تجر الوبال على الدولة . ولما كان موقفي الحالي لايسمح لي بالقدوم اليكم لذلك أرجو السماح لي بان اعرض لدولتكم بايجاز بعض الملاحظات وانا على ثقة يا حضرة المشير بانكم لن تنسبوها الا الى صدق مودتي واحترامي لشخصكم :

١ – يبدو لي ان هذه الحرب الاهلية قد دبرها احد الفريقين منذشهرين وعليه نعتقد بانهم قد رسموا خطتهم واتخذوا جميع التدابير اللازمة لنجاحها وبعبارة أوضح : انها مسألة تامة التنظيم بعيدة المرمى لان فروعها ممتدة من جنوب سورية الى شرقيها فاذا كانت لم تمتد بعد فلأنها لم تبلغ درجة النضوج التام .

٢ – ان المقاومة الشديدة التي يبديها المسيحيون لحفظ مركزهم وسيطرتهم في جبل لبنان من شأنها اطالة هذه الحرب الاهلية مما يمهد

السبيل لاعداء الباب العالي ان ينتقصوا من سيادته على تلك الولايات .

٣ — لما كانت البلاد في حالـة تقرب من الثورة وليس لدى الحكومة سوى قوة صغيرة لارهاب السوريين فأرى من الحكمة عدم اشراك هـذه القوة في القتال اتقاء للطواريء التي يتوقع حدوثها قريبا وعليه يجب عدم الاسراع في مؤازرة احد الفريقين المتقاتلين دون ضرورة قصوى لان هذا الحياد يجعل دولتكم في موقف أكثر ملائمة للتوسط بينهما بنجاح .

٤ — من المرجح انكم اذا آزرتم احد الفريقين علانية فان الفريق الآخر سيلجأ الى استعمال كل نشاطه وما لديه من وسائل الدفاع مستميتا في الذود عن نفسه بحيث اذا أصيب الجنود الاتراك بهزيمة وسط هذه الجبال فمن الثابت ان السوريين سيزدادون جرأة ويتمردون جميعا عليكم فتعجزون عن قمعهم لضعف قواكم لاسيما وان الاموال والمؤن تعوزكم .

وقد اتصل بي ايضا ان دولتكم اوعـزتم الى الامير بشير بالذهاب الى بيروت ليكون بمأمن وان في نيتكم استبداله بعلي باشا وفي رأيي ان الامير لايستطيع في الظروف الحالية ترك المنصب الذي شاء جلالة السلطان ان يقلده اياه وله الحق ، بصفته من عمال الباب العالي ان يطلب مساعدتكم في ما تقتضيـه مصالح حكومتكم . ولتتأكدوا دولتكم أن اهالي جبـل لبنان بأجمعهم لايسمحون مطلقا بأن يتولى ادارة بلادهم احد الباشاوات لان ذلك مخالف لامتيازاتهم القديمة التي شاء الباب العالي تأييدها حديثا . وبالتالي لا يستبعد أن يعارضوا في تولية علي باشا . فاذا ماهاجموه او طردوه من الجبل فسيلحق بشرف الباب العالي غضاضة ويخشى أن تنقلب الى حرب أهلية وعداء بين الحكومة العثمانيـة والسوريين . وأنا واثق بان دولتكم تنسبون مخاطبتي اياكم بهذه الصراحة الى حبي لشخصكم وغيرتي على سعادة هذه البلاد راجيا دولتكم ان تتفضلوا بقبول الخ ...

* * *

الوثيقة رقم ١٧

نشرة محمد سليم باشا قائد جيوش الدولة العلية الى اللبنانيين
بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٢٥٦ الموافق ١٦ كانون الاول ١٨٤٠

اعلاما الى العسكر المتوجه من الجبل صحبة فخر ملته سر عسكر الذميون الشيخ فرنسيس الخازن زيدت شجاعتهم .

انه نصدر امرنا هذا الدستوراني بتوجهكم لمضاربة الدوشمان القوم الخاسرين وبربهم كافرين فيلزم تغمدوا سيوفكم في اعناقهم وتجعلوهم غنيمة لكم وقد أصدرنا لكم تعيين مانده كل يوم غرشين ولكل نفر نصف اوقية بقصمات وانعطي لكم الآن ماندة شهر مسبق فيقتضي تكونوا مطيعين لمتوليكم الشيخ المذكور وأي من خالف كلامه او توجه لقضاء مصلحة تخصه بدون اذنه فجزاه الموت وقسما بالله العظيم وبرأس مولانا السلطان الاعظم لايحصل عفو عن دمه دقيقة الفرد . بل كونوا ثابتين متوحشين بدرع البسالة والشجاعة وبحوله تعالى أنتم الفايزين الغانمين ولكم من بعد ذلك الانعامات الوفية من فيوضات بحور مكارم حضرة افندينا الدولة العلية ومن عواطفنا الدستورانية فاعتمدوا هذه المأمورية واياكم والخلل فتندموا حيث لايفيدكم الندم تعلموه وتحذروا مخالفته .

* * *

الوثيقــة رقم ١٨

كتاب علي بك خزنه‌دار مصطفى باشا في ٣ جمادى الاخرى سنة ١٢٥٨
(١٨٤٢م) الى احد حكام المتاولة

جناب افتخار الاماجد الكرام أخينا المكرم حمد البيك حفظه الله تعالى .

غب ابلاغ التحية والسؤال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لخوتكم انه بحسب الاعتماد على صداقتكم واستقامتكم الاكيدة والآن يوجه لكم تحرير من عربي كاتبي الخواجا جبرائيل العورة فبوصوله ليدكم تعتمدوا مآله وتظهروا همتكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفــه لكم وتهتموا بنجازه وارسال الجواب لطرفنا بالجبل بحيث مرسلكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم بأقرب وقت تتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم .

كتاب جبرائيل العورة الى الحاكم المذكور

سني الهمم سلطانم

غب تقديم الدعاء بدوام بقاكم نعرض الآن واصل طيه فرخين ورق كبير على بياض وصورة عرض محضر الى حد الورق البياض فيه الكتابة وعلامة محلات الاسماء والختوم فالقصد بذلك ان بحال وصوله تحرروا العرض

بحضر وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمه من مشايخ المتاولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع غير ان لاتدعوا أحد من مشايخ العشائر ومشايخ القرايا اسلام ونصارى الا وتختموه وبالخصوص تجتهدوا على تكثير اسماء النصارى والذي ماله ختم تدعوه بالحاضر يعمل ختم ويختم واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولتكة والتنازل لكائن من كان بحيث لا تخلوا أحد من وضع اسمه وختمه وهذه تعد لجنابكم عند دولتهما (مصطفى باشا وعلي بك) من أعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما تؤملونه وهذا وقت اكتساب الفرصة .

محل الختم

* * *

الوثيقــة رقم ١٩

نشرة السر عسكر مصطفى نوري باشا الى اللبنانيين

بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢م)

صدر مرسومنا هذا المطاع الواجب القبول ولازم الاتباع الى مفاخر المشايخ المكرمين مأمورين مقاطعة كسروان زيد قدرهم • واعلام به الى مشايخ واختيارية ووجوه ومتقدمين وسكان المقاطعة المذكورة بوجه العموم يحيطون علما •

المنهي اليكم ان ارباب الغايات لم يكفوا عن الاشاعات الباطلة عن الامير بشير اسبق واولاده بتقولاتهم واخبارياتهم عنهم انهم يحضرون في هذا الوابور او في الوابور الآخر وما قصدهم بذلك سوى القاء الازعاج والقلق لاهل العرض والفقراء الذين تعاملوا بأنواع الجور والمظالم بأوقات ادارته في جبل لبنان وهذه هي عين الاراجيف • لاجل ذلك اقتضى الآن اصدار مرسومنا هذا اليكم علنا مؤكدا واخبارا حقيقيا لكي يكون معلوم ومجزوم عند الجميع بكل تأكيد وتحقيق من دون شبهة ولا ريب انه فضلا عن عدم صيرورة الامير بشير الاسبق بل قطعا ولا يمكن ان يصير أحد من عائلة بيت شهاب في ادارة جبل لبنان وهذا الوهم فلينتزع من عقول الجميع منكم ومن الذين تعاطوا القاء الاراجيف والفتن والحركات المغائرة ان كان بهذا الخصوص او بغير خصوصيات قد صار تحقيق امرهم وسوف يجري تأديبهم من طرفنا بما

يستحقون • وبحوله تعالى حقوق السياسة العدلية تأخذ حق مفعولها فجميعكم تكونوا مطمأنين القلوب والخواطر قارين العيون والنواظر وكل منكم يكون مقيم في حد ادبه واستقامته متعاطي اشغاله واعماله وتحصيل اسباب معاشه متجنبا ومبتعدا عن كل مافيه شبهة الحركات والمداخلات المغايرة لكي تدوموا حاصلين على حوزة الراحة والرفاهية طبق مرغوب حضرة الدولة العلية صانها وحرسها رب البرية لكل من يكون ثابتا في دائرة حد الاستقامة والاستكنان والابتعاد عن الحركات المغايرة والاراجيف المروية ان كان فيما يخص التكلم في شأن بيت شهاب او بغير خصوصات فبناء على ذلك الآن اصدرنا لكم بيورلدينا هذا من ديوان سر عسكريتنا واستقلالنا في كامل ايالات بريـة الشام وارمكاه بيروت لكي بوصوله ووقوفكم على مضمونه تبادروا لاجراء العمل بموجبه وتتحاشوا مخالفته وتعتمدوه غاية الاعتماد •

* * *

الوثيقـــة رقم ٢٠

كتاب السيد ستاتفورد كانين الى صارم افندي بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٨٤٣ (٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٨)

يا صاحب السعادة

ان الجلسة التي طلبتم عقدها من الموسيو بيزاني باسمي وباسم ممثلي النمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا للتداول لم يعد لها لزوم ، كما قلتم ، بعد ان اخبرتموني بان الباب العالي اختار حلا مطابقا لرغائب صديقاته من الدول ، كما ان الكتاب الذي تفضلتم بارساله الي في ٧ الجاري قد اطلعني على هذه النتيجة الحسنة • وانه لما يسعدني أن أبلغ حكومتي هذا الدليل الساطع على مجاملة جلالة السلطان وحسن نواياه • وستعلم حكومتي بكل سرور ان الباب العالي باقراره الرأي القائل بوضع جبل لبنان تحت ادارة رئيس مسيحي على الموارنة ورئيس درزي على الدروز قد اراد بصورة خاصة اظهار ثقته بصداقة الدول الخمس وأخذ رأيها بعين الاعتبار لانه ان حاز على صداقتها وقوي بارشاداتها توفرت لديه وسائل جديدة تساعده على توطيد الامن في المملكة والعمل في سبيل خيرها ومصلحتها •

ان أي استياء يصاحب الارتياح التام الى هذا الحل ، ناشيء عن الريبة التي ابداها الباب العالي بشأن المستقبل ، يجب ان يزول اذا ما أيقن الباب العالي ان نجاح هذا التدبير وتنفيذه منوط به بشكل خاص كما ان حوادث

سورية الاخيرة أظهرت ضرورة اللجوء الى هذا الحل بعد أن أثارت مخاوف الدول المتحالفة • واذا كنت أتجنب توجيه أي انتقاد يتعلق بأسباب هـذه الكوارث مراعاة للمسؤولين الذين كانوا يمسكون بزمام الامور في الاماكن المذكورة الا انني لا استطيع التغاضي عن وقوع هذه الاحداث وخطورتها ، آملا ان تسير الامور في المستقبل بشكل حسن مضمون • ويجب ان يدعم هذا القرار الوسائل الاخـرى المذكورة في امركم الى مشير صيدا وهي : فصل عمر باشا واقصاء الجنود الالبانيين عن سورية واعادة الاموال المغتصبة الى اصحابها وحرية الاديان وتخفيف الضرائب• وقصارى القول ان الامتيازات القديمة اصبحت ثابتة بتعهد الدولة وانا واثق بان حكومتي ترى في مجموع هذه التدابير داعيا جديدا لتوثيق عرى المودة بين الحكومتين بل حقا أحرزه الباب العالي في طاعة وشكر الشعب الذي وضع له هذا النظام • واذا ماكانت حنكة الوزير المكلف بادارة هذه الولاية وصفاته مطابقـة لنيات الحضرة الشاهانية الخيرة واذا ماكان اختيار القايم مقامين ــ الدرزي والماروني ــ ملائما لحاجات البلاد فلن يكون للدول المؤيدة لجلالته بعد ذلك أي أسف تعبر عنه أو رغبة أخرى تبديها •

* * *

الوثيقـــة رقم ٢١

تقرير رفعه المطران نقولا مراد الى اللورد آبردين

في ١٠ نيسان سنة ١٨٤٤ و ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٦٠

بيان بالحوادث التي جرت بعد تعيين قائم مقامين في لبنان احدهما ماروني والآخر درزي سنة ١٨٤٢ واستلامهما زمام الامور في اول كانون الثاني سنة ١٨٤٣ :

ان الفوضى لضاربة أطنابها الآن في لبنان بسبب تدخل الباشا وأعوانه ، فالقتل والسلب متواصلان بحيث لا يستطيع المرء الابتعاد منفردا عن مقره مسافة ساعة دون أن يكون مصحوبا برجال مسلحين لحمايته وكثيرا ما يعثر على جثث القتلى ملقاة في الطرقات على بعد ربع ساعة أو نصف ساعة من بيروت فاذا ما رفعت الشكوى الى القائم مقامين أجابا انهمـــا لايستطيعان شيئا • واذا ما التجأ المرء الى الباشا طالبـــا معاقبة القتلة كان جوابـــه •• (لا بأس فلا أهمية للمسألة) • ان اسرتي حبيش ودحداح هما في نزاع دائم توشك ان تفني احداهما الاخرى • وقد قتل من الاولى اربعة ومن الثانية واحد وأفراد الاسرتين في حالة تسلح دائم يسعون للفتك ببعضهم البعض • أما موقف الاهلين فحرج بين هاتين العائلتين وقد التمسوا من القائم مقام ان يبادر الى اصلاح ذات البين بينهما لتوطيد اركان الراحة • فأجاب أنه يعجز عن ذلك لان الباشا لا يريد أن يسود الوئام في جبل لبنان •

وقد أوجبت الاتفاقيات السابقة المؤرخة في سنة ١٨٤١ على لبنان أن يدفع الى الباب العالي ١٢٠٠ كيس جزية و ٢٣٠٠ كيس لحكومة الجبل لتأمين رواتب موظفيها ونفقات القضاء وغير ذلك ، الا ان الباشا استولى على جميع هذه الاموال بأمر من الباب العالي بعد ان دفع اموالا للقائم مقامين ليكونا آلة في يده وطوع ارادته • وكلما أرادا القيام بواجبهما أظهر لهما الباشا استياءه وريبته فيهما وهددهما بالعزل والطرد •

ليس هذا فحسب ، بل ان الباشا استولى على عوائد الاوقاف المخصصة للخير العام مجبرا القائم مقام الماروني على دفع (١٠٨) آلاف قرش لسد العجز الناجم عن هذا الاغتصاب ، وجميع هذا مخالف لنص معاهدة سنة١٨٤١

هذا وقد عمت الفوضى أيضا الدروز الذين اقتتلوا حديثا في احدى القرى وأسفرت المعركة عن ثلاثة قتلى وكثير من الجرحى حتى اضطر الفلاحون الذين يحرثون الارض الى حمل السلاح ويدهم على المحراث كما ان قدري بك قائد قوات دير القمر أثار قتالا في أواخر شهر كانون الاول سنة ١٨٤٣ بين الدروز والمسيحيين ثم امر بنهب الآخرين وقتلهم فقتل وجرح الكثيرون •

لقد كان في عداد شروط الاتفاقية المعقودة في الاستانة في ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ ان الحكومة ستستدعي من سورية جميع الالبانيين فلم تبر بعهدها وهم يشاهدون في سورية كل يوم مع زعيمهم عباس لاسيما في بيروت ونفوذهم في هذه المدينة لايقل عن نفوذ الباشا • وفي ٨ شباط دخل الالبانيون الى جبل لبنان مع بقية الجنود الاتراك واقترفوا فظائع كثيرة • وقد أخذ باشا بيروت بواسطة القائم مقام ٦٠ الف قرش من اقطاعة كسروان قبل تنفيذ أمر الاستانة القاضي باعفائها من الضرائب مدة ثلاث سنوات تعويضا عما أصابها من الخسائر في سنة ١٨٤٠ فحدث من جراء ذلك خلاف بين كثيرين

من أفراد الاسرة الخازنية لان قسما من افرادها واتباعهم ثار وحرض الشعب على التمرد على القائم مقام والباشا ، مما سبب الكثير من الاضرار • وقد أصبح كل فرد من الاسرة الخازنية تابعا لحزب مختلف والباشا مسرور بهذا الانقسام •

ان الباب العالي عين برضاء السفراء قائدا تركيا في دير القمر وضواحيها خلافا لمعاهدة سنة ١٨٤٢ وفوضه أن يعين في كل قرية زعيما درزيا وآخر مسيحيا بحيث يصبح مجموع الزعماء ٦٠ الى ٨٠ في القرى الثلاثين او الاربعين الموجودة ، وهو تدبير من شأنه الاجهاز على لبنان بشكل كامل •

وعلى ذلك فان حماية اوربا للبنان قد أثارت عليه حقد الاتراك الشديد الذي أدى الى خراب يقتضي أكثر من مائة سنة للعودة الى الحال التي كان عليها في سنة ١٨٣٩ والى حرمان الاسرة الشهابية ، المدافعة الوحيدة عن لبنان ، من حكم الامارة وفقدان جميع الامتيازات القديمة وتجزئة البلاد واخضاعها الى عدة زعماء متنافرين •

وبعد هذا الايضاح الذي هو جزء خفيف من الفظائع التي ارتكبت في لبنان يتسنى لحضرتكم الحكم فيما اذا كانت الراحة سائدة فيه وتمهد لكم الاسباب التي يمكن للدول الاستناد اليها لاعادة حالة الاستقرار التي خسرها لبنان بكل أسف •

* * *

الوثيقــة رقم ٢٢

نشرة اسعد باشا الى أهالي جبل لبنان بتاريخ اول تموز سنة ١٨٤٤

(١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٠)

صدر مرسومنا هــذا المطاع الواجب القبول واللازم الاتباع الى جميع مسيحيي الجبل بوجه العموم من جهة بشرّاي الى جونية ليحيطوا به علما .

انه منذ بضعة ايام وصل الى هنا دولتلو عطوفتلو قبودان باشا قائد الاسطول الهمايوني المظفر الحامل عددا عظيما من الجنود المنصورة وكميات وافرة من المؤن والذخائر وقد وكل الى دولته ان يسوي شؤون لبنان وينظم ادارته بالاتفاق معنا . وكان ان اتصل بنا ان بعض المقلقين اعداء الراحــة العمومية قد اتفقوا مع بعض الدروز سعيا وراء توقيع عرائض لدولته التماسا لاعادة الامير بشير شهاب الى حكم الجبل مما يتعذر تحقيقه لان الباب العالي ارتأى بالاتفاق مع الدول صديقاته الا يستخدم الامير بشير او غيره من أفراد أسرته . ولما كانت هذه المساعي من شأنها اقلاق الراحة العمومية ولا سيما راحتكم يجب ان تتحاشوها وكل من تجاسر على التكلم او السعي في هذا السبيل انزلت به أشد العقوبات . ولنا الامل انه بعون الله وسطوة الباب العالي يستظل جميع السكان في أفياء الراحة .

* * *

الوثيقـة رقم ٢٣

فقرة من خطاب الكونت دي كاتربارب في مجلس النواب
بتاريخ ٦ كانون الثاني سنة ١٨٤٧

اسـأل الوزارة عما اذا كانت علاقاتنـا مع الدول العظمى تحول دون مساعدتنا الموارنة .

... بيدي الآن عريضة أنفذها الينا رئيس الشعب الماروني وهي مؤرخة في ٣٠ ك١ المنقضي مذيلة بـ ٣٢٠ توقيعا وفيها وصف حالة مسيحيي لبنان المحزنة بعبارات تثير الاسف في النفوس .

وفي بدء هذه العريضة يضرع الموارنة لله مستمطرين وابل بركاته السماوية على ملك الفرنسيين وفرنسا ثم يعـدون ضروب بلاياهم وأنواع شقائهم ويقولون فيها : كدنا نباد مرتين أو ثلاث مرات فغير المؤمنين قد سلبوا كل مقتنياتنا وحرقوا كل أملاكنا بحيث لم يبقوا كوخا الا دمروه أو شجرة الا قطعوها وقد شنع الجنود العثمانيون بالاولاد ذكورا وأناثا وذبحوهم ولم يبقوا على أحد .

فيا أيها الشعب الفرنسي أنظر الى شقائنا وذلنـا حتى انه لم يبق لنا أمل أو تعزية فقد دمرت معابدنا ودنست الاواني المقدسة ونهبت وحرمنا كل ما هو لازم للصلاة (ضحك في الوسط) فقد شربنا كأس المرارة أيها الاخوان حتى الثمالة .

اليك نضرع يا الله فانك وحدك قادر على أن تلقي في قلب فرنسا ومليكها الرأفة بنا وتدفعهما الى مدنا بالعون والمساعدة فان فرنسا قد طالما كانت في كل آن محامية المسيحيين ولا سيما الموارنة .

أما الآن وقد انتهيتم من الحرب فنرفع اليكم هـذه العريضة فأجيبونا صراحة وبجلاء عما اذا كان يمكننا ان ننتظر منكم مساعدة عاجلة أم أنكم تخلون عنا فنعلم اذ ذاك كيف يجب ان نتدبر فلا نستسلم الى الآمال الفارغة.

نحن نطلب اليكم رفع نير الحكومة التركية الظالم عنا واعادة اميرنا المسيحي الى حكم جميع طوائف لبنان . ومجمل الرجاء الا يسمح لحاكم تركي أن يتولى ادارة جبلنا بل لحاكم مسيحي كما كنا على عهد عبد الله باشا .

ان المفاوضات بهذه المسألة جارية منذ بضع سنوات واذا كنا نجهل نتائجها فلأن حضرة الوزير يزعم ان اذاعتها قبل اوانها تضر بمصالح الموارنة فـلا أقبل بهذه الحجة .

لا ريب بان فرنسا اذا كانت تخاطب الاستانة بلهجة جديرة بها وتبسط الحماية المعترفة لها بها منذ عدة قرون وقد كانت تفاخر بها .. (حدثت ضجة وقوطع الخطيب) فأردف قائلا :

هل تتنازلون عن سياسة متقادمة العهد انتهجها شارلمان وتابعها القديس لويس وفرانسوا الاول وهنري الرابع ولويس الرابع عشر ونابليون الخ ...

* * *

الوثيقـــة رقم ٢٤

بيان اجماعي رفعه قناصل الدول العامون في بيروت

بتاريخ ١٩ حزيران سنة ١٨٦٠

نحن قناصل انكلترة والنمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا لما كنا قد تلقينا في ٧ ــ ١٩ حزيران تعليمات متماثلة من سفاراتنا للاتفاق دون ابطاء بشأن انسب الطرق للتوسط بين الاهلين في لبنان بغية حقن الدماء فقد ذهبنا في اليوم ذاته الى منزل عميدنا المستر مور للتداول فيما يجب عمله • وفي خلال ذلك بلغنا خبر استيلاء الدروز على زحلة فقصدنا حالا معسكر خورشيد باشا (في الحازمية) الذي صرح بأنه لم يتلق أنباء عن استسلام المدينة وأظهر شكه في صحة الخبر فأجبناه أن المهم في الآونة الحاضرة حقن الدماء وان الدول الخمس المتفقة كل الاتفاق لتأسف شديد الاسف على المعارك الدائرة بين الدروز والمسيحيين وتستهجنها • فمن الواجب الاسراع في اعادة الامن الى نصابه في البلاد• ثم عرضنا عليه أن نذهب معه الى محل الحوادث للتدخل بين الفريقين ومحاولة الصلح فأجابنا الباشا بان الجنود الموجودين تحت امرته غير كافين ولذلك فان تدخله لن يكون نافعا وان سلطته الادبية لاتمتد الى دروز حوران واقناع زعمائهم وسائر القبائل الخارجة عن ايالته واقترح علينا اصدار امر بالصلح وهي الطريقة الوحيدة التي يستطيعها الآن على شرط أن يصرح الفريقان بأنهما قد تناسيا الماضي وعــدلا عن طلب تعويض عن

الخسائر التي أصابتهما (وهذا الشرط أوجبه الدروز لايقاف القتال والا فلا).

وقد استعمل الباشا بهـذه المناسبة تعبيرا عربيا وهو (مضى ما مضى) وأضاف بان هذا الاتفاق لا يقيد يد الباب العالي بل يظل حرا في الموافقة وعدم الموافقة عليه . فأجبناه بأن هذا التصرف يمس شرف الباب العالي ويحط من كرامته فأجدر بنا أن نتجنب الدخول في هذا الشرط . فقال ان حرج الموقف يضطره الى اللجوء لهذه الوسيلة المحظورة وأقر أخيرا نشر أمر الصلح المذكور .

* * *

الوثيقـة رقم ٢٥

عهد صلح بين الدروز والموارنة وقع في بيروت بتاريخ ٦ تموز سنة ١٨٦٠

(١٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٧)

نحن الموقعون ادناه قائم مقـام ووكلاء واصحاب الاقطاعات وديوان شورى النصارى وأعيان المسيحيين ذهبنا اجابة لامر دولة مشير صيدا عند سعادة كاخية دولته والقائم مقام وصفي افندي فاجتمعنا بقائم مقام الدروز والوكلاء واصحاب الاقطاعات ورجال ديوانه وأعيان الدروز فسعينا جميعا الى استئصال اسباب الشقاق الواقع بيننا وضمان الراحة العمومية في المستقبل وفقا لاوامر دولته وحبا بمصلحة البلاد واعترفنا بان الحكومة وزعماء البلاد وعقلائهـا المحبين خيرها وأمنها لم يفتروا عن مواصلة السعي اتقاء وقوع الاضطرابات ، بيد ان دسائس محبين البلبلة ولا سيما الاشخاص الخاليـة قلوبهم من الرحمة الذين لايشفقون على الاطفال والاولاد والبنات وعنـاد الجهال حال دون منعهم نشوب الحرب فأجمعوا على انه لايوجد في هذا المأزق الحرج وسيلة تضمن حقن الدماء واعادة الامن الى نصابه الا عقد الصلح بين الفريقين المتحاربين طبقا لشروط الوثيقة المبرمة في سنة ١٢٦١ هجرية (١٨٤٥ م) وقوامها (تناسي الماضي) .

وبناء على ما تقدم تم الاتفاق بعون الله على كتابة صك الصلح العام هذا على الشرط المذكور آنفا وهو انه لايحق لاحد الفريقين ان يطلب تعويضات

عما حدث منذ بدء الحرب حتى الآن وكل من يحاول بعد توقيعه الصك نقض الشرط يعاقب • وعلى جميع الزعماء ان يتحدوا لمنع وقوع هذا الامر •

ان اوامر الحكومة ستصدر وفقا لنظامات جبل لبنان وعلى القائم مقام وأصحاب الاقطاعات أن يطبقوا أعمالهم على النظامات المذكورة كل الانطباق فيبادرون الى تنفيذ كل أوامر الحكومة متعهدين بايقافها على مجرى الشؤون كلما اقتضت الحاجة وعليهم ان يبذلوا جهدهم لتوحيد كلمة الطائفتين وبث روح الولاء والوئام بينهما لتوطيد راحة الاهلين وأمنهم وضمان رفاهيتهم ولا سيما لاعادة كل شخص الى بيته ليعيش براحة ويستلم أمواله وأملاكه دون ان يلاقي ممانعة من أحد او يلتحق به أدنى ضرر • وعند اللزوم يجب عليهم ان يساعدوا الاهالي على قدر طاقتهم وفقا لنظامات الحكومة مستعينين بدولة مشير صيدا •

وستتخذ عاجلا الوسائل الحازمة لازالة كل سبب خلاف واستبدالها بتوثيق عرى الالفة وتوطيد دعائم الامن وفقا لارادة جلالة السلطان أيده الله ولنيات دولة المشير •

بيد أنه لما كان من المقرر ان اسباب الاضطراب الرئيسية منشأها التراخي في تنفيذ الاوامر والنظام اللبناني فالموقعون ادناه يلتمسون من دولته أن يتخذ أقوى الوسائل لنصب ميزان العدل لتجري الامور مجراها الطبيعي وانصاف كل شخص بمنتهى النزاهة • وعلى جميع أصحاب الاقطاعات والموظفين ان يتموا واجبات وظيفتهم بنشاط ومزيد انتباه وفقا لنظامات الجبل وألا يسمحوا بحدوث أدنى ظلم وانا لنرجو أنهم يسارعون الى قضاء هذا الواجب بالنزاهة المفروضة على ضميرهم •

وبناء على ماتقدم عقد الصلح بيننا على الشروط المشروحة أعلاه ورؤي مناسبا ان يكتب اربع نسخ من هذا الصك توقعها كل من الطائفتين فاثنتان منها يتبادلهما الفريقان والاثنتان الاخريان تسلمان الى دولة المشير ليحفظهما في خزائن اوراق الحكومة ليكونا قاعدة للعمل في الحال والاستقبال .

التواقيع : القائم مقامان المسيحي والدرزي وأصحاب الاقطاعات وأعضاء الديوان وكلاء وأعيان البلاد .

* * *

الوثيقة رقم ٢٦

عريضة أرامل المعاصر وبيت الدين الى فؤاد باشا

ان الجنود التركية أكرهت الرجال والنساء والاولاد في بتدين على دخول السراي في ٢٨ ايار المنقضي بحجة حمايتهم فيها بسهولة من الدروز فصدقنا وعودهم ولجأنا الى السراي • ومن الغد وصل الدروز بقيادة الشيخ ملحم واحمد بك حمادة من بعقلين فأتلفوا مزروعات المعاصر وحرقوا بيوتها فحاول أصحابها اللاجئون الى السراي الخروج لرؤية ما هو جار فأطلقت عليهم الجنود التركية الرصاص فقتلتهم •

وفي ٢٩ منه أوعز الينا الضباط بالخروج من السراي وحشرونا في الاصطبلات التي بناها الامير بشير ولم يكن لدينا ما نقتات به • وقد أجاز أحد الضباط لبعض نسائنا الذهاب الى البيوت التي لم تحرق للاعتناء بتربية دودة القز وعند عودتهن جلبن لنا معهن سنابل قمح وأعشابا لسد رمقنا لان الضباط الاتراك لم يعطونا ما نقتات به ولا ماء نروي به عطشنا • وكان عددنا هناك ٢٠٦ نسمات فبقينا حتى ١٩ حزيران وهو يوم مذبحة دير القمر الخ•••

••• انما الدروز كانوا على الاقل لايمسون عرض النساء والبنات بعكس الجنود التركية فانها تناست ان لها امهات وشقيقات فارتكبت الفظائع • هل شوهد مثل هذه الفاجعة منذ بدء العالم ؟

وكانت جماعة من التعساء لجأوا الى السراي على أمل وقاية حياتهم فدخل

عبد السلام بك القائم مقام العسكري ومعه الدروز فاستأنفوا المذبحة وكان لهذا الضابط خادم مسيحي فشاهده الى جانبه فدل عليه درزيا وقال له : (أقتل هذا الكلب) • وفي الحال وقع هذا المسكين قتيلا على أقدام سيده وقد قتل أيضا مسيحي آخر كان ملتزما تقديم الارزاق للجنود فأثرى فاقتسم الجنود والدروز ماله • وكانت الجنود تتراكض مع الدروز متنقلة من بيت الى آخر وبعد نهبه تحرقه • وعلينا أن نشهد اجابة لداعي النزاهة بان بعض الضباط الاتراك شفقوا على بعض المسيحيين التعساء وشاءوا انقاذهم لكن عبد السلام بك درى بهم فعاد يستشيط غضبا وأمر بعدم العفو عن أحد قائلا : ان قد قضي على المسيحيين بالذبح •

هل شوهد في العالم حيوانات عوملت كما عوملت في ذلك اليوم المشؤوم خلائق الله البشرية ؟ ان الصخور لو كان في وسعها سماع هـذه الفظائع لتصدعت •

بيد ان الحق يقضي علينا ان نعلن انه اذا كان عبد السلام بك قد تصرف كنمر ظمىء الى دماء المسيحيين فان قرينته قد أبدت حنانا وشفقة وعطفت على بعض النساء المسيحيات كغزالة على أولادها فأنقذتهن وخبأتهن في بيتها فنضرع الى الله ان يكافئها على ما فعلت من الخير وينقذها من مخالب الرجل القاسي القلب البربري المرتبطة معه برباط الزيجة •

اننا نكتفي بما تقدم يا حضرة صاحب الدولـة وان كنا لم نحط بكل ماجرى • ان قلوبنا لتقطر دما ولا نقوى على زيادة الشرح ففراشنا الارض وغطاؤها السماء فنسألك اجراء العدالة ولا نكف الا بعد انصافنا •

* * *

الوثيقـــة رقم ٢٧

فرمان السلطان عبد المجيد لفؤاد باشا ناظر الخارجية في اواخر ذى الحجة سنة ١٢٧٧ (اوائل تموز سنة ١٨٦٠)

الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي السديد الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى أفخم وكلاء دولتنا العلية وأعظم مشيري سلطنتنا السنية المنوطة به نظارة الامور الخارجية في دولتنا العظمى المختار من لدن ملوكيتنا مستقلا بمأمورية خرق العادات لمصالح سورية الحامل علامتنا المجيدية والحائز باستحقاق شـرف نيشان امتيازنا الملوكي والخدمة العسكرية ومن الرتبة الاولى الوزير الالمعي محمد فؤاد باشا أدام الله تعالى اجلاله •

توقيعنا الرفيع الشأن هـذا بوصوله اليك لتحط علما انك ايها الوزير الهمام المشار اليه بالبنان العالم حق اليقين بالفتنة التي اشتعل اوارها الآن بين الموارنة والدروز سكان جبل لبنان الذي هو في سورية وحينما انتهى الينا ما نشب بينهم من المناقشة والجدال والمبادرة الى المجالدة والقتال كان ذلك مما تكرهه عنايتنا الرحيمة رأفة بالعبـاد وسطوتنا القاهرة تأبى الا النظر بالشفقة على الرعية متساويا لدينا جميع صنوف المتسمين بتبعة دولتنا العظمى على اختلاف مللهم ليكونوا بالامن والراحة رغيدا عيشهم مطمئنة قلوبهم في

ظلال الامن راتعين وان لايتجاوزوا بوسيلة على آخرين. تلكم قصارى بغيتنا ونتيجة مأربنا . فأما ما اضطرب به جبل لبنان من الحركات الغادرة الظالمة فانها من جميع الوجوه تغائر رضانا وتعاند معدلتنا ولهذا أنطنا بدرايتك الكافية النظر في ذلك وفوضنا الى فطنتك الذاتية التي اتصفت بهـا في الخافقين الامر في الاستقلال لتسرع باخماد هذه الثائرة واستئصال جرثومة الذين أيقظوا الفتنة فلا تبق عليهم ولا تذر أولئك الذين عثوا مفسدين عدوانا وكانوا سفاكين دماء البشر . فيا أيها الوزير الواحد الاحد المستجمع غرر الصفات السابق الايماء اليها الجليل المهاب بين رجال سلطنتنا المظفرة أنت أنت الذي وثقت بك عظمتنا وقد عولت عليك اعتمادها لتكون من لدنها بالاستقلال في الحادث الجلل مطلق الامر ماضي الاحكام وقد سيرنا نحو هاتيك الاقطار الجيش العرمرم وجحافل العسكر الجرار تصرفهـا أنى شئت حسب رأيك وتدبيرك واجتهادك في المصالح وبحول الله عز وجل تجد في المسير من هنا الى تلك الناحية حتى اذا وطأتها أضحى وزراء الملك والجيش كافة اليك مرجعهم برأيك يأتمرون وعلى تدبيرك يسلكون في ماينبغي لاضمحلال أثر هذه الفتنة التي نشبت بين الموارنة والدروز في أسرع حين . والجهد كل الجهد برد الامن والسكون والراحـة الحفي برها بالناس اجمعين والذين تجاسروا عدوانا على سفك دماء ذرية بني البشر اجعل جزاهم بمقتضى الاحكام التي نص عليها عدلنا في قانون الجزاء ردعا وتأديبا والهمة الهمة في محو أثر هذه الغائلة الفظيعة مستعملا في ذلك ما استقللت به رأيا واجتهادا وقد فوضعناه اليك وأنطناه بك من تدبير مصالح السياسة وترتيب الجيش ايفاء بما يجب من حق الدراية والقيام بواجبات الوظيفة وبذل ما تتصل اليه الاستطاعة وعلى ذلك صدرت اليك الاوامر من ديواننا الملوكي بولاية هـذا العمل

والاذن بالذهاب لتكون منتهجا بمقتضاه مؤتمنا به معتمدا على علامتنا الشريفة تحريرا في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٧٦ •

• • •

برقية من السلطان عبد المجيد الى الامبراطور نابليون الثالث

عن قصر طولمة بغجة في ١٦ تموز سنة ١٨٦٠

يهمني جدا أن تتأكد جلالتكم اني تلقيت خبر الحوادث في سورية بأسف بالغ فلتثق بأني أبذل كل مافي وسعي لاقرار الامن واعادة النظام اليها وانزال أشد العقاب بالجناة مهما كانوا وانصاف الجميع • ولكي لايبقى أدنى شك في نوايا حكومتي قد شئت أن أعهد بهذه المهمة الخطيرة الى وزير خارجيتي المعروف لدى جلالتكم بسداد آرائه •

* * *

الوثيقـــة رقم ٢٨

نشرة فؤاد باشا في ٣٠ ذي الحجة سنة ١٢٧٦

(١٩ تموز سنة ١٨٦٠)

الى شعوب سورية

ان الحرب الاهلية التي نشبت في جبل لبنان بين الموارنة والدروزوأسالت أنهرا من الدم قد أوجبت استياء جلالة المتبوع الاعظم الشامل برأفته جميع رعاياه على السواء دون أدنى تمييز •

من الامور المخالفة لنيات جلالته اعتداء فرد على فرد أو ملة من الملل على اخرى لاي سبب كان أو بأية صورة كانت وبناء عليه فجميع الذين يخالفون هذه الاوامر يعدون كمتمردين على الحكومة • ومن ثمة يجب محو آثار كل عداء بعد الفظائع التي اقترفها أهالي لبنان •

قد جئت موفدا من قبل الحضرة السلطانية بمهمة مستقلة وخارقة العادة لمعاقبة الذين ارتكبوا هذه الجنايات وقـد تضمن الفرمان السلطاني العالي الشأن الموجه الي بيان السلطة المخولة لي فأظهر عدالة الحضرة الشاهانية ملجأ المظلومين التي تصغي لشكاويهم وتقتص من الظالمين وسأتمم ما عهد الي به بكل نزاهة فليرتح بال الجميع • أما في ما يختص بالعيل التي طردت من بيوتها فأتكفل باعادتها وسد حاجاتها المعاشية مظهرا لها بذلك الشفقة الخاقانيـة

والمعدلة الشاهانية • ينبغي أن يقف القتال حالا فان الجنود السلطانية التي بامرتنا ستعمل منذ اليوم ضد من يخالف هذه الاوامر ويبدأ بالعداء منذرين بانزال العقاب العاجل في كل من يعكر كأس الراحة • وقد فوض الينا خلا السلطة لوضع حد للاقتتالات وسائل غير عادية لمحاكمة الافراد الذين اقترفوا الجنايات • فللجميع كبارا وصغارا ان يبسطوا لدينا شكاويهم فنعيرهم أذنا صاغية • ولاحاطة الجميع بذلك حرر •

* * *

الوثيقـــة رقم ٢٩

محضر (بروتوكول) جلسة المؤتمر المنعقد في باريس في ٣ آب سنة ١٨٦٠

الحاضرون : ممثلو النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا وتركيا .

لما كان جلالة السلطان يريد حقن الدماء في سورية واتخاذ أقرب الوسائل الناجعة لاظهار عزمه على المحافظة على الامن والنظام بين الشعوب الخاضعة لسلطنته وكان اصحاب الجلالة امبراطور النمسا وامبراطور فرنسا وملكة بريطانيا العظمى وايرلندة وبروسيا وجلالة امبراطور الروسيا قد عرضوا على جلالة السلطان مساعدتهم الفعالة فقبلها ، فقد اتفق ممثلوهم على الموادالآتية :

المادة ١ ــ يرسل الى سورية جيش أوربي يمكن زيادة عدد جنوده الى اثنى عشر الفا ليعمل على توطيد الراحة فيها .

المادة ٢ ــ ان جلالة امبراطور الفرنسيين رضي أن يجهز في الحال نصف الجيش ، واذا اقتضى الامر ايصاله الى العدد المحدد في المادة السابقة ، فعلى الدول صاحبة العلاقة ان تتفق دون تأخير مع الباب العالي ، بطريق المفاوضة الدولية العادية على تعيين الدولة التي يتوجب عليها تقديم الجنود اللازمين .

المادة ٣ ــ على القائد العام لهذه الحملة ان يتصل فور وصوله بسفير الباب العالي فوق العادة للاتفاق معه على اتخاذ جميع الوسائل التي تستدعيها

الاحوال واحتلال المواقع اللازمة لبلوغ الغاية المقصودة •

المادة ٤ ـ ان اصحاب الجلالة امبراطور النمسا وامبراطور الفرنسيين وملكة بريطانيا العظمى وبروسيا وجلالة امبراطور الممالك الروسية وعدوا بمواصلة ارسال القوات البحرية الكافية الى شواطىء سورية وابقائها للمساهمة في نجاح المساعي المشتركة التي ترمي الى توطيد الراحة في تلك البلاد •

المادة ٥ ـ ان الدول المتعاقدة جعلت مدة احتلال الجنود الاوربيين لسورية ستة اشهر لتأكدها من انها كافية لاعادة الامن والراحة المطلوبتين •

المادة ٦ ـ يتعهد الباب العالي ان يبذل كل ما في وسعه لتسهيل تموين هذه البعثة العسكرية •

وقد استقر الرأي على صياغة المواد الست آنفة الذكر بشكل اتفاقية يوقعها ممثلو الدول فور وصول التفويض المطلق لهم بذلك من حكوماتهم ، الا ان شروط هذا الصك تنفذ في القريب العاجل •

أما القائم بوكالة سفارة بروسيا فقد لفت الانظار الى ان توزيع بوارج الاسطول البروسي حاليا لا يسمح لحكومته ان تشترك منذ الآن في تنفيذ محتويات المادة الرابعة •

* * *

الوثيقــة رقم ٣٠

نشرة فؤاد باشا في الجنود التركية في دمشق في ٢٠ محرم سنة ١٢٧٧

(٨ آب سنة ١٨٦٠)

أيها الرفاق • ان بعض الجنود الفرنسوية والانكليزية ستصل قريبا الى هذه البلاد • لان دول اوربا لرغبتهن المتواصلة في أن تستمر بلادنا متمتعة بالراحة قد شئن ان يساعدننا على قمع الاضطرابات التي حدثت في هــذه البلاد فقبلت الحكومة السنية مساعدتهن اظهارا لثقتها في حليفاتها •

وغير خاف عنكم ان هذه الجنود تخص ذات الدول التي عضدتنا بكل قواها في عهد سابق فعليكم أن تقوموا بواجب الاخاء نحوها فأنتم في بلادكم وهي في ضيافتكم فاعملوا بواجبات الضيافة فتشاهد احسانكم خدمة نيات جلالة متبوعنا الاعظم المنصرفة الى العدل وانقيادكم العسكري واحترامكم نظام الجندية وشرفها وترى أنكم بغنى عن كل معاقبة سافكي دم المسيحيين مواطنيكم مثلنا والاقتصاص من الجناة باسم الانسانية •

* * *

الوثيقة رقم ٣١

من فؤاد باشا الى عالي باشا • دمشق في ٢٠ آب سنة ١٨٦٠

اعدم صباح اليوم علانية ١٦٧ من الجناة المحكوم عليهم فشنق ٥٧ في الاحياء المأهولة وأعدم رميا بالرصاص ١١٠ من رجال الشرطة في الساحة المسماة (جنك ميدان) وقد استولى الرعب على السكان فلم يبدوا أدنى حركة في خلال اعدام الجناة السابق ذكرهم • وسيرسل غدا الى بيروت بخفارة الجنود الجناة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة او بالكورك ليركبوا منها البحر الى الاستانة •

وفي عداد المشنوقين أشقاء اكبر اعيان المدينة واولادهم وانسباؤهم دون ان يحفل بمقامهم ووظيفتهم وسيقبض غدا على سائر الاعيان المتهمين •

ان محاكمة احمد آغا والي دمشق السابق وسائر الضباط متواصلة أمام المجلس الحربي وسأنفذ الاحكام حين ابرامها •

ان الجناة الذين تمكنوا من الفرار بعد المذابح سيحاكمون غيابا وتنفذ فيهم الاحكام عندما يقبض عليهم •

ان جيش السلطان لهو أطوع من البنان وسالك باخلاص تام ويد العدالة ضابطة الامور •

ان السكينة مستتبة في كل شواطيء سورية واعيدت مياه الراحة الى مجاريها في صيدا وضواحيها •

* * *

الوثيقة رقم ٣٢

بيان اللورد بالمرستون امام مجلس العموم في ١٧/٨/١٨٦٠

ان حضرة الصديق الفاضل نائب منطقة ليمريك قد تكلم في القضية السورية معتقدا بان الاحداث هناك هي نتيجة استبداد الاتراك في حين ان الامر بالعكس فقد نشأت تلك الاحداث عن عدم وجود سلطة للحكومة التركية مباشرة . وقد قال حضرته ان مسؤولية هذه الحوادث واقعة على كاهل الحكومة الانكليزية فأنا لا ارى لنفسي ولا لحكومة جلالتها بأي حال من الاحوال أقل ضلع في هذه المسؤولية . لقد ذاعت في أوربا أقاويل غريبة عمن كانوا البادئين بالشر . فمن هم المذنبون وما هي درجة ذنبهم ؟

ان حضرة العضو الفاضل يود ان يعرف سبب قولي بان لدي أدلة تدعوني الى الاعتقاد بأن الموارنة كانوا البادئين بالشر . فينبغي أن أبحث في هذا الموضوع ، وكنت أرى ألا فائدة ترجى من السعي وراء معرفة من هو الفريق الذي ضرب الضربة الاولى الا اني آسف على ان يكون حضرته قد أكرهني في الجلسة السابقة على ابداء رأيي بهذا الشأن واليكم جلية الامر : منذ بضعة أشهر راجت بين المسيحيين اشاعات عن وقوع حوادث من هذا النوع في سورية في فصل الربيع ووزعت كمية من الاسلحة الاوربية على الموارنة ، وأنا لا أسأل من أين اتتهم ومن اعطاهم اياها ولكني واثق بأنهم تلقوا أسلحة غير التي بيعت لهم علانية في بيروت .

ان قنصل انكلترا في بيروت أفادنا ان القتال بين الموارنة والدروز نشأ عن هجوم الموارنة على بعض قرى تسكنها كلتا الطائفتين لطرد الدروز منها ، وان في بيروت لجنة مارونية برئاسة اسقفها سعت الى اثارة الموارنة وحملهم على اغتنام الفرصة لاقصاء الدروز عن البـلاد . وقد قال حضرة الصديق الفاضل ان الشائعات تؤكد الآن حماية الحكومة الانكليزية للدروز مهما اقترفوا من الفظائع وانا لا استطيع ان أشير الى المصدر الذي استقى منه حضرته هذا الخبر الذي لم يسبق ان سمعت به من قبل ولكني أقول بجرأة انها تهمة وضيعة لانصيب لها من الصحة معلنا ان الحكومة الانكليزية لم يسبق ان كان لها أقل علاقة بالدروز بينما ثبت ان لحكومة غيرها عـلاقة وثيقة الموارنة .

* * *

الوثيقــة رقم ٣٣

اللورد روسل الى اللورد كولي في ٢١ شباط ١٨٦١

اطلعت باهتمام على رسائلكم الثلاثة المؤرخة في ١٩ الجاري فاتضح لي منها ان الحكومة الفرنسية تود اطالة اقامة جنودها في سورية الى ما لانهاية له • وهي تستر في باريس هذا الميل وراء الرغبة في انتهاء مهمة اللجنة الدولية وانشاء حكومة جديدة في الجبل وتتظاهر بالخوف من تجدد المذابح• أما في سورية فليس هناك شيء من هذه المزاعم ، ومن الواضح ان في وسع اللجنة وضع نظام لبنان بكل سهولــة وان لاشيء يحول دون ذلك سوى اختلاف رأي مندوب فرنسا عن آراء زملائه • فقد وافق مندوبو النمسا وبروسيا والروسية وانكلترة على تولية مسيحي على الجبل بشرط الا يكون وطنيا • وعندي أنه يصعب على حكومة الباب العالي ان ترفض هذا الرأي السديد المطابق لروح التدابير التي اتخذت في ١٨٤٢ و ١٨٤٥ •

وبعد •• فليس هناك في سورية أثر للمخاوف من حدوث مذبحة كما اوجست حكومة باريس • لاشك ان بعض نساء الدروز واولادهن وبعض الرجال قتلوا ولكن الظاهر ان لدى الحكومة التركية القوة الكافية لحفظ الامن والنظام •

ويعمد الضباط الفرنسيون في سورية الى البحث عن حجج اخرى لاطالة الاحتلال قائلين ان على الجيش الفرنسي ان يقوم بعمل حربي باهر قبل ان

يغادر البلاد وينوهون بالزحف الى حوران • فاذا أقدموا على ذلك فان بعض الدروز سيقتلون وتدمر بيوتهم وقراهم مما يثير فيهم روح الانتقام فيتسنى اذ ذاك للقائد الفرنسوي ان يدعي انه اذا جلت جنوده عن البلاد أعقب جلاءها قتال دام • وهكذا يخشى أن يؤدي ذلك الى احتلال البلاد بشكل دائم وامتلاك سورية نهائيا •

لقد قال المسيو توفنيل الى البرنس دي مترنيخ انه لايمكنه ان يقبل حشد جنوده في الشاطىء لان هواءه لايوافق صحة الجنود ، ولا يخلو قوله من صدق في ربيع هذه السنة •••

فاذا اقترح المسيو تونفيل تأجيل البدء باجلاء الجنود حتى اول ايار بحيث ينتهي في اول حزيران فينبغي قبل ان يعرض هذا الاقتراح على الحكومة الانكليزية ان يسأل عما اذا كان يرضى بقصر اقامة الجنود الفرنسيين على الدائرة التي سبقت لي الاشارة اليها فيما سبق •

ان البرنس دي مترنيخ قال لكم ان مسألة سورية لاتهم مصالح دولته ، فاعلموا ان مسألة ارسال سلاح الى امارات الدانوب ليست بذات بال في نظرنا تجاه مسألة سورية وان حكومة جلالتها قد اغضبت اهالي الامارات المذكورة بسعيها لارجاع الاسلحة التي شحنت من جنوى الى هذا المرفأ • فاذا ما سئلت انكلترة ان تعضد مصالح النمسا في الدانوب فستعلن في الوقت ذاته بأن مصالحها في البحر المتوسط ليست بالنسبة الى النمسا على شيء من الاهمية • عند ذلك يرى البرنس دي مترنيخ ان الميل لجهة واحدة لا يمكن أن يطول أمره وان على حكومة جلالة الملكة ألا تحفل بمصالح النمسا •

بيد ان حكومة جلالة الملكة قد شعرت في كل آن بان الحفاظ على سلامة اراضي السلطنة العثمانية ومنع دول اوربا من الاستيلاء على قسم منها هما

غاية حكومة النمسا ولها فيهما نفع كبير • وعليه يصعب علينا ان ندرك كيف تستطيع الحكومة النمسوية القول بألا مصلحة لها في منع فرنسا من الاستيلاء على سورية •

ومن الجلي ان استيلاء فرنسا على هذه البلاد سيعقبه في الحال امتداد سيطرتها على جميع انحاء آسيا الصغرى وان ما فعلته فرنسا بمساعدة روسيا ستفعله هذه الاخيرة في اوربا بمساعدة فرنسا فلا تنتبه حكومة النمسا من غفلتها الا ومصالحها الحيوية قد ذهبت ضحية ضعف سياستها وقصر نظرها في مسائل سورية •

* * *

الوثيقـــة رقم ٣٤

تقرير الاطباء عن حالة السلطان مراد الخامس
الذي خلع على أساسه ونصب السلطان عبد الحميد الثاني

... كنا قد ذكرنا في تقريرنا الطبي الذي وضعناه بتاريخ ٢٠ ايلول١٨٧٦ الماضي عن المرض الذي انتاب السلطان مراد خان الخامس ان الداء المصاب به داء عضال ، والآن نزيد عما تقدم أن السلطان المشار اليه لن يستعيد قواه العقلية وسلامة تفكيره بتمامها حتى فيما لو تحسنت صحته بعد مدة طويلة خلافا لما ينتظر .

طبيب سفارة انكلترا	طبيب سفارة فرنسا
ديكسون	ماروان
طبيب سفارة النمسا	طبيب سفارة المانيا
سوقو	موليخ قاسطوري
الطبيب	الطبيب
مونجري	عاكف

. . .

خطاب خلع السلطان مراد الخامس الذي تلاه الصدر الاعظم
محمد رشدي باشا في قاعة الاستقبال بقصر طوبقبو

أيها السادة

ان مليكنا السلطان مراد خان الخامس شخص متصف بصفات الملائكة ،

وقد أظهر في مقدرته ادارة شؤون السلطنة على أثر ارتقائه العرش ، لمدة عشرة ايام ، ولكن اعتراه مرض بعد ذلك لم تنجح فيه حيل الاطباء رغما عن اتخاذ كل الوسائل التي في استطاعة البشر لشفائه ، فقد أصيبت ذاكرته بضعف شديد ولا يرجى ان يصحو الآن حسبما أفاد التقرير الطبي المعطى في هذا الشأن ، ولقد انتظرنا أن يصحو من مرضه في خلال المدة التي حددها الشرع الاسلامي الشريف الذي على أسسه يقوم بناء دولتنا المتين ، وها قد مضت هذه المدة أيضا ، اني بسطت لكم حقيقة الحال فمروا بما يقضي الشرع الشريف في هذا الشأن .

. . .

فتوى خلع السلطان مراد

اذا جن امام المسلمين جنونا مطبقا ، ففات المقصود من الامامـة ، فهل يصح خلع الامامة من عهدته ؟..

الجواب : يصح والله أعلم .

كتبه الفقير
حسن خير الله
عفي عنه

* * *

الوثيقــة رقم ٣٥

تقرير مدحت باشا عن أحوال ولاية سورية عام ١٨٧٩

خصوصي

معروض عبدكم

بعد ان خدمت الدولة اربعين سنة بلا فاصلة وصل جسمي الى الضعف وخارت قواي وفضلت العزلة على العمل بعد عودتي من اوروبا وكانت ارادة جلالة مولاي السلطان قد صدرت لي بالاقامة في كريت مع عائلتي فصادف صدورها الهدف المقصود وأقمت مدة مستريحا من عناء الاعمال بيد ان جلالة السلطان قد ولاني أمور ولاية سورية فشكرت جلالته وتوجهت الى مقر وظيفتي فوصلتها بعناية الله وكنت قد حضرت الى هنا منذ ثمان وثلاثين سنة بوظيفة كاتب تحريرات وأقمت بضع سنين وحضرت أيضا منذ سبع وعشرين سنة بوظيفة موقتة ولهذا فاني أعرف البلاد السورية وطبائع سكانها ومع سابق معرفتي بهذه البلاد فقدوجدت الحالة متغيرة عن ذي قبل فقد صبغت أحوال الولاية الملكية والسياسة بصبغة غير صبغتها الاولى لان الانكليز والافرنسيين يبذلون مساعيهم من اربعين سنة لتقوية نفوذهم في هذه البلاد وقد أوصلوا جبل لبنان الى حالته الحاضرة وهم يحاولون ايصال بقية البلاد الشامية الى ما وصل اليه اهل الجبل والدول تنظر اليهم بعين المقلد فالامريكان يريدون اعلان حمايتهم لجبل النصيري فيفتحون المدارس ويشوقون الاهالي الى قبول الحماية الاميركية والالمان يرسلون مهاجريهم الى سواحل القدس لاسكانهم

في القرى المجاورة والخلاصة فان كل حكومة تريد وضع يدها على قطعة من بر الشام فالاسبانيول قد أنشأوا كنيسة ومدرسة بجهة يافا للوصول الى نصيبهم من الاستعمار ولذا فان أبناء المسيحيين قد انقسموا الى أحزاب ، فمنهم من يحاول الالتحاق بانكلترا ومنهم المتزلف الى فرنسا وحاول الدروز ايضا تأسيس حكومة درزية اعتمادا على دولة انكلترا • أما المسلمون فقد صاروا في حيرة من هذه الاحوال وبين تلك المفاسد وقد شغلت المسألة الحربية دار الخلافة ولم تبح لرجال الدولة النظر الى حالة سورية المحزنة فالاوامر التي ترسل من الاستانة قاصرة على طلب المال والجند وهذه الحالة تفتح للاجنبي باب الاستعمار وخصوصا بعد ان اشتغل موظفو الولاية بمصالحهم الشخصية وتركوا المصلحة العمومية فأخلوا بواجباتهم وفسدت أخلاق الاهلين بسبب أعمالهم وكثر القتل والنهب واختل الامن العام فوصل عدد الجنايات في جهتي (عكار) و (صافيتا) تسعين في اربع سنين ولم تقف الحكومة على أشخاص القاتلين بل لم تجازي أحدهم وطالما سجنت الجناة وأفرجت عنهم ويوجد في سجن طرابلس قوم قد سجنتهم الحكومة احدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد أخلينا سبيلهم في هذه الآونة والحالة في القرى والبلاد التي يحكمها القائمقامون توجب الاسف أما ايرادات الحكومة فقد أخبرتكم عنها بلائحة غير هذه فقلت ان الوركي قد وصل الى النصف وان الاعشار قد خربت بيوت الاهالي وقد زادت الطين بلة مسألة القائمة التي قد نزلت بسببها واردات العام الماضي الى النصف •

هذه هي مختصر خلاصة احوال الولاية الاجمالية والذين يشتكون من هذه الحالة هم الافرنج لانهم يريدون التهام البلاد بهذه الواسطة فاذا لم ننته من هذه الازمة ونخلص الاهالي من براثنها بسرعة تداخل الانكليز في

احوال الاناطول بحجة الاصلاح وتداخل الافرنسيون في احوال سورية بهذه الحجة والخلل سائد في البلاد وليس ثمة اسم للاصلاح وجرائد اوروباتكتب المقالات تلو المقالات مظهرة سوء المغبة فاذا تعرضت لاستقلالنا دولة او أكثر من دولة وافقها الرأي العام الاوربي وقام المستعمرون الذين أنشأوا المدارس في بر الشام طالبين الاشتراك في اقتسام السلب وعليه فقد أخذت في الاصلاح من يوم حضوري الى هنا لايقاف هذه الحركة وقد انتهت مسألة متصرف المركز بهمة دولتكم ولكن الامور لاتتم بحلها فقط فالولايـة محتاجة الى اصلاح أحوالها المالية ومحاكمها ومنع الرشوة التي تورث الخجل وتجعل الوطني منخفض الرأس أمام الاجانب • والخلاصة فان الواجب تطبيق قوانين المحاكم التي أسسها السلطان لاعادة الامن والسكينة الى قلوب الناس ومادام الحال على هذا المنوال فالدولة لاتصل الى الاصلاح المطلوب لان مجلس الوكلاء يصدر القرارات ويبعث بها الى الولايات غير ناظر الى أحوال بعض الولايات الراقية واحتياجاتها فتبقى القرارات حبرا على ورق وهذا الذي حدا بالافرنج الى عدم الاعتماد على قوانين الدولة العلية فأرجوكم الاسراع بالقوانين المطلوبة لان النظامات الموجودة لاتفيد في الاحوال الحاضرة والذي يعتقد ان الحالة تستمر طويلا بلا خطر يخطىء في تصوره وأنا أعرف الدواء والداء وأرى السكوت عجزا ولذا فقد عرضت المسألة على نظركم •

١٧ مارس سنة ٩٥ (١٨٧٩)

مدحت

* * *

الوثيقـــة رقم ٣٦

التذكرة التي كتبها مدحت باشا الى احمد ايوب باشا
مشير الفيلق الخامس

دولتلو افندم حضرتلري

قرأت في هذه الدقيقة تحريركم وعلمت ان الدروز يحاولون الصلح من جهة ويسعون من الجهة الثانية في قطع الماء عن العساكر وهذه المسألة قد وصلت الى درجة توجب التفكير والتشاور وقد أشـرتم في تحريركم الى مسائل يجب الجواب عليها وهي انكم تقولون اننا لانعرف سبب حـدوث الحادثة وقد كتبت لكم بتاريخ ٢٦ ايلول و ١ تشرين اول سـنة ٩٥ بعض مكاتيب ذكرت لكم فيها أن سبب الثورة هو احدى الفتيات فقد ظهرت مشاجرة بسببها فتشاجر اهالي بصر الحريري مع احد الدروز فقام سكان احدى القرى المسكونة بالدروز لنصرة اخوانهم وقتلوا عددا من أهالي بصر الحريري وكثر النزاع بين الفريقين فاجتمع الدروز ووصلت المسألة الى ما وصلت اليه فتجمهر الحورانيون والدروز فسبب المسألة معلوم ولكني لا اعرف اسم اهل القرية التي قد بدأت بهذه الاعمـال الدموية اذ لا لزوم لمعرفتهم لان المسألة قد أحدثها جماعات لا افراد .

تقولون في مكتوبكم أيضا ان اهـالي حوران قد قبلوا تأديـة الدية والحكومة قد ارسلت بعض موظفيها ليتفقوا مع مشايخ المتخاصمين وفي

المسألة وجهين أحدهما يعد من الامور الشخصية والوجه الثاني هو ما يتعلق بالحقوق النظامية فاذا تصالح الخصوم انتهت مهمة العساكر ووضعت المسألة على بساط البحث بين ايدي موظفي الملكية وعندي ان ترك المسألة في تيار مجراها الطبيعي لاينتج سوى اضاعة الوقت فيجب البحث عن اسباب الثورة ومنشأها واظهار الفاعلين والجناة واصدار الاوامر للقواد والعساكر باجراء مايلزم اجراؤه لان الناظر الى الحادثة يتضح له انها حدثت بين طائفتين من رعايا الدولة العلية قد لجأ كل فريق منهم الى السلاح وأراد قتل خصمه وقد حصل ذلك بالقرب من الفيلق الهمايوني فلا يجب عليه ان يقف كالمتفرج بل يتحتم عليه مقابلة الجناة بالقوة والبحث عن حقوق المحق واعادتها اليه وقد ظهرت المسألة بشكل اعتيادي ثم كبرت فلم تكن قوة الجاندرمة كافية لكبح جماح الثائرين فكتبت لكم تذكرة أشرت عليكم فيها بجمع قوة من الجنود وجلب المدد من بيروت ثم اجراء مايلزم من الاصلاحات بعد أعمال القوة وعليه فأخذ الدية ومداخلة موظفي الحكومة لايجوزان الا اذا فرضنا ان القوة العسكرية عاجزة عن العمل •

ولا يخفاكم ان اهالي حوران قد نالهم الظلم في هذه المسألة وهم لايطلبون سوى محاكمة الذين قتلوا بعض افرادهم وهو طلب لا يأتيه الشك ولايعتوره الاعتراض فاذا كانت قوة الحكومة غيرقادرة على جلب خصومهم فسيجلبونهم بقوة السلاح كما اظهروا ذلك وقد اجتمعوا لهذه الغاية فاذا اصطلح الخصمان ودفع الدروز الدية وجب علينا السكوت موقتا وعدم الاغضاء عن ضبط الجناة ومجازاتهم في المستقبل واذا كان طلب الصلح قد وقع من الحكومة فما الفائدة من وجود القوة المسلحة والعساكر والفيلق هناك وهل يصبح الدروز في المستقبل عصاة جناة بغاة اذا أغمضنا الطرف عن افعالهم ، نعم

سيكون اهالي حوران تحت رحمـــة الدروز اذا صرفنا النظر عن المسألة وتركناها في مجراها الطبيعي •

وقد أرسلنا عددا من رجال الدولة لاصلاح الفاسد ولما كبر الامر أرسلنا جميل باشا وأعدناهم وقد شفي سليم بك من مرضه وتوجـه الى المعسكر فيجب اصدار الامر الى القوى الموجودة هناك لاتباع أمر القومندان •

١٢ تشرين اول سنة ٩٥ مدحت

* * *

الوثيقــة رقم ٣٧

البرقيــة الواردة من الصدر الاعظم

الى مدحت باشا

يحضرني سفير انكلترا تارة وطورا يتوجه الى نظارة الخارجية بسبب ما اتخذتموه من الاحتياطات لتأديب الدروز • ان فرنسا تعاون الموارنة وانكلترا تساعد الدروز فالانكليز لا يسرون بما تتخذه من التدابير لتأديبهم وقد وصلت حالة الموارنة الى ما لا تحمد عقباه بسبب عذرهم ولذا فان قنصل فرنسا يسأل عن حركات العساكر وسكناتهم وحركات الدروز توجب الجزاء واذا لم يجازوا وترك حبلهم على غاربهم أنتج تركهم احتقار الحكومة بيد أن تماديهم في العصيان يرجع الى وقت بعيد ولم يحن وقت تأديبهم وقد اضطرت الحكومة في هذه الايام الى استعمال القوة لارهابهم ولو كانت القوة كافية فان غرضنا الوحيد هو تحبيب ادارة الدولة والموارنة واستعمال القوة لايوصل الى تلك النتيجة وانتم لاتجهلون هذه الحقيقة ونحن نرى أن ترك المسألة الى زمانها الموافق اليق ونحبذ الاصلاح بين المتخاصمين •

وقد قلتم في محرراتكم ان اهــالي حوران قد قبلوا اعطاء مبلغ معلوم ومالوا الى الصلح والحكومة ترى من واجباتها الاصلاح بين المتخاصمين ولا تتأخر عن دفع الدية من خزينتها منعا للقال والقيل وتخلصا من اصرار بعض الدول •

والخلاصة فقد أمرنا السر عسكر بارسال مايلزم من القوة اللازمة اتباعا لامركم بيد أننا ننتظر بكل سرعة حسم المسألة بالسلم وذلك أن ترسلوا عددا من المسموعي الكلمة عند المتحاربين وتتوجهوا انتم اذا اقتضت الحالة لاتمام المسألة بلا حرب ولا اراقة دم ونحن في الانتظار .

١٣ تشرين اول سنة ٩٥

الباش وكيل
سعيد

* * *

الوثيقــة رقم ٣٨

الكتاب المرسل الى الصدر الاعظم

قلت لكم قبل اليوم ان مسألة حوران قد تسببت عن منازعة بسبب فتاة ثم كبرت فبلغ عدد المتجمعين اربعة آلاف شاكي السلاح وكثر القتل ولم يبق ثمة وجه للنظر الى المسألة من بعيد فأرسلنا الموظفين ورجال الضابطة أولا ثم أرسلنا الجنود للتفريق بين المتخاصمين فقال الحورانيون ان الدروز قد قتلوا منهم عددا غير قليل ويجب على الحكومة مجازاة الجناة واذا لم تجازهم أخذوا ثأرهم بيدهم لانهم أكثر عددا منهم وأصروا على قولهم ، أما الدروز فقد امتنعوا عن تسليم الجناة ولجأوا الى القوة ومنعوا الماء عن الجيش واستولوا على بعض القرى وقتلوا أربعة من النفوس فأرسلنا لهم غير مرة طالبين تسليم الجناة فأبوا ثم وافقوا على اعطاء مقدار من النقود فلم يقبل ذلك الحورانيون .

والسياسة لاتقضي بترك الحورانيين أسارى في يد الدروز ومع هـذا فستكون النتيجة خضوع جهة حوران وتوابعها للدروز ولا سبيل الى الخلاص من ذلك الا باستعمال القوة العسكرية التي قد ابتدأنا باستعمالها مع الشكر.

مدحت

١٤ تشرين اول سنة ٩٥

* * *

الوثيقـــة رقم ٣٩

رسالة برقية من مدحت باشا الى استامبول

قرأت برقيتكم رقيم ٢٣ مايس سنة ٩٦ ولذا فأنا اقدم فرائض الشكر الى العتبة السنية لسبب النعمة التي وجهها الي جلالة السلطان بتبليغ سلامه.

أما بقية المباحث فأقول : اني لا اقول بوجوب سن قوانين وانشاء محاكم فقط فطالما ناديت بملء صوتي طالبـــا سن القوانين وانشاء المحاكم وأنتم لا تجهلون كل ذلك غير ان الفرمان الذي كتب لي عند توجيه منصب ولاية سورية يعترف صراحة بوجوب ما طلبته وسأطلبه وهو مراعاة عوائد سكان الولاية ومشاربهم ومصالحهم ولكننا لم ننظر الى هذه الواجبات بل أصدرنا اللوائح وحاولنا اجراءها في جميع البلدان ولم نصلح بعضها اصلاحا جزئيا بل لم نسمع بعض الشكايات وقد اتبعنا مواد القوانين في بعض البلاد ولم ننفذها في بعضها وتركنا القديم ولم نتبع الجديد فظهرت البلاد بمظهر غريب وزاد الطنبور نغمة هذا الخلاف القائم بين دوائر الحكومة الملكية والعسكرية فاذا طلب الوالي مقدارا من العساكر لاعادة الامن الى نصابه في ولاية مثل سورية رفض القومندان واذا أرسل مقدارا من الجنود الى بلدة وأراد اعادتها امتنعت عن العودة واذا كتب الى القائد عن أمر تأخر الجواب فاذا كان هذا الفعل الشخصي فكيف تصبر البلاد على نتيجته الوخيمة واذا اقام الوالي ببلدة ولم ير المشير مرة في ستة أشهر فما يكون حال هذه البلدة وقد قللتم عـــدد عساكر الجاندرمة فضعفت قوتها وأنزلتم مرتبـــات موظفي الحكومة

فاستعانوا بالرشوة والنهب والسلب واتبع رجال المحاكم خطة غير مرضيـــة فأصبح الامن مهدد الاركان في طول البلاد وعرضها ومع كل هذا فالتلغرافات الواردة يوميا تلقي تبعة ما يحدث على عاتق الولاة وهذا ما يحدو بالانسان الى عدم التحمل وقد أرسلت أحد عبيدكم بلائحة وسأنتظر الى عودته اتباعا لاوامر جلالة ولي النعم لاني اعد ان الذمة تحتم علي كل ذلك .

٢٥ مايس سنة ٩٦ مدحت

* * *

الوثيقة رقم ٤٠

البلاغات الواردة لحلب بمناسبة الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد

الى الولاية الجليلة

سار فيلق الحركة تحت قيـادة حضرة محمود باشا قائد الفيلق الثالث وفيلق الحركة مساء يوم الجمعة من اياستفانوس وأشغل أولا القشل الكائنة في دار السعادة ودخل يوم السبت صباحا الاستانة بكل انتظام الا ان بعض المحلات تشبثت بالمقاومة وذلك بسبب سوء التفهم ثم بنتيجة المقاومة وبعد ان حصل من الطرفين طلقات جزئيـة واستؤمنت ولله الحمد ، وأما عموم المواقع العسكرية الموجودة داخل البلدة فقد ضبطت من طرف فيلق الحركة واعتني باعادة الامن والسكون وحسن محافظتهما فالامن والسكون سائدان بهذا اليوم • ولم يقع عطل أو ضرر للاهالي مالا او بدنا أصلا بيد انالشائعات الدائرة بحق جلالة السلطان لا اساس لها كليا • وقد أخذت أركان العسكرية بتأمين أفكار ونيات فيلق الحركة لقاء مقام السلطنـة العظمى وأما مجلس المبعوثان الذي كان يجتمع في ايا استفانوس منذ ثلاثة اربعة ايام فسيدعى بهذا اليوم للاجتماع واجراء المذاكرات في دائرته المخصوصة باستامبول ، فلتكن الكيفية معلومة معاليكم على هذه الصورة ونوصيكم بايفاء التبليغات لمن يلزم بالنظر لذلك وخصوصا بالاهتمام والاعتناء بحسن محافظة السكون والراحة المحلية الواجبة في مثل هذه الاوقات •

في ١٢ نيسان سنة ٣٢٥ — الصدر الاعظم

توفيق

• • •

الى ولاية حلب الجليلة

كنا ذكرنا ان الافراد العاصية من العساكر الموجودة في عمـوم القشل والمخافر الكائنة في جهات استامبول وبك أوغلي قد سلمت سلاحها نهـار أمس الا العساكر الموجودة في قشلة السليمية لم تسلم سلاحها ولكن بهذا اليوم سلمت العساكر الموجودة في قشلة السليمية المذكورة سلاحها بـدون ترك مجال لاستعماله • بناء عليه صار اشغال سائر جهات استامبول بعساكر الفيلقين الثاني والثالث المطيعة والمحبة للمشروطية وقد أعلنت الادارة العرفية بهذا اليوم في استامبول والبلاد الثلاثة وحصلت الموفقية بتأمين وتأسيس الانضباط والسكون ومحافظة المال والارواح على الوجه اللائق وقد بلغنا رياسة المجلس العمومي الملي الذي اجتمع اليوم في اياستفانوس انه لم يبق مانع لاجتماعه في محله المخصوص وعليه سيجتمع المجلس في محله الخاص به اعتبارا من نهار الغد فصار المعلومات •

في ١٢ نيسان ٣٢٥

قائد الفيلق الثالث
محمود شوكت

• • •

الى ولاية حلب الجليلة

ان الامنية والسكون التام سائدان هنا ، الا انه تقرر لدى مجلس الوكلاء لزوم اعلان الادارة العرفية في دار السعادة وملحقاتها وجتالجه وازمير عن مدة موقتة احتياطا ، ولدى الاستيذان صدرت الارادة السنية السلطانية آذنة بذلك فنبلغكم ذلك ويلزم ان تبذلوا مساعيكم بخصوص وقايـة الاذهان العمومية من الهياج وتأمين السكون العام أيضا •

في ١٣ نيسان سنة ٣٢٥

ناظر الداخلية
رؤوف

* * *

البابُ الثالث

ملاحق

بعض الكلمات والمصطلحات المعروفة في العهد العثماني

(أ)

ابهتلو : صاحب الابهة .
اتك : ذيل .
الاراضي الخمس : الاراضي التي يجبى ٥ ٪ من غلالها .
الاراضي العشر : الاراضي التي يجبى ١٠ ٪ من غلالها لقلة الجهد في زراعتها .
أرطلية : جنود الفرقة .
ارسلان : أسد .
اسكي : قديم . أصيل .
اشراقات : الاجراء ، الصبيان .
الاصناف : أصحاف الحرف .
اضباشي : الحاجب ، البواب، صاحب غرفة الدخول .
اظن : طويل .
اغا آغات الوجاق : كبير ضباط الفرقة
اغا السراي : شيخ الحرم في المدينة المنورة الذي تعينه الدولة مدى الحياة .
اغوات : ضباط .
اق : ابيض .
اقچة (اخشاية) : عملة عثمانية فضية تساوي ربع او ثلث البارة .
اقينجي : القوات التي تؤلف طلائع الفرسان .
الاي : فرقة .
الايلي : خارج من الصف .
أمير امراء : باشا بطوخين (من الدرجة الثانية) .
أمير الحج : قائده والمشرف على قافلته
أمين الصرة : حامل الاموال الخاصة بالحرمين الشريفين .
انباشي : عريف .
انكشارية : العسكر الجديد ، الجند المحترفون الذين تعدهم الدولة العثمانية من غلمان المسيحيين .
أوجاق : فرقة من الجند .
أوده : فرقة من الجند .
أوردي : جيش .
أورطة : فرقة من الجند .
أورينك : نموذج .
أوطاق : خيمة فخمة .
أوغلي : ابن .
أولو وزير : الصدر الاعظم (كما كان يدعى في القرن السادس عشر) .
ايچ أوغلان : أسرى الحرب من الغلمان المسيحيين الذين نشأوا في دور الحكومة العثمانية .
ايلاق : عاطل عن العمل .

(ب)

پادشاه : احد القاب السلطان ، السيد الأعظم .

بازرباشي : اغا السوق ، المشرف عليه سيد البازار .
باش : رئيس ، أول .
باش جوقدار : رئيس فتيان القصر .
باش كاتب : رئيس الكتاب ، رئيس الديوان .
باش معماري : معلم معمار .
الپاشا : الوزير ، الوالي ، نائب السلطان
پاشالق : الولاية .
بشقة : آخر ، غير .
بكچي : حارس .
بلطجي : جلاد ، سياف .
بلطجية : رسل ، مبعوثين .
بلوك : فرقة من الجند .
بهجتلو : صاحب البهجة .
بورجي : بوّاق ، نافخ في البوق .
بوش : عقيم ، عديم الفائدة .
بوماق : المسلم البلغاري .
بيردي (بيور ولدي) : الامر السامي
بيرق : علم ، لواء ، راية .
بيرق الحرب : العلم الامبراطوري .
بيرقدار التفكجية : حامل لواء الرماة
بيقلي : ابو شنب .
بيكلر بكي : امير امراء ، باشا بطوخين (الرتبة الثانية من رتب الباشوية)

(ت)

تتر : رسل . مبعوثون .
تربدار (تربي) : المشرف على المقبرة او على الضريح .
ترسخانة : دار الاسلحة .
ترسيم : احتياط . مراقبة .
تريكي (ترياكي) : المولع بالقهوة أو الشاي أو التدخين .
تسمير : تثبيت اللحام بمسامير غليظة على صفيحة خشبية عقابا له وتشهيرا به .
تفكچية : قناصة ، رماة ، الجنود حملة البنادق .
تقرير ابقاء الباشا : فرمان ابقاء الباشا في ولايته .
تمسكات : سندات .
تنكز : البحر .
توقيع : كتاب من الباشا .
تيمار : اقطاعة تعطى للجندي مقابل تقديمه عددا من فرسان الارض .

(ج)

جادر : خيمة .
جادرجي : خيمي .
جالق : مضطرب . متقاعد .
جاويش (شاويش) : حاجب ، الدليل في الحرب ، مخبر ، رقيب .
جبخانة : ذخيرة ، العدد الحربية .
جبهجي : فرقة مصلحي الاسلحة .
چربچي : من اعيان الانكشارية .
الجردة : قافلة تحمل المؤن الى الحجاج وتلقاهم في طريق عودتهم الى دمشق .
جردةجي باشا : قائد الجردة .
چفتلك : مزرعة . اقطاعة .
چفتلي : خادع . غشاش .
چلبي (أو شلبي) : سيد . خواجة
چنك (شنك) : ضاحية شمالي الشام

خصصت لسكن العسكريين .
الجوخدار : من فتيان القصر ، رسول السلطان ، مبعوث امير الحج للتبشير بسلامة الحجيج .
چوي : مسمار .

(ح)

حرق الخشبة : دلالة النقمة على شخص ما والانتقاص من اعتباره .
حكمدار : حاكم ، قائد الشرطة .
حمايلي : حجاب .

(خ)

خاتون : سيدة .
خاقان : سلطان .
خَرَج : زنار . صرف .
خرم : سعيد . مسرور .
خزنة مصر : الاموال التي ترسلهامصر للخزينة السلطانية .
خزندار : امين الصندوق ، امين الخزينة .
خزينة الوجاق : صندوق الفرقة .
خستخانة : مستشفى .
خط شريف : فرمان يحمل اسم السلطان او خطه .
خنكار : من القاب السلطان .

(د)

الدالاتية : طائفة من الجند (او الدلاة)
دالي (من : ديلي) : مجنون . طائش . متهور .
دفتردار (او الدفتري) : المشرف على الادارة المالية .
دق الزغل في المعاملة : زيف العملة . سك النقد الزائف .
الدلال : المنادي .
الدورة : جولة سنوية للباشا بمناطق عجلون ونابلس تأمينا للحج .
الدوسة : احتفال يقيمه اصحاب الطريقة السعدية بمناسبة المولد النبوي ، عند الشدة ، يدوس فيه شيخ الطريقة المنبطحين على الارض بجواده دون ان يصيبهم أذى .
الدوشمان : العدو .
دولتلو : صاحب الدولة .
دونانمة : اسطول .
ديوشيرمة : ضريبة الغلمان .

(ر)

رصد خانة : مرصد ، مرقب .
رفعتلو : صاحب الرفعة .
الركب الحلبي : الحج الحلبي .
روزنامجي : محاسب .

(ز)

زادة : ابن .
زرباوات : اشقياء .
زردخانة : مستودع الاسلحة .
زلطة : عملة مغشوشة (٣٠ بارة) .

(س)

سباهية : فرسان الباب العالي من المرتزقة .

سخم وجهه بالسواد : طلى وجهه بالسواد .
سرجي : ناقل البريد .
سردار : قائد الجند .
سرعسكر : قائد الجيش .
سر طبيب : رئيس الاطباء .
سر معمار : المعلم المعمار .
سعادتلو : صاحب السعادة .
سلحدار : المشرف على مستودع الاسلحة .
سلخور (سلاحشور) : مبعوث السلطان .
سلملك : بهو الاستقبال ، مضافة .
السليمانية : من رتب العلماء الاتراك الرفيعة .
السمرمر : طير يفتك بالجراد .
سيران : نزهة .

(ش)

الشاشية : ضريبة على الحرف .
شحتة : جوع .
شربجية : من اكابر الانكشارية .
ششمان : سمين .
شهشوار (أو شهسوار) : ماهر . جريء .
شوشرة : اضطراب . حيرة .

(ص)

صاحب العرض : المسالم الذي يحافظ على الشرف .
الصدر الاعظم : الوزير الاعظم .
الصرة : اموال ترسل من الدولة لاشراف الحجاز .
الصرة اميني : امين الصرة .
صنجق : علم . قسم من الاقسام الادارية . راية ترفع عند الخطر .
صنجق الخزنة : قائد الجند الذين يحافظون على الخزينة .
صندوق اميني : امين الصندوق .
صوباشي : ضابط أمن . رئيس فرقة من السباهية .

(ض)

ضربخانة : دار سك العملة أو النقد.

(ط)

طابور : كتيبة . فرقة .
طبنجة : غدارة .
الطلعة : خروج محمل الحج .
الطواشي : خادم الحريم بسراي الباشا
الطواشية : الخصيان .
طوب : مدفع .
طوبال : اعرج .
طوبجي : مدفعي .
طوخ : شعرة من حصان تدل على رتبة الباشوية (يقال : باشا بطوخ ، باشا بطوخين ، باشا بثلاثة اطواخ اما السلطان فله سبعة اطواخ) .

(ع)

عراضة : موكب .
عربي كاتبي : الكاتب باللغة العربية .
العرض : ضريبة على الحرف .
عرض اوردو : معسكر . مركز .
العلايف : المعاشات .

(ف)

فرمان : مرسوم . قرار .

(ق)

قابجي (أو قبجي) : بواب السلطان (اصبح فيما بعد مجرد لقب) .
قادين : سيدة .
قامات : سلاح ماضي .
قانون نامة : التشريع الذي وضعه سليمان القانوني محاولا وضع حد للمساوىء السابقة .
قبجي : بواب دائرة في قصر السلطان
قبجي التقرير : حامل فرمان السلطان بتقرير الولاية .
قبلان : نمر .
قبودان باشا : امير البحر .
قبه وزيرلري : وزراء القبة ، الذين يجلسون مع الصدر الاعظم تحت قبة واحدة دون ان يكون لهم اية سلطة .
قبوقول : جند الدولة الذين يرسلهم السلطان الى الولايات .
قراجا : قليل السواد . غزال .
قردجي : صانع الاسلحة .
قره : اسود .
القسطلار (قزلر اغاسي) : خصي كان يشرف على حرم السلطان .
قشلة وقشلاق : ثكنة عسكرية .
القفادار : الموظف الذي يسير خلف قافلة الحج .
قفطنجي السلطان : حامل خلعة السلطان .
قلبق : لباس رأس .
قلّق : مخفر .
قناق : مضافة ، فندق المسافرين .
قيللي : ذو قيلة . او : كثير الشعر .

(ك)

كتّاب : حامل بريد الحجاج الى اقربائهم .
كتبخانة : دار الكتب .
كيخيا (كتخدا) : نائب الباشا .
كرخنجي : صاحب معمل او مصنع .
كور : أعور .
كول : مملوك .

(ل)

لاوند : طائفة من الجنود (جنود قدماء متطوعون) .
لعل : ياقوت احمر .
لغمجية : واضعوا الالغام .
لومان : سجن . حبس .

(م)

ماونة : دوارع بحرية ثقيلة .
متسلم : وكيل الباشا في ادارة الولاية
مرزا (أو ميرزا) : ابن الامير .
المزيرباتية : العائدون من المزيريب بعد وداع الحجاج .
مزدجي باشي : حامل البشرى للسلطان بسلامة الحج .
المشطجي : دليل أمين الصرة في قافلة الحج .
المشيخة : ضريبة على الحرف .
مصرية (ج : مصاري) نقود (اصلها

عملة نحاسية كانت تستعمل في مصر) .
معمارباشي : معلم معمار .
منلا : عالم ، سيد (أصلها العربي مولى) .
مهردار : حامل الاختام .
مولوخانة : مكان المولوية .

(ن)

نائب حلب : وكيل الحاكم فيها .
نشانجي : صاحب التوقيع ، القيم على خاتم السلطان .
نعلبند : البيطار .
نوبچي : موسيقي . حرس .

(و)

وجاق : فرقة .
وكيل خرج : المشرف على الصرف .
ويركو : ضريبة ، خراج ، اتاوة .
وينوق : الفرقة التي تحمل الارزاق والمؤن للجيش .

(ي)

يازجي : كاتب .
ياور : مرافق ، معاون .
ياباشي : رئيس الجند المشاة .
يدي قولة : خزانة الابراج السبعة (بيت مال السلطان) .
اليرلية : الجند المحلية (الانكشارية)
يسق : ممنوع .
يسقجي : خفير ، جلواز .
يسق : منع .
يشمك : لثام .
يطقان : ساطور . سيف .
يغما : غش ، مكر ، خداع ، فوضى .
يغنيش : غنيمة باردة ، نهب ، سلب خطأ .
يكي چرى (تقرأ : يني چري) : القوة الجديدة .
اليمق : اصحاب الحرف الملتحقون بالجندية الذين يساعدون الانكشارية في الدفاع والحراسة .
يمكخانة : مطعم .
الينكچرية : القوة الجديدة (أي : يكي چري) .

* * *

احداث تاريخية

السنة	الحـــدث
٧٥٢	احتلال العرب لصقلية .
٧٩٨	احتلال جزر الباليار .
٨٣٨	مهاجمة تارانتو على الساحل الايطالي .
٨٤٠	احتلال العرب لباري بايطاليـا .
١٠٩٦	القضاء على أول حملة صليبية .
١٠٩٧	بدء الحروب الصليبية المنظمة .
١١٤٤	استرداد عماد الدين زنكي الرها من الصليبيين .
١١٨٧	انهزام الصليبيين امام صلاح الدين في معركة حطين .
١٢٩١	استرداد عكا من الصليبيين وجلاؤهم نهائيا عن الشام .
١٢٥٨	احتلال المنغول لبغـداد .
١٢٦٠	(٣ ايلول) معركة عين جالوت وهزيمة المنغول .
١٤٠١	غزوة تيمورلنك لبلاد الشام .
١٤٠٢	انتصار تيمورلنك على العثمانيين في معركة چابوق آباد
١٤٥٣	سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين .
١٤٧٢	زواج صوفيا باليولوغ وريثة العرش البيزنطي من القيصر الروسي ايفان الثالث .
١٥٠٧	بدء امارة فخر الدين المعني الاول .
١٥٠٩	قضاء البرتغاليين على الاسطول المصري .

السنة	الحـــدث
١٥١٤	انتصار العثمانيين على الفرس في معركة چالديران .
١٥١٦	(٢٤ آب) معركة مرج دابق ودخول العثمانيين لبلاد الشام .
١٥١٦	(٢٦ ايلول) دخول العثمانيين دمشق .
١٥١٧	شنق طومان باي وانتهاء مقاومة المماليك .
١٥٢٠	وفاة السلطان سليم الاول (ياوز سلطان) .
١٥٢١	انتصار الجيش العثماني بقيادة فرهاد باشا على ثورة جانبردي الغزالي (معركة القابون) .
١٥٢٣	عصيان احمد باشا على السلطات العثمانية .
١٥٣٥	اتفاق تجاري بين فرانسوا الاول وسليمان القانوني تحصل فرنسا بموجبه على أول امتياز لها في الشرق .
١٥٤٣	وفاة المتوكل وانتهاء الخلافة العباسية .
١٥٤٤	مقتل فخر الدين المعني الاول وامارة ابنه قرقماز .
١٥٧٠	استيلاء العثمانيين على قبرص .
١٥٧١	انكسار الاسطول العثماني في معركة ليپانتو .
١٥٨١	تأسيس شركة الشرق الادني الانكليزية .
١٥٩٨	معركة نهر الكلب بين يوسف سيفا وفخر الدين المعني الثاني .
١٦٠٠	تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية .
١٦٠٨	دخول فخر الدين المعني الثاني دمشق مع حلفائه .
١٦١٣	رحيل فخر الدين المعني الى ميناء ليڤورنة لاجئا .
١٦١٨	انتصار فخر الدين على السيفيين في معركة عكار .
١٦٦٩	تخلي البندقية عن كريت للعثمانيين .
١٦٨٠	حصار الجيش العثماني مدينة ڤيينا .

السنة	الحـــدث
١٦٩٧	وفاة الامير احمد آخر الامراء المعنيين وانتقال الامر الى الشهابيين .
١٧١٠	معركة عين دارا بين الامير حيدر واليمنية .
١٧١١	صلح بروث بين روسيا والدولة العثمانية .
١٧٣٠	تنازل الامير حيدر الشهابي للامير ملحم .
١٧٥٤	اعتزال الامير ملحم الامـــارة .
١٧٤٢	محاصرة ظاهر العمر في طبريا من قبل سليمان باشا العظم .
١٧٦٠	تسلم الحكومة البريطانية حكم الهند من شركة الهند الشرقية .
١٧٧٠	الاسطول الروسي يحرق الاسطول التركي بجوار جزيرة خيوس .
١٧٧٢	انتصار ظاهر العمر على الجيش العثماني قرب صيدا .
١٧٧٣	وفاة علي بك عاهل مصر .
١٧٧٤	عقد صلح كوچك كينارجه .
١٧٧٥	انتهاء حكم ظاهر العمر بوفاته .
١٧٨٨	تولية الامير بشير الشهابي الثاني أمور لبنـــان .
١٧٩٢	معاهدة ياسي بين روسيا والنمسا من جهة والدولة العثمانية من جهة اخرى .
١٧٩٩	حملة نابليون على سوريا .
١٨٠٢	توقيع اتفاقية جلاء الفرنسيين عن مصر .
١٨٠٤	وفاة احمد باشا الجزار وانحسار كابوسه عن الشام .
١٨٠٧	(تنظيمات) سيلم الثالث ، أولى محاولات الاصلاح على الطريقة الفرنسية .
١٨٣١	بدء الزحف المصري الى الشام .
١٨٣٢	انتصار ابراهيم باشا على العثمانيين قرب قونية .
١٨٣٣	صلح كوتاهية . معاهدة هنكار اسكله‌سي .

السنة	الحـــدث
١٨٣٩	هزيمة العثمانيين امام ابراهيم باشا في معركة نصيبين .
١٨٣٩	احتلال بريطانيـا لعـدن .
١٨٤٠	مؤتمر لندن ضد محمد علي وتراجع المصريين عن الشام .
١٨٤١	بدء النزاع الطائفي في الشام بين الدروز والموارنة .
١٨٤٢	اتفاقية تنظيم لبنان ، وقسمه الى قائمقاميتين درزية ومارونية .
١٨٥٠	وفاة الامير بشير في مالطـة .
١٨٥٦	معاهدة باريس اثر انتهاء حرب القرم .
١٨٦٠	النزاع الطائفي في الشام باوسع اشكاله .
١٨٦١	جلاء الفرنسيين عن الشام واقرار نظام لبنان الجديد .
١٨٧٠	ثورة النصيرية والعلويين ضد الدولة العثمانية .
١٨٧٦	خلع السلطان مراد الخامس وتولية السلطان عبد الحميد . مدحت باشا ، الصدر الاعظم ، يعلن الدستور (المشروطية الاولى) .
١٨٨٩	بدء تأليف الجمعيات السرية ضد الاستبداد الحميدي ، جمعيـة طلاب (الطب العسكري) . بدء اصدار جريدة (مشورت) ، نواة جمعية الاتحاد والترقي فيما بعد .
١٨٩٠	مؤتمر الارمن في ڤيينا ضد الدولة العثمانية .
١٨٩٧	المؤتمر الصهيوني بمدينة (بال) بسويسرا .
١٩٠٢	مؤتمر باريس الاول ما بين الجمعيات المناهضة لعبد الحميد .
١٩٠٧	مؤتمر باريس الثاني ما بين الجمعيات المناهضة لعبد الحميد وتقرير خلع السلطان وتبديل الادارة ووضع اسس المشروطية .
١٩٠٨	قيام ثورة الاتحاد والترقي واعادة الدستور (المشروطية الثانية) .
١٩٠٩	خلع السلطان عبد الحميد وتنصيب محمد رشاد .

* * *

ولاة الشام بين سني ١٥١٧ ـ ١٩٠٨

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
ن بردي الغزالي	١٥١٧	٣	٠
س باشا	١٥٢٠	٠	٩
ماد باشا	١٥٢٣	٣	٠
زم باشا	١٥٢٤	١	٩
اشي سليمان باشا	١٥٢٥	١	١
قي باشا	١٥٢٦	٤	٦
سى باشا الفنري	١٥٣٠	٢	٦
صطفى باشا	١٥٣٢	١	٨
قي باشا (مرة ثانية)	١٥٣٣	١	٢
سى باشا (مرة ثانية)	١٥٣٥	١	٠
حمد باشا (كوزلجة)	١٥٣٦	٠	٩
ليمان باشا طوبال	١٥٣٧	٠	٧
حمد باشا وزير	١٥٣٧	٢	٢
سرو باشا	١٥٣٩	١	١
سى باشا (مرة ثالثة)	١٥٤٠	٤	٠
ري باشا	١٥٤٣	٢	٠
سنان باشا	١٥٤٥	٤	٠
ري باشا (مرة ثانية)	١٥٥٠	١	٥
حمد باشا	١٥٥١	٣	٧
سمسي احمد باشا	١٥٥٤	٦	٧
فضر باشا	١٥٦٠	١	١
كليون علي باشا	١٥٦١	٠	١١
سرو باشا (مرة ثانية)	١٥٦٢	١	٠
لا مصطفى باشا	١٥٦٣	٥	٠
راد باشا	١٥٦٩	١	١
بكليون علي باشا (مرة ثانية)	١٥٧٠	١	٠
حاجي احمد باشا	١٥٧١	١	٠
درويش باشا	١٥٧٢	٣	٧
لالا جعفر باشا	١٥٧٥	١	١١
حسن باشا	١٥٧٧	٤	٥
بهرام باشا	١٥٨١	٠	٧
حسين باشا	١٥٨١	٠	٧
حسن باشا (مرة ثانية)	١٥٨٢	١	٤
سليمان باشا	١٥٨٣	٠	١
أويس باشا	١٥٨٣	١	٠
محمد باشا	١٥٨٤	٠	١
اويس باشا (مرة ثانية)	١٥٨٤	١	٠
علي باشا	١٥٨٥	٠	٧
جامورجي محمد باشا	١٥٨٥	٠	٤
علي باشا (مرة ثانية)	١٥٨٥	٠	٤
سنان باشا	١٥٨٦	١	٧
حسن باشا (مرة ثالثة)	١٥٨٨	١	٤
مصطفى باشا	١٥٩٠	٠	٧
محمد باشا ابن سنان	١٥٩١	١	٦
خليل باشا	١٥٩٢	١	٣
محمد باشا ساطرجي	١٥٩٣	٠	٧
علي باشا بستانجي	١٥٩٣	٠	١
مراد باشا	١٥٩٣	١	١
خسرو باشا الخادم	١٥٩٤	٠	٨

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
مراد باشا (مرة ثانية)	١٥٩٤	٠	٧
خسروا باشا (مرةثانية)	١٥٩٥	١	٤
مصطفى باشا	١٥٩٦	١	٠
سنان باشا ابن جغال	١٥٩٧	٠	٨
احمد باشا	١٥٩٧	١	١
خسرو باشا (مرة ثالثة)	١٥٩٨	٠	٦
شريف محمد باشا	١٥٩٨	١	٤
محمود باشا بن سنان باشا	١٥٩٩	١	١
عثمان باشا	١٦٠١	٠	١١
بستانجي فرهاد باشا	١٦٠٢	٠	١٠
مصطفى باشا بن راضية خاتون	١٦٠٣	٠	٠
محمودباشا (مرة ثانية)	١٦٠٣	٠	٥
عثمانباشا (مرة ثانية)	١٦٠٣	٠	١
محمد علي باشا جنبلاط	١٦٠٤	١	٢
سنان باشا التلكي	١٦٠٥	٠	٣
احمد باشا الحافظ	١٦٠٦	٦	٠
محمد باشا چركس	١٦١٣	٢	٦
محمد باشا چوخدار	١٦١٥	٠	٦
احمد باشا (من مصر)	١٦١٦	٠	٦
مصطفىباشا (من بغداد)	١٦١٧	٠	٦
سليمان باشا وزير	١٦١٧	٢	٠
مرتضى باشا الوزير	١٦١٩	١	٠
محمد باشا	١٦٢٠	١	٠
مصطفىباشا (مرةثانية)	١٦٢٢	١	٠
نيكدهلي مصطفى باشا	١٦٢٣	١	٠
محمد باشا كورجي	١٦٢٤	١	٠
محمد باشا طيار	١٦٢٥	١	٠

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
احمد باشا الكجك	١٦٢٧	٣	٠
مصطفى باشا اغا الانكشارية	١٦٣٠	١	٠
سليمان باشا عردار	١٦٣١	٠	٣
يوسف باشا	١٦٣٢	٠	٣
احمد باشا الكجك (مرة ثانية)	١٦٣٢	٢	٠
مصطفى باشا سلحدار	١٦٣٤	١	٠
احمد باشا الكجك (مرة ثالثة)	١٦٣٥	١	٠
درويش محمد باشا	١٦٣٦	٢	٠
مصطفى باشا أغا الانكشارية (ثانية)	١٦٣٨	١	٠
عثمان باشا چفتلي	١٦٣٩	١	٠
محمد باشا الحافظ	١٦٤٠	١	٠
احمد باشا السروجي	١٦٤١	١	٠
ملك أحمد باشا	١٦٤٢	١	٠
حراد محمد باشا	١٦٤٣	٠	٠
يوسف باشا سلحدار	١٦٤٣	١	٠
محمد باشا كورجي	١٦٤٤	١	٠
ابراهيم باشا	١٦٤٥	١	٠
محمد باشا كورجي (مرة ثانية)	١٦٤٦	١	٠
محرم باشا	١٦٤٧	١	٠
محمد باشا كوبرولو	١٦٤٨	١	٠
محمد باشا	١٦٤٩	١	٠
مرتضى باشا سلحدار	١٦٥٠	٠	٥
مصطفىباشاسيواسلي	١٦٥٠	٢	٠
آق محمد باشا	١٦٥٢	٢	٠

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
محمد باشا بن الدفتردار	١٦٥٤	٢	٠
نازي باشا شهشوار	١٦٥٦	١	٠
محمد باشا وزيراعظم	١٦٥٧	١	٠
مرتضى باشا سلحدار (مرة ثانية)	١٦٥٨	٠	٤
احمد باشا الطيار	١٦٥٨	٢	٠
ندري باشا	١٦٦٠	١	٠
مصطفى باشا	١٦٦١	١	٠
احمد باشا كوپروللو	١٦٦٢	١	٠
سليمان باشا	١٦٦٣	١	٠
مصطفى باشا قلبه‌لي	١٦٦٤	٢	٠
صالح باشا الوزير	١٦٦٦	١	٠
مصطفى باشا قبلان	١٦٦٧	١	٠
مصطفى باشا فراري	١٦٦٨	٠	٧
محمد باشا الجاويش	١٦٦٨	١	٠
شيطان ابراهيم باشا	١٦٦٩	٣	٠
حسين باشا الاصفر	١٦٧١	١	٠
محمد باشا الاسود	١٦٧٢	١	٠
ابراهيم باشا شيشمان	١٦٧٣	١	٠
كور حسين باشا	١٦٧٤	٣	٠
عثمان باشا	١٦٧٧	٢	٠
حسين باشا الاصفر	١٦٧٩	٥	٠
عثمان باشا (مرة ثانية)	١٦٨٤	٢	٠
قبلان باشا	١٦٨٦	٢	٠
صالح باشا بن دويعر	١٦٨٧	١	٠
حمزة باشا	١٦٨٨	٢	٠
احمد باشا سلط	١٦٨٩	١	٠
مرتضى باشا	١٦٩٠	١	٠
محمد باشا كورجي	١٦٩١	١	٠

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
اسماعيل باشا	١٦٩٢	٢	٠
عثمان باشا سلحدار	١٦٩٤	٢	٠
بيقلي مصطفى باشا	١٦٩٧	١	٠
احمد باشا	١٦٩٨	٢	٠
حاجي قران حسن باشا	١٧٠٠	١	٠
حسن باشا سلحدار	١٧٠١	١	٠
ارسلان باشا	١٧٠٢	١	٠
محمد باشا كردبيرام	١٧٠٣	١	٠
ارسلان باشا (مرة ثانية)	١٧٠٤	١	٠
قره حسين باشا الفراري	١٧٠٥	١	٠
كردزاده بيرام باشا	١٧٠٦	١	٠
سليمان باشا بلطه‌جي	١٧٠٧	١	٠
حسين باشا حلبي	١٧٠٨	١	٠
عثمان نصوح باشا	١٧٠٩	٥	٠
محمد باشا چركس	١٧١٤	١	٠
يوسف باشا طوبال	١٧١٥	١	٠
ابراهيم باشا قبودان	١٧١٦	١	٠
عبد الله باشا كوپروللو	١٧١٧	١	٠
رجب باشا	١٧١٨	١	٠
عثمان باشا ابو طوق	١٧١٩	١	٠
عثمان باشا كتخدا	١٧٢٠	٣	٠
عثمان باشا معتوق	١٧٢٢	١	٠
عثمان باشا ابو طوق (مرة ثانية)	١٧٢٣	٢	٠
اسماعيل باشا العظم	١٧٢٥	٦	٠
عبد الله باشا الايدينلي	١٧٣١	٣	٠
سليمان باشا العظم (مرة ثانية)	١٧٣٤	٥	٠

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
حسين باشا	١٧٣٩	١	.
عثمان باشا محصل	١٧٤٠	١	.
عليباشا بن عبديباشا	١٧٤١	١	.
سليمان باشا (مرة باشا)	١٧٤١	١	.
سليمانباشا (مرةثالثة)	١٧٤٢	١	.
اسعد باشا العظم	١٧٤٣	١٤	.
حسين باشا مكي	١٧٥٧	١	.
عبد الله باشا چتجي	١٧٥٨	٢	.
محمد باشا چالق	١٧٦٠	١	.
عثمان باشا الصادق	١٧٦١	١٠	.
محمد باشا العظم	١٧٧١	١	.
بستانجي حافظ مصطفى باشا	١٧٧٢	١	.
محمد باشا العظم (مرة ثانية)	١٧٨٣	١٠	.
محمد باشا بن عثمان باشا	١٧٨٣	.	٢
درويش باشا بن عثمان باشا	١٧٨٣	١	.
احمد باشا الجزار	١٧٨٥	٢	.
حسين باشا البطال	١٧٨٧	١	.
ابراهيم باشا الدالاتي	١٧٨٨	٤	.
احمد باشا الجزار (مرة ثانية)	١٧٩١	٥	.
عبد الله باشا العظم	١٧٩٦	٣	.
ابراهيم باشا القطر آغاسي الحلبي	١٧٩٨	.	٢
احمد باشا الجزار (مرة ثالثة)	١٧٩٩	١	.

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
عبد الله باشا العظم (مرة ثانية)	١٨٠٠	٤	.
احمدالجزار (مرةرابعة)	١٨٠٣	١	.
ابراهيم باشا القطر القطرآغاسي (ثانية)	١٨٠٤	١	٦
عبد الله باشا العظم (مرة ثالثة)	١٨٠٦	٢	.
كنج يوسف باشا	١٨٠٨	٢	.
سليمان باشا	١٨١٠	٢	.
سليمان باشا سلحدار	١٨١٢	٢	.
علي باشا روملي	١٨١٥	.	٣
علي باشا الحافظ	١٨١٦	٤	.
مصطفىباشا شيشمان	١٨٢٠	.	٣
صالح باشا معدنلي	١٨٢٠	.	.
صدر اسبق درويش باشا	١٨٢٠	٣	.
صدر اسبق صالح باشا	١٨٢٣	١	.
مصطفى باشا بيلاني	١٨٢٤	٢	.
ولي الدين باشا	١٨٢٦	٢	.
صالح باشا (مرة ثانية)	١٨٢٧	١	.
عبد الرؤوف باشا	١٨٢٨	٢	٢
سليم باشا	١٨٣٠	١	.
حاجي علي باشا	١٨٣١	.	.
ابراهيم باشا المصري	١٨٣١	٩	.
حاجي علي باشا (مرة ثانية)	١٨٤٠	.	١
نجيب باشا	١٨٤٠	١	.
احمد باشا	١٨٤١	.	٣
علي رضابا بغدادي	١٨٤٢	٣	.

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
. باشا	١٨٤٤	٠	١
باشا	١٨٤٤	١	٠
ى صفوت باشا	١٨٤٥	٢	٠
ل باشا الكاملي	١٨٤٧	١	٠
ان باشا	١٨٤٨	١	٠
د محمدسعيدباشا	١٨٤٩	١	٠
د عزت باشا			
زنجانلي	١٨٥٠	١	٠
حق باشا	١٨٥١	٠	٤
عشقر باشا	١٨٥٢	١	٦
د عارف باشا	١٨٥٤	٠	٤
ح وامق باشا	١٨٥٥	١	٠
ود نديم باشا	١٨٥٦	٠	١١
طفى باشا	١٨٥٧	٠	١
د عزت باشا	١٨٥٧	٠	١١
باشا كوتاهيه‌لي	١٨٥٨	١	٠
ل باشاكاملي (ثانية)	١٨٥٩	٠	٣
د عزت باشا	١٨٥٩	١	٠
ر باشا	١٨٦٠	٠	٣
د امين باشا	١٨٦١	؟	
د باشا (ضبطية			
مشيري اسبق)	١٨٦١	١	١
د رشدي باشا	١٨٦٢	٢	٥
د مخلص باشا	١٨٦٥	٠	٩
د راشد باشا	١٨٦٦	٥	٣
د اللطيف صبحي باشا	١٨٧١	١	٣

الاسم	تاريخ التعيين	(المدة) سنة	شهر
محمد حالت باشا	١٨٧٢	١	٧
اسعد باشا	١٨٧٤	٠	٥
احمد حمدي باشا	١٨٧٥	١	٤
راشد باشا الناشد	١٨٧٦	٠	٨
ضيا باشا	١٨٧٦	٠	٤
عمر فوزي باشا	١٨٧٧	٠	٨
احمد جودت باشا	١٨٧٨	٠	٩
صدر اسبق مدحت باشا	١٨٧٩	١	٨
احمد حمدي باشا (مرة ثانية)	١٨٨٠	٥	٠
راشد باشا ناشد	١٨٨٥	٢	٥
نظيف باشا	١٨٨٧	١	٨
مصطفى عاصم باشا	١٨٨٩	١	٩
عثمان نوري باشا	١٨٩٠	٠	٦
اسماعيل كمال بك (بالوكالة)	١٨٩١	٠	١
رؤوف باشا	١٨٩١	٢	٠
عثمان نوري باشا (مرة ثانية)	١٨٩٣	٢	٠
نصوحي بك (بالوكالة)	١٨٩٥	٠	٠
الحاج حسن رفيق باشا	١٨٩٥	١	٠
حسين ناظم باشا	١٨٩٦	١٣	٠
شكري باشا	١٩٠٨	(اعلن في ايامه الدستور)	

* * *

سلاطين آل عثمان بين سني ١٥١٢ ـ ١٩٠٩

السلطان سليم الاول	١٥١٢	١٥٢٠
« سليمان القانوني	١٥٢٠	١٥٦٦
« سليم الثاني	١٥٦٦	١٥٧٤
« مراد الثالث	١٥٧٤	١٥٩٥
« محمد الثالث	١٥٩٥	١٦٠٣
« احمد الاول	١٦٠٣	١٦١٧
« مصطفى الاول	١٦١٧	١٦١٨
« عثمان الثاني	١٦١٨	١٦٢٢
« مصطفى الاول	١٦٢٢	١٦٢٣
« مراد الرابع	١٦٢٣	١٦٤٠
« ابراهيم الاول	١٦٤٠	١٦٤٨
« محمد الرابع	١٦٤٨	١٦٨٧
« سليمان الثاني	١٦٨٧	١٦٩١
السلطان احمد الثاني	١٦٩١	١٦٩٥
« مصطفى الثاني	١٦٩٥	١٧٠٣
« احمد الثالث	١٧٠٣	١٧٣٠
« محمود الاول	١٧٣٠	١٧٥٤
« عثمان الثالث	١٧٥٤	١٧٥٧
« مصطفى الثالث	١٧٥٧	١٧٧٤
« عبدالحميد الاول	١٧٧٤	١٧٨٩
« سليم الثالث	١٧٨٩	١٨٠٧
« مصطفى الرابع	١٨٠٧	١٨٠٨
« محمود الثاني	١٨٠٨	١٨٣٩
« عبد المجيد	١٨٣٩	١٨٦١
« عبد العزيز	١٨٦١	١٨٧٦
« مراد الخامس	١٨٧٦	

السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩

* * *

أهم المصادر

١ — الوثائق

١ ـ وثائق القسم العثماني في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق .

٢ ـ الدكتور اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية (٤ مجلدات) .

3 — Archives du Ministère des Affaires Etrangères ..... Paris

A — Correspondance politique - Turquie, Reg : 1 - 229 (1570 - 1815)

B — Correspondance Consulaire et Commerciale :

a - Saint - Jean d'Acre Reg. 978 - 981 (1721 - 1791).

b - Seyde (Saïda). Reg. 26 (1792 - 1815)

c - Tripoli. Reg. 12 - 14 (1793 - 1816)

d - Alep. Reg. 76 - 79 (1630 - 1792)

e - Alexandrette. Reg. 98 - 99 (1696 - 1778)

f - Jerusalem. Reg. 628 (1699 - 1707)

g - Saint - Jean d'Acre. Reg. 1. (1792 - 1809)

4 — Archives du Ministère de la Guerre : (1798 - 1801) Reg. B. 6, 83 (1798 - 1799) B. 6, 98

5 — Bibliothèque National ..... Paris

A — Fonds Turc : 130, 145, Correspondance diplomatique diverse

B — Fond Turc. Supplèment: recueil de lettres diplomatiques 100, 114, 118, 383, 691, 700, 701.

6 — Foreign Office ..... London
Turkey (1799 - 1802) : Fo 78. Reg : 24, 30 - 33, 35, - 36,38.

7 — Colonial Office ..... London
(1798 - 1801) : Fo 77, Reg : 54 - 57.

8 — Renè Cattaui : Le règne de Mohamed Ali d'Après les archives russes en Egypte (5. Vols).

9 — Georges Douin : Correspondance des consuls de France en Egypte (2 Vols).

10 — E. Driault : Correspondance des consuls de France en Egypte. (7 Vols).

11 — Il Regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici Italiani inediti. (4 Vols).

12 — Blue Books (1840 - 1860)

13 — Livres Jaunes Français (1860 - 1861)

14 — Comte Charles de Nesselrode : Lettres et papiers du Chancelier Comte de Nesselrode (1760-1856) (11 vols. Paris 1904)

15 — Gabriel Nourandounghian : Recueil d'actes internationaux de l'empire ottoman (2 Vols. Paris 1900).

16 — Baron de Testa : Recueil des traitès de la Porte Ottomane, avec les puissances étrangéres (6 Vols. Paris 1864)

17 — F. Berchet : Relazioni dei consoli Veneti nella Siria (Venezia 1866)

18 — Charrière : Négotiations de la France dans le Levant 4 Vols. (Paris 1848 - 1860).

19 — A. G. Politis : Le conflit Turco Egyptien de 1838 - 1841 d'après les documents diplomatiques grecs.

20 — Archivio di Stato (Venezia) :

a - Alessandria	1555 - 1569	Filze 1
	1760 - 1783	
	1745 - 1797	
b - Cairo e Alessandria	1613 - 1677	Filze 2
c - Cairo	1745 - 1781	
d - Aleppo	1613 - 1621	Filze 6
	1626 - 1648	
	1671 - 1678	
	1757 - 1797	
e - Acri	1780 - 1784	
f - Cipro	1721 - 1793	
g - Jaffa	1783 - 1784	
h - Rodi	1775 - 1792	
i - Smirne	1680 - 1797	

٢ — المراجع الاجنبية

Maurice Barrés : Enquéte aux pays du Levent ..... Paris 1923

André Moutran : La Syrie de demain ..... Paris 1916

André Bruneau : Traditions politique de la France au levant ..... Paris 1932

Jacques J. Tabet : La Syrie ..... Paris 1922

Robert de Beauplan : Où va la Syrie ..... Paris 1929

Georges Samne : La Syrie ..... Paris 1920

R. Thoumin : Histoire de la Syrie ..... Lille 1929

Gaude froy - Démombynes : La Syrie à l'epoque des Mamelouks ..... Paris 1923

H. Antabi : Les grands jours du pays de Shame ou Syrie - Alep 1935

Victor Berard : Le Sultan, L'Islam et les puissances..... Paris 1916

Eugéne Jung : Les puissancee devant la révolte Arabe... Paris 1906

Anon : Progress and present position of Russia in the East ..... London 1836

Emile Barrault : Occident et Orient ..... Paris 1835

Jean Darcy : Cent années de rivalité coloniale ..... Paris 1904

Willian Stearns Davis : A short history of the Near East ..... New York 1931

Un ancient diplomate : Le régime des capitulations ..... Paris 1898

Mordecai Epstein : Early history of the Levant Company ..... London 1908

David George Hogarth : Nearer East 1902

Holford Lancaster Hoskins : British Routes to India New York 1928

C. B. Houry : De l'intervention européenne en Orient et de son influence sur la civilisation des musulmans et sur la condition sociale des Chrétiens d'Asie ... Paris 1840

Raoul Malherbe : L'Orient de 1718 a 1845 : Histoire politique, religion, mœurs (2 Vols) ..... Paris 1846

S. B. Mills : The Portuguese in Eastern Arabia and in the Persian Gulf (Administration report for ... 1884 - 1885)

Michaud, Joseph François et J. Poujoulat : Correspondance d'Orient (7 Vols) ..... Paris 1833 - 1835

Duc d'Argyll : The eastern question 1856 - 1876 ..... London 1881

E. Driault : La Question d'Orient depuis ses origines jusqu'à la paix de Sévre 1920 ..... Paris 1921

J. A. R. Mariott : The Eastern Question : an historical study in the European Diplomacy ..... Oxford 1917

J. de Berton : Les Chrètiens d'Orient et les Réformes du Sultan ..... 25 Mai, 25 Auot 1856

John Bowring : The Syrian Question ..... London 1840

Alfonse Castaing: La Syrie, les Druses et les Maronites - Paris 1860

S. Lockroy : Ahmed le Boucher, La Syrie et L'Egypte etc. ..... Paris 1888

Ristelheber : Les traditions Françaises au Liban.

Verney et Dambmann : Les puissances ètrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine ..... Paris 1900

M. F. Koprülü : Les origines de L'empire ottoman ..... Paris 1935

P. Wittek : The rise of the ottoman empire.

A. Bruneau : Traditions et politique de la France au Levant ..... Paris 1932

A. Desjardins : de L'Origine des Capitulations dans L'empire Ottoman ..... Paris 1891

F. Charles - Roux : La domination égyptienne en Syrie (Rev. His. des colonies 1933).

P. Paolo Carali : Fakhr - ad - Din II e la corte di Toscana Roma, 1936 - 1938

G. Mariti : Istoria di Faccardino gran emir dei Drusi...Livorna 1787

H. Lammens La Syrie (2 Vols) ..... Beyrouth 1921

Richard Hakluyt : The principal navigations, traffiques and discoveries of the English Nation (Glas).

٣ ـ المراجع العربية

تقي الدين بن داوود المحبي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (٤ أجزاء) (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

نوفل نوفل الطرابلسي : كشف اللثام عن الحكام والاحكام في اقليمي مصر والشام (مخطوط بمكتبة الجامعة الامريكية) .

ميخائيل الدمشقي : تاريخ حوادث الشام ولبنان من ١١٩٧ ـ ١٢٥٧ هـ . ١٧٨٢ ـ ١٨٤١ م (بيروت ١٩١٢) .

عبد القادر العظم : الاسرة العظمية ، دمشق ١٩٥٠ .

يوسف الدبس : تاريخ سوريا ، (٨ مجلدات) بيروت ١٩٠٣ .

جرجي يني : تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ .

الياس اديب مطر : العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية ، بيروت ١٨٧٤

عمر ابو النصر : تاريخ سوريا ولبنان حتى أوائل القرن (١٩) ، بيروت ١٩٢٩

فيليب حتي : سوريا والسوريون من نافذة التاريخ ، نيويورك ١٩٢٦ .

اديب فرحات : مختصر تاريخ سوريا ولبنان ، صيدا ١٩٢٤ .

بولس مسعد : لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده ، مصر ١٩٢٩ .

(ج دي فلور) ترجمة نزيه المؤيد : القول الحق في تاريخ سوريا وفلسطين والعراق ، دمشق ١٩٢٥ .

اسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ، بيروت ١٩٣١ .

جورج مرعي حداد : فتح العرب للشام ، بيروت ١٩٣١ .

سليمان ابو عز الدين : ابراهيم باشا في سوريا ، دمشق ١٩٢٧ .

عيسى اسكندر معلوف : تاريخ الامير فخر الدين المعني ، لبنان ١٩٣٤ .

عبد القادر بدران : الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف ، دمشق ١٣٣٩ هـ. (١٩٢٠ م.) .

ادوارلو كروي ترجمة : جورج مسرة : احمد الجزار ، البرازيل ١٩٢٤ .

محمد كرد علي : الحكومة المصرية في الشام ، القاهرة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م)

اسد رستم : بيان الاوراق العربية في تاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا بيروت ١٩٢٨ .

حبيب جاماتي : ابراهيم في الميـدان ، مصر ١٩٣٤ .

الامير علي عبد العزيز الحسني : تاريخ سوريا الاقتصادي ، دمشق ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) .

عمر ابو النصر : سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر ، بيروت ١٩٢٦ .

الاب بطرس قرآلي : فخر الدين المعني أمير لبنان ، لبنـان ١٩٣٨ .

زكي النقاش ، عمر فروخ : تاريخ سوريا ولبنان المصور ، بيروت ١٩٣٥ .

نسيم نوفل : بطل لبنـان يوسف بك كرم ، الاسكندرية ١٨٩٦ .

حنا ابو راشد : حوران الدامية ، مصر ١٩٢٦ .

نجيب نصار : القضية السورية ، مصر ١٩٢٦ .

اميل يوسف حبشي : جهاد لبنان واستشهاده ، بيروت ١٩٢٠ .

(محمد بن احمد بن اياس الحنفي) تحقيق الدكتور محمد مصطفى : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مصر ١٩٥١ .

الشيخ احمد البديري الحلاق (حققه ونشره وعلق عليه **الدكتور احمد عزة عبد الكريم**) : حوادث دمشق اليومية ، القاهرة ١٩٥٩ .

المعلم نقولا الترك : حوادث الزمان في جبل لبنـان ، (مخطوط في المكتبة الظاهرية) .

الامير حيدر الشهابي : لبنان في عهد الامراء الشهابيين .

(مجهول المؤلف) : تاريخ الجزار ، نسخة مصورة في المجمع العلمي بدمشق

طنوس الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، (بيروت ١٨٥٩) .

ميخائيل مشاقة : مشهد الاعيان بحوادث سورية ولبنان ، نشره ملحم عبده واندراوس شخاشيري ، القاهرة ١٩٠٨ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .

هاشم دفتردار المدني ومحمد علي الزعبي : الاسلام والمسيحية في لبنان ، بيروت ١٩٥٢ .

الاب منصور طنوس : نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (لا مكان ولا تاريخ) .

يوسف الدبس : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، بيروت ١٩٠٥

ابراهيم عورة : منتخبات من تاريخ سليمان باشا العورة ، بيروت ١٩٢٦

انطون ضاهر العقيقي : ثورة وفتنة في لبنان (١٨٤١ — ١٨٧٣) ، بيروت ١٩٣٩ .

حسان النمر : تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، دمشق ١٩٣٨ .

بولس مسعد : لبنان والدستور العثماني ، مصر ١٩٠٩ .

يوسف موسى خنشت : طرائف الامس وغرائب اليوم ، حريصا (لبنان) ١٩٣٦ .

ابراهيم الاسود : تنوير الاذهان في تاريخ لبنان ، بيروت ١٩٢٥

عبد الله النجار : بنو معروف في جبل حوران ، دمشق ١٩٢٤ .

(**ميخائيل نقولا صباغ** نشره قسطنطين باشا) : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وصفد .

لويس شيخو اليسوعي : نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام ، بيروت ١٩٢٧ .

عبد الله حلمي ومصطفى صبري : سفينة الاسلام ، ما هي الدولة العثمانية ، مصر ١٩٠٦ .

سليم سركيس : سر مملكة ، مصر ١٨٩٧ .

عبد العزيز شاويش : العالم الاسلامي ، القسطنطينية ١٩١٢ .

احمد تيمور باشا : تاريخ العالم العثماني ، القاهرة ١٩٢٨ .

الاب مرتين اليسوعي : تاريخ لبنان ، (تعريب رشيد الشرتوني . بيروت ١٨٨٩) .

احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، (ترجمة عبد القادر الدنا) بيروت ١٣٠٨ هـ.

الدكتور حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٨

مصطفى كامل : كتاب المسألة الشرقية ، مصر ١٨٩٨ .

اسطفان الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية . (نشره رشيد الشرتوني . بيروت ١٨٩٠) .

اللورد هيدلي : ايقاظ الغرب للاسلام (ترجمة اسماعيل البارودي) ، الاسكندرية ١٩٢٢ .

محمد رفعت رمضان : علي بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ .

الى غير ذلك مما أشير اليه في حواشي الكتاب في حينه .

* * *

البابُ الرابع

فهارس و مخططات

فهرس الاعلام

(أ)

ابراهيم باشا : ٥٤ .
ابراهيم باشا (بن محمد علي) : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ .
ابراهيم باشا القطر آغاسي الحلبي : ١٤٨ .
ابراهيم بك : ١٢٦ ، ١٢٧ .
ابراهيم الجوهري : ٨٢ .
ابراهيم صباغ : ٨٦ ، ٨٣ ، ٨٤ .
ابراهيم العظم : ٧٢ .
ابراهيم اليازجي : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
ابن اياس : ٢٦ ، ٥١ ، ٥٢ .
ابن ماجد : ٨٨ .
أبو بكر : ١٢ ، ٤٥ .
أبو جعفر المنصور : ٤٤ .
أبو عبيدة بن الجراح : ٤٤ .
أبو نادر الخازن : ٥٦ .
أبو الهدى الصيادي : ٢٤٧ .
أحمد ارسلان : ٢٠١ .
أحمد أيوب باشا (المشير) : ٢٣٩ .
أحمد باشا : ٣٥ .
أحمد باشا الحافظ : ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ .
أحمد باشا الكجك : ٦٤ ، ١٣٩ .
أحمد باشا المنكلي : ١٧٣ .
أحمد الجزار : ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .
أحمد خلوصي باشا : ١٦٠ .
أحمد الشهابي : ٧٣ ، ١١٩ .
أحمد عزت باشا : ٢١٤ ، ٢١٥ .
أحمد فوزي باشا (قبودان) : ١٧٦ .
أحمد المعني : ٦٥ ، ٧٠ .
أحمد نسيم : ٣٦ .
أرطغرل : ٢٨ .
أسامة بن زيد : ١٢ .
أسعد باشا العظم : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ .
الاسكندر الكبير : ٨٦ ، ١٣٤ .
اسماعيل الاطرش : ٢٠٧ .
اسماعيل بك (المصري) : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .
اسماعيل بك (والي حلب) : ١٦٧ .
اسماعيل التنوخي : ٤٤ .
اسماعيل الصفوي : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ .
اسماعيل العظم : ٧١ .

اليزابت الاولى : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
أوجيرو : ١٣٢ .
أوجين روجيه : ٦٧ .
أوربان الثاني : ١٩ .
أورخان : ٢٩ .
أورلوف (الكسيس) : ٧٦ .
ايفان الثالث : ٩١ .
أيوب باشا : ١٩٧ .
أيوب المعني (الامير) : ٥٣ .

(ب)

بازين : ١٢٤ .
بالمرستون : ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٤٠ .
بحتر التنوخي : ٥٣ .
بربريني (اسرة) : ٦٧ .
برتييه : ١٣١ .
بشير أبو اللمع : ٢٠٥ .
بشير أبو النكد : ٢٠٣ .
بشير جنبلاط : ١٥١ .
بشير الشهابي (الاول) : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٤ .
بشير الشهابي (الثاني) : ٤٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
بشير قاسم شهاب : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ .
بطرس الاكبر : ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ .
بطرس البستاني : ٢٤١ ، ٢٤٣ .
بوالكنت (مركيز دو) : ١٧٩ .
بوابيه (الجنرال) : ١٥٦ ، ١٥٨ .
بوغوص : ١٨١ ، ١٨٨ .
بوفور (الجنرال) : ٢١٨ ، ٢١٩ .
بولس قرآلي : ٦٧ ، ٦٨ .
بونابرت (نابليون) : ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٦٦ ، ١٩٦ ، ٢٤٠ .
بيبرس (الظاهر) ٢٦ .
بيازيد (السلطان) : ٢٩ .
بيازيد الثاني : ٣٠ .

(ت)

تاليران : ١٢٢ ، ١٣٢ .
تيلور : ١٠٠ .
تيمورلنك : ٢٦ ، ٢٩ .
تيير : ١٨١ .

(ج)

جانبردي الغزالي : ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .
الجبرتي : ٧٩ .
جلال الدين (الشاه) : ٢٨ .
جنكيز خان : ٢٥ .
جومار (الخبير الفرنسي) : ١٨٨ .

(ح)

حافظ باشا (القائد العثماني) : ١٧٥ ، ١٧٦ .

حرفوش الخزاعي : ٤٤ .
حسن باشا الجزائري : ٨٣ .
حسن الشهابي : ١٤٠ .
حسن المعني : ٦٢ .
حسين باشا (القائد العثماني) : ١٦٣ ، ١٦٤ .
الحسين بن علي : ١٥٠ .
حسين جنبلاط : ٥٦ ، ٥٧ .
الحسين (شريف مكة) : ٢٣٤ .
حسين عبد الهادي : ١٦٧ .
حسين فوزي (المشير) : ٢٣٧ .
حسين المعني : ٦٥ ، ٦٨ .
حنا البحري : ١٧٣ ، ١٨٥ .
حيدر أبو اللمع : ٢٠١ .
حيدر الشهابي : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٢ ، ١٢٣ .

(خ)

خالد بن الوليد : ٢٦ .
خاير بك : ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٧٧
خسرو باشا : ١٧٦ .
خليل غانم : ٢٤٨ .
خورشيد باشا : ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

(د)

داوود باشا (حاكم لبنان) : ٢٢٥ .
درويش باشا (والي دمشق) ١٥١ .
الدمرداش : ٢٦ .
دنكزلي : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ .
دو درو (الكونت) : ٦٨ .
دوسون : ٣٦ .
دوفرين (اللورد) ٢١٩ ، ٢٢١ .
دوهاميل (الكولونيل) : ١٧٨ .
ديزيه : ١٢٦ .

(ر)

ربيعة (آل) : ٥٣ .
رزق الله حسون الحلبي : ٢٤١ .
رشيد باشا (القائد العثماني) : ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٥ .
روز (الكولونيل) : ١٩٧ ، ٢٠٣ .
ريتشارد وود : ١٧٩ ، ١٩٩ .
ريشار قلب الاسد : ٢٣ .
رينة (القائد) : ١٢٧ .

(س)

سعيد جنبلاط : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠
السفياني : ١٧ .
سليم أبو النكد : ٢١٠ .
سليم الاول : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٧٧ .
سليم باشا (والي دمشق) : ١١٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ٢٢٧ .
سليم بك (حاكم ديرالقمر) : ١٩٧ .
سليم الثالث : ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥٢ .
سليم الثاني : ٥٢ .
سليمان بك (الكولونيل سيف) : ١٦٥ .
سليمان العظم : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ .

سليمان الغزي : ٢٨ .
سليمان باشا الفرنسوي : ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ .
سليمان القانوني : ٣٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
سليمان باشا الكرجي : ١٤٨ ، ١٤٩ .
سمث (سدني) : ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .
سول : ١٨١ .
سيف الدين التنوخي : ٥٤ .
سيف الدين محمود : ٢٢ .

(ش)

شاهين أبو النكد : ٢١٠ .
شبلي العريان : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ .
شركس باشا : ٦٢ .
شريف باشا (نسيب محمد علي) : ١٦٧ .
شكيب افندي (واضع نظام لبنان) : ٢٠٣ .

(ص)

صلاح الدين الايوبي : ٢٢ ، ٢٣ .
صوفيا باليولوغ : ٩١ .

(ض)

ضيا باشا : ٢٣٨ .

(ط)

طاهر باشا (القائد ببيروت) : ٢١٠
طنوس الشدياق : ٢٤٢ .
طومان باي : ٣٢ ، ٣٥ .

(ظ)

ظاهر العمر (الزيداني) : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١١٦ ، ١١٩ .

(ع)

العاضد (الخليفة) : ٢٢ .
عباس بن ظاهر العمر : ١٣٦ .
عباس (بن محمد علي) : ١٦٣ .
عبد الحميد الاول : ١١٧ .
عبدالحميد الثاني : ٣٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
عبد الرحمن الكواكبي : ٢٤٩ .
عبد العزيز (السلطان) : ٢٣٠ .
عبد القادر الجزائري : ٢١٤ .
عبد الله الجزار : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٢ .
عبد الله العظم : ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ، ١٤٨ .
عبد المجيد (السلطان) : ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

عثمان (ابو العثمانيين) ٢٨ ، ٣٣ .
عثمان بك (قائد حامية حاصبيا) : ٢٠٨ .
عثمان باشا الصادق : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .
عثمان بن ظاهر العمر : ٨٢ : ٨٣ .
عزت باشا العابد : ٢٣٥ ، ٢٤٧ .
عساف التركماني : ٤٥ .
علاء الدولة : ٣١ .
علاء الدين السلجوقي : ٢٨ .
علم الدين (آل) : ٤٤ .
علي بك : ٣١ ، ١١٥ .
علي بن ابي طالب : ١٦ .
علي جنبلاط : ٥٧ ، ٥٩ .
علي حمادة : ٢٠٨ .
علي الصغير : ٢١٢ .
علي علم الدين : ٦٥ .
علي بك الكبير : ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١١٦
علي بن ظاهر العمر : ٨٣ .
علي المعني : ٥٨ .
عماد الدين زنكي : ٢١ .
عمر باشا النمسوي : ١٩٩ ، ٢٠٠ .
عمر بن الخطاب : ٤٤ .
عمر الزيداني : ٧٠ ، ٧٤ .

(غ)

الغز (قبائل) : ٢٨ .
غيزو : ١٨١ .
غو دو فروا دوبويون : ٦٧ ، ٦٨ .

(ف)

فارين (بارون دو) : ١٦٥ .
فاسكو دو غاما : ٨٨ .
فخر الدين الاول (المعني) : ٥٣ .
فخر الدين الثاني (المعني) : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .
فرنسوا الاول : ١٠٦ .
فرحان باشا : ٥١ .
فرناندو الاول : ٥٩ .
فريدريك بربروسا : ٢٣ .
فرينياك (دو) : ١١٥ .
فكتوريا (الملكة) : ٢١٥ .
فؤادباشا : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
فيلنوف (مركيز) : ١٠٧ ، ١٠٨ .
فيليب أغسطس : ٢٣ .
فيليبو : ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ .

(ق)

قاسم الاحمد : ١٧٢ .
قاسم يوسف : ٢١٢ .
قانصوه الغوري : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
قايي (عشيرة) : ٢٠٨ .
قرقماز المعني : ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ .
قسطنطين التاسع : ٣٠ ، ٩١ .
قليج ارسلان : ٢٠ .

(ك)

كاترين الاولى : ٧٦ ، ٩٦ .
كارادوفو : ٦٨ .
كامبل (ممثل بريطانيا) : ١٧٩ .
كلوت بك : ١٨٦ .
كليبر : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ .
كنج ابو صالح : ٢٠٨ .
كوزمس الثاني : ٥٩ .
كولبر : ١١٠ .
كونراد الثالث : ٢٢ .
كيوان : ٥٥ .

(ل)

لامنس : ٤٥ .
لطيف بك (مبعوث محمد علي) : ١٥٤ .
لودفيغ (اميل) : ١٤٢ .
لويس الرابع عشر : ١٠٠ ، ١٠٨ .
لويس السابع : ٢١ .
لويس صابونجي : ٢٤٨ .
لويس فيليب : ١٧٧ .

(م)

مارمون : ١٢٦ .
مارون نقاش : ٢٤٥ .
ماريتي : ٦٧ .
المتوكل : ١٧ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .
محمد ابو البركات : ٣٦ .
محمد ابو الذهب : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ .
محمد ابو هرموش : ٧١ .
محمد آغا ابو نبوت : ١٤٩ .
محمد الاول (السلطان) : ٣٠ .
محمد ارسلان : ٢١٢ .
محمد بن عبد الوهاب : ١٤٩ .
محمد الثاني : ٣٠ ، ٣٨ ، ٩١ .
محمد الرابع : ٦٥ .
محمد رشاد (السلطان) : ٢٣٧ .
محمد العظم : ١١٩ .
محمد علي باشا : ٤٥ ، ١٠٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ .
محمد كرد علي : ٦٨ .
محمود الاول : ١٠٧ .
محمود الثاني : ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٦ .
محمود شوكت باشا : ٢٣٦ .
مدحت باشا : ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
مديتشي (اسرة) : ٦٣ .
مراد باشا : ٥٨ ، ٥٩ .
مراد بك (المصري) : ١١٥ .
مراد الثاني (السلطان) : ٣٠ .
مراد الخامس : ٢٣٠ ، ٢٣٤ .
مراد الرابع (السلطان) : ٦٤ .
مرتين (دو) : ١٢٧ .

المستعصم بالله : ٢٥ .
المسيح : ١٨ ، ٢١ .
مصطفى باشا : ٦٤ .
مصطفى بربر : ١٤٨ ، ١٤٩ .
مصطفى الثالث (السلطان) : ١١٧ ، ٢٣١ .
مصطفى الرابع : ١٥٢ .
مصطفى كمال : ٢٣٦ .
معاوية الاول : ١٤ ، ٨٦ .
معن (ابو المعنيين) : ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٩
ملحم رسلان : ٢٢٥ .
ملحم الشهابي : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .
ملحم المعني : ٦٥ ، ٧٠ .
منصور الشهابي : ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .
المهدي : ١٣٣ .
مورا : ١٤٣ ، ١٤٥ .
موراڤييف : ١٧٧ .
مورو : ١٣٢ .
ميخائيل الجمل : ٨٤ .
ميخائيل مشاقة : ٢٤٣ .
ميو (القائد) : ١٤٣ .

(ن)

نائفة جنبلاط : ٢٠٨ .
نابليون بونابرت : (انظر بونابرت) .
نابليون الثالث : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨
نابيير (الكومودور) : ١٨١ ، ١٨٢ .
الناصر بن قلاوون : ٨٨ .
ناصر الدين محمد بن الحنش : ٥٠ .
ناصيف ابو النكد : ١٩٦ .
ناصيف اليازجي : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
نجيب افندي (رسول السلطان لمحمد علي) : ١٥٨ .
نجيب باشا (والي دمشق) : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٧ .
نجيب الحداد : ٢٤٥ .
نجيب عازوري : ٢٤٨ .
نجم الدين الغزي : ٥١ .
نصوح باشا : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ .
نظام الملك : ٣٩ .
نور الدين محمود : ٢١ ، ٢٢ .
نوفل نوفل الطرابلسي : ٢٤٢ .
نيقولا الترك : ٢٤٢ .

(هـ)

هارون الرشيد : ١٠٣ ، ١٠٤ .
هرتسل : ٢٣٨ .
هولاكو : ٢٥ .
هيلار : ٦٧ .

(و)

الوليد بن عبد الملك : ١٤ .
الوليد الثاني : ١٥ .

(ي)

يحيى حمدان : ١٧٣ .
يوحنا (القديس) : ١٠٣ .
يوسف ارسلان : ٧١ .
يوسف سيفا : ٤٥ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٩٩ .

يوسف الشهابي : ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٣٩
يوسف ضيا : ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .
يوسف القسيس : ٨٤ .
يوسف كرم : ٢٠٠ ، ٢١٣ .
يوسف باشا الكنج : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٨
يوسف المبيض : ٢١٢ .
يونس المعني : ٥٣ ، ٦٠ .

* * *

فهرس الامكنة

(أ)

ادرياتيك : ٩٤ .
الاردن : ٦٧ .
ارمينيا : ٢٨ .
آزوف : ٩٥ .
اسبانيا : ١٤ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠١ .
استامبول : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ .
الاستانة : (انظر استامبول) .
اسكندرونة : ٤٩ ، ١٠٦ ، ١٦٨ .
الاسكندرية : ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .
اسكي شهر : ٢٨ .
آسيا : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢٤٠ .
أضنة : ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٧ .
افريقيا : ١٤ ، ٤٣ ، ٨٦ .
الافلاق : ٩٥ .
أفيون قره حصار : ١١٧ .
اقريطش : (انظر كريت) .
اقليم التفاح : ٢١٢ .
البيرة : ٢٣٨ .
المانيا : ١٩٢ .
أمالفي : ٨٧ .
الامانوس : ١٥٥ .
الامبراطورية البريطانية : (انظر انكلترا) .
أمريكا : ٩٧ ، ١١٣ ، ٢٤٢ .
أم ولد : ٢٣٧ .
الاناضول : ٢٨ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٥٧ ، ١٦٩ .
الاندلس : ١٧ ، ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ .
انطاكية : ٢٠ ، ٢٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ .
انكلترا : ٢٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ .
أوربا : ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤

١٢٣ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٢
٢١٩ .
أورفة : ٢٣٨ .
اوستراليا : ٢٤٢ .
أياصوفيا (جامع) : ٣٦ .
ايبريا : ٩٢ .
ايران : (انظر فارس) .
ايطاليا : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩١ ، ١٢٢ ، ١٣٥
٢١٧ .

(ب)

باب النيرب : ٢٠٤ .
الباروك (نهر) : ٥٣ ، ٨٠ ، ١١٩ .
باري : ٨٧ .
باريس : ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٥٨
١٩٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ .
بال : ٢٣٨ .
الباليار (جزر) : ١٤ ، ٨٧ .
بانقوسا : ٢٠٤ .
بانياس : ٥٦ .
بتدين القش : ١٩٧ .
البترون : ١٨١ .
البحر الاحمر : ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٨
١٠٠ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٨٩ .
البحر الاسود : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
٩٨ ، ١٠٨ .
بحر البلطيق : ٩٤ .
البحر المتوسط : ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٥٤
٧٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩
١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٠
بخارى : ٩٢ .
البرتغال : ٩١ ، ٩٧ .
بروث (صلح) : ٩٥ .
بروسا : ١٦٥ .
بروسيا : ٩٠ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢١٧ .
البروقانس : ٨٧ .
بريطانيا : (انظر انكلترا) .
بشارة (بلاد) : ٧١ ، ٧٤ ، ٢١٢ .
البصرة : ١٠٠ ، ٢٣٢ .
بعبدا : ١٩٨ .
بعلبك : ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٣٨
٢١٣ .
بغداد : ١٧ ، ٢٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤
٢٣٢ .
بغدان : ٩٥ .
البقاع : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٣
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٥١ ، ١٨١
١٩٨ ، ٢١٣ ، ٢١٨ .
بكاسين : ١٩٧ .
بكين : ٢٥ .
بلاط الشهداء : ١٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ .
البلان (اقليم) : ١٧٤ ، ٢٠٧ .
بلجيكا : ١٧٧ .
بلغاريا : ٩٠ ، ٢٢٠ .
بلغراد : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٣٤ .
البلقان : ٣٤ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢
٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٨٠ .
بمباي : ١٧٨ .
بنات يعقوب (جسر) : ٨٣ .
البندقية : ٢١ ، ٢٧ ، ٥٩ ، ٨٨ ، ٩١
٩٤ ، ١٠٩ .
بنغالة : ١٠٠ .
البوسفور : ١٧٥ .

البوسنة : ٢٢١ .
البوشناق : ١١٥ ، ١١٦ .
بولونيا : ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ .
بيت الدين : ٢٠٠ ، ٢١١ .
بيت مري : ٢٠٦ .
بيروت : ٢٢ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨١ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
بيزا : ٢١ .
بيزنطة : ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٢ .
بيلان : ١٥٧ ، ١٦٤ .

(ت)

تارانتو : ٨٧ .
تبريز : ٣١ .
تركيا : ٩٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٢١٧ .
تشوي (نهر) : ٢٥ .
توسكانا : ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٩ .

(ج)

چالديران (معركة) ٣١ .
جب جنين : ٢١٨ .
جبل الدروز : ٢٣٧ .
جبل الزيتون : ٢٣٨ .
جبل طابور : ١٤٣ .
جبل طارق : ١٤ ، ٨٧ .
جبوق آباد (موقعة) : ٢٩ .
جبيل : ١٣٨ ، ١٨١ .
جدة : ٩٩ ، ١٥٠ ، ١٧٨ .
جرجوع : ١٩٧ .
جرنايا : ١٩٧ .
الجزائر : ١٩٠ ، ٢١٤ .
الجزيرة العربية : ٣٧ ، ٥٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٣٦ .
جزين : ٦٤ ، ١٩٧ ، ٢١٢ .
جنوة : ٢١ ، ١٠٩ .
جونية : ٥٦ ، ١٨١ .
جيحون (نهر) : ٢٥ .

(ح)

حاصبيا : ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .
الحبشة : ١٦٣ .
الحجاز : ٧٨ ، ١٥٧ ، ١٩١ .
حطين : ٢٢ .
حلب : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ .

حماه : ٣٢ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٥٣ .
حمص : ٢٦ ، ٣٢ ، ٧٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣
حوران : ٥٥ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ .
حيفا : ٢٢ ، ٧٤ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٦١

(خ)

خان الفرنجة : ٢١٢ .
خان يونس : ٣٢ .
خليج البصرة : ٩٤ ، ١٤٦ .
الخليج العربي : ٣٨ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٨ .
خليج العقبة : ١٤٦ .
الخليج الفارسي (انظر الخليج العربي)
الخليل : ١٦٩ .
خوارزم : ٢٥ ، ٢٨ .
خيوس (جزيرة) : ٧٦ .

(د)

داريا : ٧٩ .
الدامور : ١٨١ .
الدرعية : ١٤٩ .
الدلتا : ٣٢ ، ١١٦ .
دمشق : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ .
دمياط : ١٠٩ ، ١٢٤ .
الدولة العثمانية : ٣٤ ، ٤٧ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
دونتز (نهر) : ٩٦ .
دير القمر : ٦٢ ، ٧٣ ، ١١٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٥ .
دير مشمشة : ١٩٧ .

(ر)

راشيا : ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ .
راس الرجاء الصالح : ٢٧ ، ٤٨ ، ٩٩ ، ١١٢ .
الرملة : ٢٢ ، ١٦٩ .
الرها : ٢٠ ، ٢١ .
رودس : ١٤ ، ٨٧ .
روسيا : ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٨
روما : ١٤ ، ١٩ ، ٥٩ ، ٨٧ .
رومانيا : ٩٠ .

(ز)

زحلة : ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ .

(س)

سافوا : ٢٢٠ .
سالونيك : ١٥٤ ، ٢٣٦ .
سامرا : ١٧ .
سان غوتار (معركة) : ١٠٨ .
سردينيا : ١٤ .
سمرقند : ٩٢ .
السند : ١٤ .
السودان : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .
السويس : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٥٨
سويسرا : ٢٣٨ .
سيناء : ١٥٧ ، ١٨٠ .

(ش)

الشوف : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ١٣٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ .
شويا : ٢٠٧ .
شويفات : ٧١ .

(ص)

صافيتا : ١٧٢ .
الصالحية : ٨٢ ، ١٣٤ .
الصرب : ٩٠ .
الصعيد : ١٢٦ .
الصفا : ٥٣ .
صفد : ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٢١٣ .
صقلية : ١٤ ، ٨٧ .
صنعاء : ١٧٩ .
صور : ٢١ ، ٢٣ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٥٦ .
صيدا : ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢٤٦ .
الصين : ١٤ ، ٢٥ .

(ط)

طبريا : ٢٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٢١٣ .
طرابلس : ٢١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٦ .
طراز (نهر) : ٢٥ .
طرطوس : ٢٠ .
طروادة : ٨٦ .
طميلات : ١٢٦ .

(ع)

عبية : ٢٠٢ .
عجلون : ٥٦ .

العجم : (أنظر فارس) .
عدن : ١٧٩ .
العريش : ٣٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٩ .
العراق : ٢١ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٧٠ ، ١٦٩ ، ١٩٠ .
العقبة : ١٨٣ .
عكا : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢١٣ .
عكار : ٤٥ ، ٦٢ ، ١٧٢ .
عنتاب : ١٦٨ ، ٢٣٨ .
عنجر : ٦٣ .
عين تورة : ٢٤٠ .
عين جالوت : ٢٦ .
عين الجوزة : ١٩٧ .
عين دارا : ٧١ ، ٢٠٧ .
عين شمس : ١٣٩ .
عين عنوب (قرية) : ١٣٧ .
العيون (واقعة) : ٢٣٧ .

(غ)

غزة : ٣٢ ، ٥٠ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦١ .

(ف)

فارس (بلاد) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨٨ ، ١٩٠ .
الفرات : ٢٨ ، ١٠٠ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٩١ .
فرنسا : ١٤ ، ٢٣ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ .
فلسطين : ٢١ ، ٥٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٣٨ .
الفيوم : ١٥٦ .
ڤيينا : ٩٠ ، ١٢٥ ، ٢٤٨ .

(ق)

القابون : ٥١ .
قارلق : ٢٠٤ .
القاهرة : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
قب الياس : ١١٩ .
قبرص : ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٥٧ .
القدس : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ١٠٢

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٦٩
١٧٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
القدموس (قلعة) : ١٦٩ .
القديس بطرس (كنيسة) : ٨٧ .
القرم : ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ٢٠٤
٢١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ .
قزوين (بحر) : ٩٢ .
القسطنطينية : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤
٢٧ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٨٦
٩١ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١١٧ ، ١٢٥
١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣
٢٣٠ ، ٢٣٦ .
قفقاسيا : ٩٦ .
قناة السويس : ١٢٦ ، ٢١٧ .
قونية : ٧١ ، ١٧٧ .
القيامة (كنيسة) : ١٠٣ .
قيسارية : ٢٢ ، ١٦٣ .

(ك)

كامبوفورميو (صلح) : ١٢٢ .
كربلاء : ١٥٠ .
الكرك : ٥٠ ، ٢٣٧ .
كرمل (جبل) : ١٥٥ ، ١٥٧ .
كريت : ١٠٠ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٨٩ .
كسروان : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٧٩ ، ٢٠٥
٢١١ ، ٢٢٦ .
كفر شيما : ٢٣٢ .
نهر الكلب : ٥٥ ، ٢١١ .
كلز : ٥٥ .
كلكوتا : ٨٨ .
الكليبة : ٢٣٧ .
كليكيا : ٨٨ ، ١٦٧ .
كندا : ٩٧ ، ١١٣ .
كوتاهية : ١٦٥ ، ١٦٦ .
كوچك كينارجه : ٩٦ ، ١١٥ .

(ل)

اللاذقية : ١٠٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٢
١٨٢ .
لبنان : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٥
٦٧ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ١٣٦
١٣٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧
١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٣
١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٩
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
اللجاه : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٣٧ .
اللكام (جبل) : ١٦٩ .
لندن : ١٨١ ، ١٩٤ ، ٢٤٨ .
ليپانتو (معركة) : ٥٤ .
ليفورنة : ٦٠ ، ٦٨ .

(م)

مالطة : ٦١ ، ١٢٢ ، ١٨٢ ، ٢٤٠
٢٤٤ .
مجدل : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
المجر : ٣٨ ، ٥٦ ، ٩٠ .
المحيط الاطلسي : ٣٨ .
المحيط الهندي : ٩٤ ، ١٤٦ .
المختارة : ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
المدينة المنورة : ١٥٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
مرج ابن عامر : ١٣٢ .
مرج دابق (معركة) : ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠
مرسيليا : ١١٠ .
مرعش : ٢٣٨ .
مصر : ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠

٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥١
٥٢ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧
٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩
٩٢ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩
١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣
١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٩
١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩
١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩
معرة النعمان : ٦١ .
مكة المكرمة : ٧٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٥ .
المورة : ١٥٥ ، ١٥٨ .
الموصل : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣٢ .

(ن)

نابلس : ٢٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦١
١٦٩ .
نابولي : ٦١ .
الناصرة : ٢٢ ، ٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٥
٢١٣ .
الناقورة : ٦٠ .
النبطية : ٧١ .
نجد : ٥٣ ، ١٥٠ .
نصيبين : ١٧٦ ، ٢٣١ .
النصيرية : ١٤٨ .
نقارين : ١٨٤ ، ١٩٠ .
النمسا : ٦١ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١١٤
١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩١
٢١٧ ، ٢٢٢ .
نيحا : ٥٤ ، ٦٤ .
نيس : ٢٢٠ .
نيقيا : ٢٠ .
النيل : ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

(هـ)

الهند : ١٤ ، ٢٧ ، ٦٥ ، ٨٨ ، ٩٢
٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٠
١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٤٦ ، ١٥٧
١٥٨ ، ١٧٨ ، ١٨٨ .
هنكار اسكله‌سي (معاهدة) : ١٦٦
١٧٧ ، ١٨٠ .

(و)

وادي التيم : ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٩
١٣٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩
الولايات المتحدة الاميركية : ٩٧ .

(ي)

يافا : ٢٢ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٤
١٤٩ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢
٢٣٦ .
اليرموك : ١٣ .
اليمن : ١٧٨ .
اليونان : ٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠

* * *

فهرس المواضيع

صفحة

الباب الاول ـ عرض وتحليل :

١ ـ سورية في ظل الاسلام ١٢
٢ ـ الفتح العثماني ٢٨
٣ ـ أسس الحكم العثماني في سورية ٣٨
٤ ـ أمارة المعنيين ٥٠
٥ ـ الشهابيون وظاهر العمر ٦٩
٦ ـ أسس العلاقات بين الشرق والغرب قبل نابليون ٨٦
٧ ـ احمد الجزار وحملة بونابرت ١١٦
٨ ـ سورية والادارة المصرية ١٤٨
٩ ـ النزاع الطائفي في ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ ١٩٣
١٠ ـ عهد السلطان عبد الحميد واليقظة العربية ٢٣٠

الباب الثاني ـ وثائق تاريخية :

١ ـ بين صلاح الدين وريشار قلب الاسد (١١٩٢) ٢٥٣
٢ ـ فرمان يتعلق بجباية الاموال المطلوبة للخزينة (بالتركية) ٢٥٥
٣ ـ من البابا بولس الخامس الى فخر الدين ٢٥٨
٤ ـ وثيقة اقامة الامير فخر الدين في ايطاليا ٢٦٠
٥ ـ من نصوح باشا الصدر الاعظم الى امير توسكانا ٢٦٢
٦ ـ فرمان العفو عن ظاهر العمر ٢٦٥
٧ ـ من عثمان باشا للامير يوسف بالعفو عن ظاهر العمر ٢٦٧
٨ ـ تعليمات بونابرت الى بوفوازين رسوله الى الجزار ٢٦٩
٩ ـ رسالة بونابرت الى الجزار ٢٧٠
١٠ ـ منشور الدولة العثمانية الى السوريين لحثهم على الجهاد ضد نابليون ٢٧١

صفحة

١١ ـ كتاب ابراهيم باشا الى الامير بشير الشهابي يبشره بالنصر ٢٧٦
١٢ ـ نشرة ابراهيم باشا الى سكان لبنان ٢٧٨
١٣ ـ عريضة سكان سورية ولبنان الى السلطان عبدالمجيد ضد حكم محمد علي ٢٨٠
١٤ ـ ٣٣ وثائق عن النزاع الطائفي بين ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ ٢٨٢ ـ ٣٢٠
٣٤ ـ نصوص خلع السلطان مراد الخامس لتنصيب عبد الحميد الثاني ٣٢١
٣٥ ـ ٣٩ تقارير ونصوص عن الحالة في سورية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ٣٢٣ ـ ٣٣٣
٤٠ ـ البلاغات الواردة الى حلب عن الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثاني ٣٣٤

الباب الثالث ـ ملاحق :

١ ـ قائمة بالكلمات والمصطلحات المعروفة في العهد العثماني ٣٣٩
٢ ـ أحداث تاريخية ٣٤٥
٣ ـ ولاة الشام بين سني ١٥١٧ ـ ١٩٠٨ ٣٤٩
٤ ـ سلاطين آل عثمان بين سني ١٥١٢ ـ ١٩٠٩ ٣٥٤
٥ ـ أهم المصادر ٣٥٥

الباب الرابع ـ فهارس ومخططات :

١ ـ فهرس الاعلام ٣٦٧
٢ ـ فهرس الامكنة ٣٧٥
٣ ـ فهرس المواضيع ٣٨٣

* * *

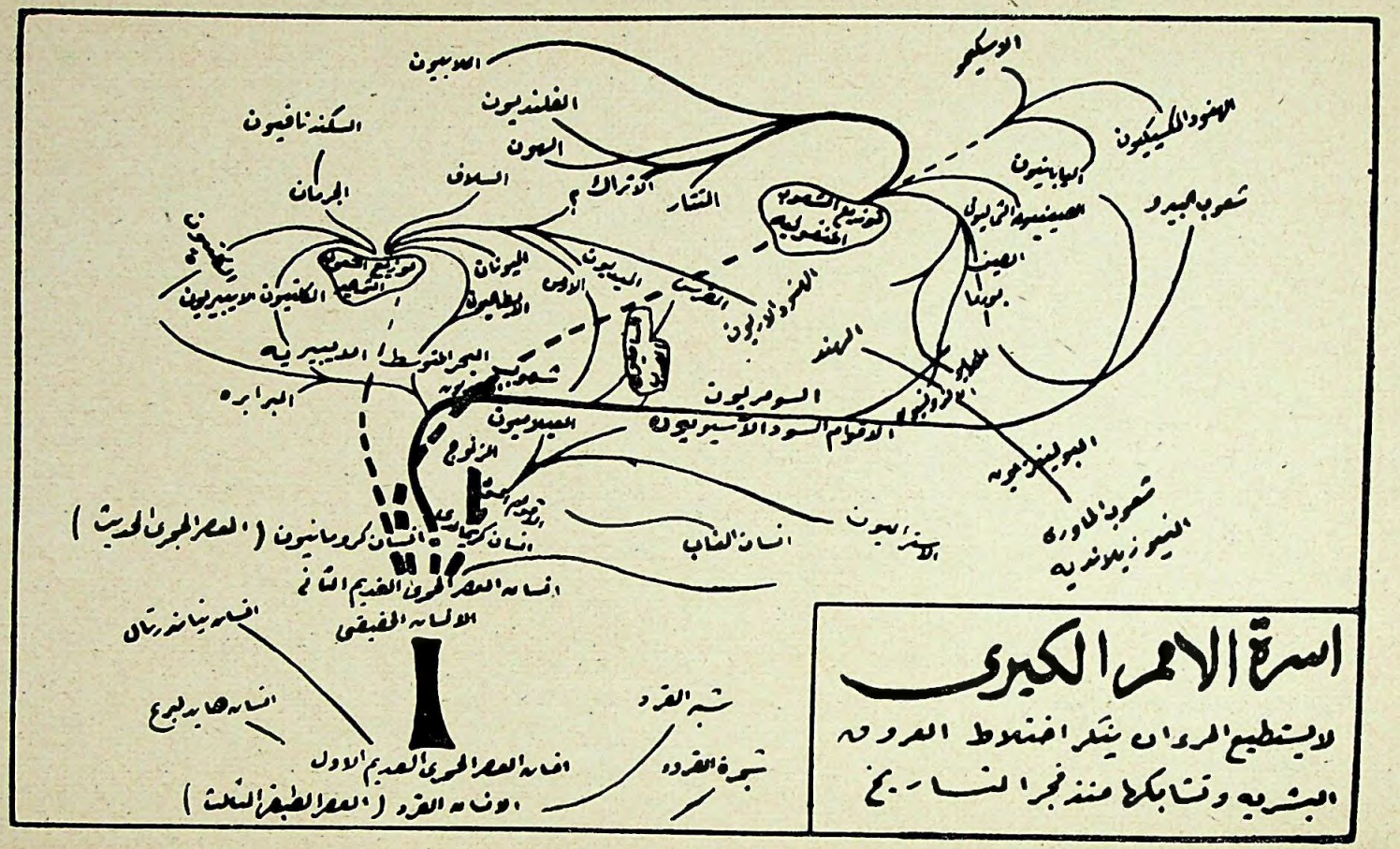
اسرة الامم الكبرى
لا يستطيع المرء ان ينكر اختلاط العروق
البشرية وتشابكها منذ فجر التاريخ
الاسكيمو
الهنود المكسيكيون
اليابانيون
الصينيون الثماليون
شعوب البيرو
الصين
بورما
الهند
الاقوام السود الاسيويون
السومريون
البولينزيون
شعوب الماوره
النيوزيلانديه
الاستراليون
انسان الغاب
الاسكندنافيون
الجرمان
السلاف
الاتراك
التتار
الفلنديون
الهون
الاسبانيون
الكلتيون
الايبيريون
اليونان
الايطاليون
الاوس
الفرس
الهنود الاريون
البحر المتوسط
الايبيريه
البرابره
الزنوج
انسان كرومانيون (العصر الحجري الحديث)
انسان العصر الحجري القديم الثاني
الانسان الحقيقي
انسان نياندرتال
انسان هايدلبرغ
انسان العصر الحجري القديم الاول
الانسان القرد (العصر الطبقي الثالث)
شبه القرد
شجرة القرود

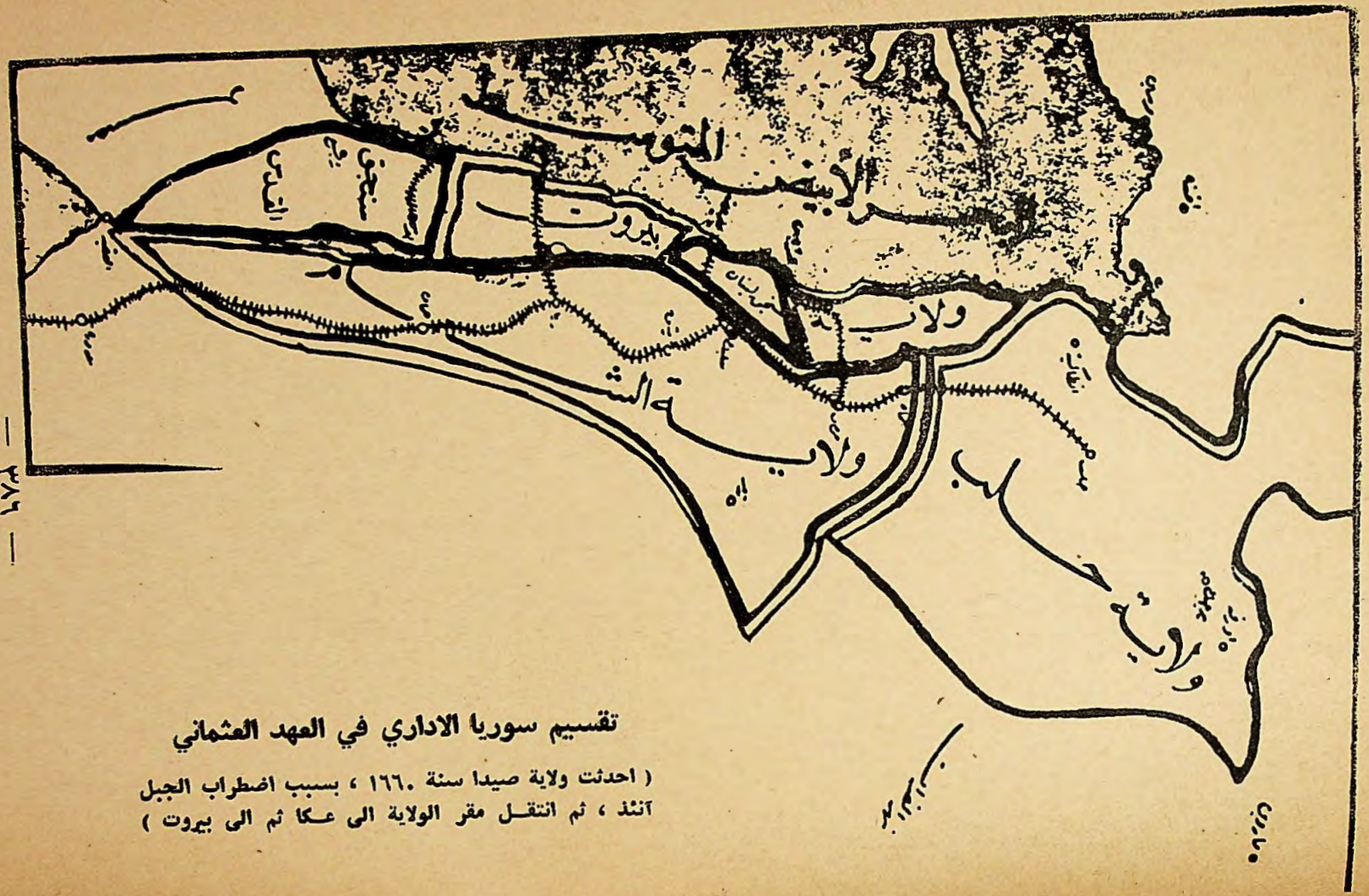

تقسيم سوريا الاداري في العهد العثماني

(احدثت ولاية صيدا سنة ١٦٦٠ ، بسبب اضطراب الجبل آنئذ ، ثم انتقل مقر الولاية الى عكا ثم الى بيروت)